هو الباقي
١٤٢٨

رحلة الخلود

الموت والقبر والقيامة وما بعدها

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

إسطنبول: ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م

اسم الكتاب باللغة التركية: Ebediyet Yolculuğu

ترجمة: محمد عز الدين سيف

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٦٢٥٤٤٠١٧٦٣

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▸ Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi - Atatürk Bulvarı Haseyad
1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Faks : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org



رحلة الخلود

الموت والقبر والقيامة وما بعدها

عثمان نوري طوبَّاش



مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، الحمد لله تعالى الذي أوجدنا من العدم، وخلقنا في (أحسن تقويم) وفضَّلنا على سائر الأمم، ووجَّهنا إلى طريق الهداية بالكتب والرُّسل ذوي العزم والهمم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الثقلَين، وإمام النبيِّين، والمبعوث رحمة للعالمين، وهادينا وناصحنا الأمين، وشفيعنا يوم الدين، وعلى آله وأصحابه الكرام الأطهار الطيبِّين.

أما بعد:

فإن الإنسان ميَّال بفطرته إلى الحق والحقيقة، فلا يرضى بالمجهول. وتثيره الحقائق فيسعى لدركِها ومعرفة كنهها، ويقلق ويضطرب إنْ واجهَ ما يجهله وما لن يعلمه.

وأكبر لغز شغلَ عقل الإنسان طوال التاريخ شغلًا تامًّا ما خفي عن "الموت" و"عالمَ الآخرة".

والحقُّ أن الموت يقضُّ مضاجع الناس جميعًا، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، عليلهم وسليمهم. فانتهاء طرق الحياة كلها إلى عقدة الموت حقيقةٌ تُذهِل العقول وتجعل القلوب تفرُّ من أماكنها خشيةً وهيبةً.

وحقيقة «الموت» التي تحيط بالمرء إحاطة النار بالهشيم وتحيِّره أكثر من معجزة «الحياة» إنما هي أشد واقعة تنزل على رؤوس الناس فلا تغادر منهم أحدًا؛ لذلك كان كشف المجهول عن الموت وما وراءه مقصود الإنسان ومنتهى غايته.

والحياة حقيقةٌ ساميةٌ لا تسعها المسافة بين المهد واللحد. أما إذا أراد المرء حلَّ عقدة الموت وما وراءه، العقدة التي يعجز العقل عن فهمها، فليس له بد من اجتناب عائق النفس، والإنصات إلى صوت الكتاب والسُّنة، وهذا لا يكون إلا بالاقتداء بحياة الأنبياء الكرام وورثتهم من أولياء الله العظام.

إن الأسئلة التي تدور حول "الموت" و"ما وراءه" تربض في الأذهان كالحيَّة السامة وتهز كيان الإنسان كلما تحركت، فيسعى أعداء الدين- ممن لا يعرفون نبيًّا ولا كتابًا ولا وحيًا- في كل عصر لطمس تلك الأسئلة بالباطل وحصرها في زنزانة اللاوعي.

ولا ريب أن ذلك مظهر من مظاهر "الهروب" تلجأ إليه نفس الإنسان لجهلها وغفلتها كي لا ترزح تحت وطأة الحقائق التي تكره أن تُحاسَب عليها. لكن هيهات أن تزول حقيقة بالهروب منها أو تجاهلها.

إن الإنسان لا يستطيع أن يطَّلع على حقيقة الموت وما وراءه بعلوم البشر التي تعصف بها رياح الجهل من كل جانب، ولا بالفلسفات المريبة التي لا تسمن ولا تغني، ولا بالقناعات الباطلة التي لا قيمة لها؛ فلا يمكن للأضواء "القصيرة المدى" أن تنير درب الموت المظلم.

وإنْ لجأ المرء إلى السير في وادي الموت والآخرة متَّبعًا أهواء نفسه وميولها، معتمدًا على فُتات المعرفة التي يمليها عليه عقله الناقص الذي لا يستفيض من ينبوع القرآن والسنة، فهو حينئذ يرمي بآخرته إلى التهلكة. ذلك أن علمه برحلة الخلود وقياساته المنطقية إنْ كانت محرومة من معين ربَّاني، فهي ليست إلا بضاعة مزجاة تكسد في ظلال التوابيت وتتعفن في ظلمة القبور.

والذي يجهل آيات الله تعالى وأحاديث نبيه الكريم لا يخدع إلا نفسه حين يرتمي في أحضان القناعات البشرية الفارغة ويظن التعاسةَ والبؤسَ سعادةً؛ ولن يفرَّ من الموت الذي قد يفاجئه في يوم لم يحسب له حسابًا، ومن الوقوعِ فريسةً

في قبضة ملَك الموت، ولن يجد مناصًا من مفاجآت الآخرة التي لا تُسِرُّ خاطره حتى لو لم تكن نفسه ترغب فيها أو تنكرها. والذي يحيا حياته غافلًا لا يستعدُّ لآخرته كمَن يظن أنه لا ليل بعد النهار ولا غروب بعد الشروق.

يقول الإمام الرباني السرهندي:

«الموت ليس مصيبةً، لكن المصيبة أن يجهل الإنسان ما بعد الموت».

يقول المولى ﷻ في كتابه العزيز:

﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [1]

فالذين يعلمون يضطربون عند ذكر الآخرة...

فيخضعون لأمر ربِّهم...

ويقومون في الأسحار ويسجدون...

ويعبدون ربَّهم ويطيعونه أملًا برحمته...

ويُعمِلون عقولهم السليمة ويعتبرون ويتَّعظون كما ينبغي بما نبَّأهم خالقُهم ﷿ عن الآخرة...

إن شعلة الحقيقة الوحيدة التي تضيء لنا الطريق بعد الموت إنما هي التفكر القائم على ما جاء في الكتاب والسنة. وليس ثمة واقعة أعظم للحي من الموت، فلا بد من إدراك عظمة ما أخبر به الله تعالى عن الموت إدراكًا سليمًا. فقد وصف القرآن الكريم الآخرةَ التي اتفقت الأديان السماوية كلها عليها بوصف "النبأ العظيم"[2] ووضَّحها للناس بكثير من الأدلة العقلية والحسية.

إن القلوب التي تصغي السمع إلى ما جاء به الوحي الإلهي فتبصر عظمة خبر الآخرة لن تغترَّ بالنعَم والملذات المؤقتة الفانية، وستصحو من غفلة الظن

---

١ الزمر: ٩.

٢ انظر: النبأ، ٢.

بأن السراب والأحلام والخيالات هي المستقبل، فتسعى للفوز بالآخرة التي هي المستقبل الحقيقي.

لأن ذلك هو المقصود من خلق الله تعالى لعباده وإكرامه إياهم بنِعَم الحياة الفانية؛ أي إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعيش عباده في أنوار الكتاب والسنة ويستفيدوا خير استفادة منهما، فينالوا بذلك السعادة في دار المقام.

ولا ننسى أن الحياة نعمة محدودة وهبها الحق سبحانه وتعالى لمرة كي نكون من المفلحين في الآخرة، فامتحان الحياة نخوضه مرة واحدة فقط، فلا يُكرَّر ولا يُعوَّض. إننا إذا أخفقنا في امتحان في الدنيا، نخضع له مرة ثانية، فإذا أخفقنا يمكن لنا أن نخضع مرة أخرى حتى ننجح. لكن امتحان الحياة نخضع له مرة واحدة، لأننا نعيش ونموت مرة واحدة فقط؛ فالكيِّسَ مَن عاشَ الحياة متنبِّهًا لحقيقة "الموت" و"الآخرة".

وقد قال رسول الله ﷺ:

«اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة».(٣)

لكننا نجد أن هناك محاولات لغرس فكرة أن هذه الحياة "حياةٌ بلا آخرة" في عقول الناس وقلوبهم في ظلِّ نظام رأسمالي ومادي وليبرالي يعيشون تحت نيره هذه الأيام. فالإنسان اليوم كأنه في عصر الجاهلية بما تمليه عليه برامج التلفاز السيئة وصفحات (الإنترنت) المدسوسة، فنراه محصورًا بين مطرقة حاجاته وسندان مطامعه الدنيوية فلا يرى الحياة إلا في أهواء نفسه.

والحق أن كل عصر تُنسَى فيه الآخرة عصرُ جاهلية، ولا تتغير هذه الحقيقة بتغير الأحوال ومضي الأوقات.

وإذا أمعنَّا النظر في صفات المجتمعات الجاهلية التي أُرسِل إليها الأنبياء، نجد أن أغلبها كانت مبتلاة بغفلة "إنكار الآخرة"، وكذلك كان حال المجتمع

---

٣ البخاري، الجهاد ٣٣، الصلاة ٤٨، الرقاق، ١.

الجاهلي الذي قصم الإسلامُ ظهره. وكان أكثر ما يقضُّ مضاجع المشركين أن هذا الدين المبين كان يخبرهم أنهم بعد الموت سيُبعثون وعلى أعمالهم سيُحاسبون.

ويغرق الناس في المجتمع الجاهلي الحاضر في مستنقع الذنوب بظنِّهم أن الدنيا بلا آخرة، وينجرُّون من ظلم إلى آخر ويبيتون في ظلمات بعضها فوق بعض. ونرى الأقوياء يسحقون الضعفاء سحقًا، فيعرِضون بذلك لوحةً للتوحش مخيفة، لأن الإنسان حينما ينأى عن الحقائق الإلهية، يبتعد عن العدل والإنصاف والوجدان، وينسى إنسانيته.

وكثير من الناس في هذه الأيام وقعوا في فخ الإلحاد، أو انبهروا بالفلسفات الباطلة، أو ضَعُف إيمانهم. وحينما يفقد الإيمانُ بالآخرة مكانه في القلب، يميل صاحبه إلى الباطل؛ فالقلب إنْ لم ينشغل بالحق شغلَه الباطل.

فعلينا أن نكثر من محاسبة أنفسنا، ونتساءل لنعرف إن كانت قلوبنا قد تشبَّعت بالإيمان بالآخرة، ونسعى لنصلح في أقرب وقت عيوبنا.

والحمد لله أننا مسلمون، نؤمن بأركان الإيمان بقلوبنا، ونُقِرُّ ذلك بألسنتنا. لكن كم نفضِّل الآخرة على الدنيا إذا اختُبِرنا بمنافع دنيوية؟ كم تستطيع قلوبنا أن تقاوم فيروس حب الدنيا الذي بات وباءً في هذه الأيام؟ كم نجعل حديث "إن العيش عيش الآخرة" أساسًا في حياتنا؟ أي كم يتجسد الإيمان بالآخرة في معاشنا؟

ولا شك أننا في آخر الزمان الذي نحيا فيه أحوج من أي وقت مضى لتذكُّر الحقائق الواردة في الكتاب والسنة عن الموت والقبر والقيامة والآخرة والتذكير بها، والإكثار من تدبر حقيقة أن العيش عيش الآخرة. والإبقاء على فكرة الإيمان بالآخرة حيةً في قلوبنا أفضلُ درع يقينا من الرضوخ لهذه الدنيا الفانية والوقوع في عذاب أليم.

ولا ننسى أن لا فرق بين الحياةِ التي لا تنيرها شعلة التفكر بالموت وليلةٍ حالكةٍ تتنزل فيها المصائب. فشمس السعادة الأبدية لا تشرق إلا على مَن عاش عمره كما أمر الله سبحانه وتعالى وانتقل إلى الآخرة مطمئن القلب مستريح الوجدان. أما الغافلون عن الحق في بيدر العمر الذي تذروه رياح الأجل، فلا تبكي عليهم الدنيا التي تركوها ولا تبتسم لهم الآخرة التي يلقونها.

وهذه السماء التي تظلنا هي عينها التي ألقت- بأمر الله- على المنكرين وابلَ المصائب في غابر الأيام، وهذه الشمس فوقنا التي كانت تشرق على قصور كثير من الظالمين كفرعون وهامان وقارون ونمرود هي نفسها الشمس التي تشرق الآن على أطلالها.

وصفوة الكلام أنه ليس خسران أعظم من تضييع الآخرة التي هي دار المقام باتباع أهواء النفس وغوائلها والقلق مما يخبِّئه المستقبل في هذه الحياة. فلا قيمة عند الله تعالى للذي ينسى الآخرة بجعل قلبه أسيرًا لهذه الدنيا التي لا تعادل عند الله تعالى جناح بعوضة. ومَن نسيَ اللهَ تعالى بانشغاله بفتات الدنيا فسينساه الله تعالى في الآخرة حين يرحم عباده الذين يرضى عنهم.

فلنضعْ في حساباتنا دائمًا أبدًا أننا ما أتينا إلى هذه الدنيا إلا لنفوز بالآخرة.

قرَّاءنا الأعزَّاء!

إننا على عتبة اللقاء بأمور عِظام: الأنفاس الأخيرة، والقبر، والقيامة، والبعث، والحشر والنشر، والميزان، والصراط...

وكثير من آيات كتاب الله وأحاديث النبي ﷺ ترشدنا إلى هذه الحقائق وتحثُّنا على الانتباه إليها. وانطلاقًا من مسؤولياتنا نودُّ أن نضع بين أيديكم هذا العمل المتواضع لعلَّه يكون وسيلةً ليكون لهذه الحقائق الكبرى موضعٌ في عقولنا وقلوبنا وحياتنا كل يوم.

وأتقدَّم هنا بجزيل الشكر للدكتور مراد كايا والأستاذَين إبراهيم حقِّي أوظون ومحمد عاكف غوناي لما بذلوه من جهد في سبيل إعداد هذا الكتاب، وأسأل الله تعالى أن يكون سعيهم هذا صدقةً جاريةً في ميزان حسناتهم.

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الذين يحلون لغز الموت والآخرة في قلوبهم بأنوار الكتاب والسنة، ويسعون للاستعداد للموت بالتقوى في معاشهم، ويعملون لجعل الحياة الآخرة حياة سعادة أبدية.

واحفظنا يا رب من غفلة إعمار الدنيا، واجعلنا نعقل أننا عنها راحلون.

ولا تحرمنا من إدراك حكمة أننا سنكون يومًا جزءًا من هذا التراب الذي نسير عليه هذا اليوم.

آمين!

عثمان نوري طوبَّاش

إسطنبول- أُسكُدار

٢٠١٧

الفصل الأول



رحلة الخلود

الموت حقيقة لا بد أن يراها كلُّ فان، فليس من الموت فرار إلى مكان، ولا للرجوع من القبر إمكان، ولا من هول يوم القيامة ملجأ للتائه الحيران.

فطوبى للعباد المفلحين الذين ارتحلوا إلى دار الخلود مُكرَمين، تاركين وراءهم ذكرى طيبة في العالَمِين.

لقد وضعَ الله تعالى قانونًا لا يستثني فيه أحدًا من خلقه، وهو أن لكل مولود عُمْرًا محدَّدًا يحياه، فإن انقضى أجله لم يجد من الموت مناصًا؛ فنهرُ الحياة في الدنيا يجري ليصبَّ في بحر الفناء.

وهذه حقيقة ذكرها المولى ﷻ في كتابه العزيز إذ قال:

﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[٤]

خلقَ اللهُ ﷻ هذا الكون ليمتحننا فيه، ففي كل حادثة حكِمٌ كثيرة، وفي كل نعمة أو مصيبة عِبَرَ عظيمة. وستنتهي مهمة هذا الكون بموت آخر إنسان يعيش فيه، ولن يبقى للحياة الدنيا أي أثر. ثم يشاء الله سبحانه وتعالى أن يبدأ نظام جديد ونمط حياة مختلف اختلافًا تامًا بقيام الساعة.

وهذا الكون الذي يحتوي بين طيَّاته مقاصد دقيقة وحِكَمًا شتى إنما هو مدرسةٌ إلهيةٌ مزيَّنة لتجعل الإنسان يُدرِك معنى العبودية للخالق ﷻ؛ أي إن الإنسان لم يُخلَق في هذه الدنيا إلا ليكونَ عبدًا لخالقه وحده ويُثبِت ولاءَه له.

ولا يعتقدنَّ الإنسان أن وجوده على ظهر هذه البسيطة عبث أو صدفة لا حكمة فيه. فقد وهبه الله ﷻ العقل كي يفكر ويتأمل ويتدبر، ووجَّهه إلى الاستقامة في كل أمر ببعث الأنبياء والرسل وتنزيل الكتب والصحف؛ ألا إن المخلوقات كلها من الذرات إلى المجرات وما على الأرض وفي المحيطات لم تُخلَق إلا لِحكم وغايات.

٤ الرحمن: ٢٦– ٢٧.

يقول الله ﷻ:

﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ**﴾[٥]

﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**﴾[٦]

﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[٧]

كل نفس ذائقة الموت

يلخِّص ربنا ﷻ ما يريده منا بقوله:

﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٨] ذلك أن المرءَ حينما يعبد ربَّه كما ينبغي، يرتقي في الدرجات المعنوية حتى ينال قلبه معرفةَ الله ﷻ.

فما أسوء أن يغتر المرء بهذه الحياة الفانية التي يعبر منها فيعيش شاردًا غافلًا لا يعلم الحكمة من غاية وجوده فيها ومسؤوليته في هذا الكون ولا يدرك سبب وقوعه في مصيدة الموت إذا انقضى أجله. وما أشدَّ خسارة مَن يحوِّل دنياه إلى مرتع لأعماله الرذيلة من غير أن يفكر بالحساب في الآخرة! فلا منجى له حينئذ إلا بحسن استعمال أنفاسه المعدودة في رحلته نحو الآخرة.

ولا شك أن الموت الذي لن يغادرَ عابرًا من هذه الحياة لغزٌ يضطر ذوو الألباب للسعي لحلِّه. فالله تعالى يقول:

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[٩]

---

٥ الدخان: ٣٨.

٦ القيامة: ٣٦.

٧ المؤمنون: ١١٥.

٨ الذاريات: ٥٦.

٩ الأنبياء: ٣٥.

ويقول في الآية الثانية من سورة الملك:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(١٠)

أي إن الموت حقيقة لا بد أن يراها كلُّ فان، فليس من الموت فرار إلى مكان، ولا للرجوع من القبر إمكان، ولا من هول يوم القيامة ملجأ للتائه الحيران.

يخاطب القرآن الكريم أولئك الذين يسعون للفرار من حقيقة الموت:

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١١)

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ...﴾(١٢)

وإذا لم يكن من الموت مفر، فلا بد من:

السعي لتحسين صورة الموت

وكيف يكون ذلك؟ ولمَن يغدو الموتُ فرحةَ لقاء بالحبيب وطمأنينةَ العائد من الغربة إلى الوطن؟

إن العمل السليم ضروري للنتيجة السليمة والجزاء من جنس العمل، لذلك ينبغي لمن يريد حياة سعيدة في الآخرة أن يعيش حياته في الدنيا مهتديًا بما جاء في الكتاب والسنة، ويزيِّنها بالإيمان والأعمال الصالحة. فالموت الذي تكون وراءه سعادة أبدية ليس إلا مكافأة على حياة نزيهة مضت في أنوار الإيمان والقرآن الكريم.

---

١٠ الملك: ٢.

١١ الجمعة: ٨.

١٢ النساء: ٧٨.

لذلك على المسلم ألا ينسى الإسلام في أي صفحة من صفحات حياته، فيحرص في كل ساعة من ساعات يومه أن يقتدي بخاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ﷺ الذي بُعِث أسوةً حسنة للعالمين، ويحاسب نفسه ما لها وما عليها كل حين.

يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزيَّنوا للعرض الأكبر، وإنما يخِف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا».[١٣]

فعلى المسلم مثلًا أن يحاسب نفسه كل ليلة على ما فعل في نهاره فيسأل نفسه الأسئلة الآتية:

- ✓ كيف فتحتُ دفتر أعمالي هذا الصباح؟ هل شكرتُ ربي على هذا اليوم الجديد الذي وهبه لي؟
- ✓ هل سارعتُ للقاء ربي حين دعاني في وقت السحر للاستغفار؟ كم كان نصيبي من الرحمات الإلهية التي تنزَّلت في ذلك الوقت؟ أم أنني ضيَّعت تلك اللحظات القيِّمة بالنوم؟
- ✓ هل انعكست بركات وقت السحر على يومي كله؟ كم قضيت حياتي هذا اليوم ذاكرًا الله تعالى؟ كم فزت بروحانية ذكر ربي؟
- ✓ هل فكَّرتُ بالموت هاذم اللذات؟
- ✓ كم تحررتُ من هموم الحياة والانشغال بما لا يفيدني وتوجَّهت لربي؟ كم تَرَكَتْ مظاهر قدرة الله وعظمته التي رأيتها أثرًا عميقًا في قلبي؟
- ✓ كم أنصتُّ إلى الأذان الذي رُفِع خمس مرات فصليتُ في جماعة؟ هل صلَّيت صلواتي كما يرضى عنها الله تعالى، أي بخشوع جوارحي وحضور قلبي؟

---

١٣ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

- ✓ هل نظرت إلى كسبي وطعامي وشرابي ولباسي اليوم وتساءلت إن كانت من حلال أو حرام أو مشبوه؟ هل ساورني شعور الحذر من الحرام في كل فعل من أفعالي؟
- ✓ هل راعيت حقوق العباد اليوم؟ هل أستطيع أن أقول الآن: «ليس لعبد من عباد الله حق عليَّ ولم أؤذِ أحدًا»؟
- ✓ هل نظرت إلى المخلوقات بنظرة رأفة ورحمة ومحبة كما ينظر خالقها إليها؟
- ✓ هل انتبهت إلى حقوق الحيوانات التي رأيتها من كلب أو هرة أو غيرها؟ هل عاملتها برحمة ذاكرًا أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها وأن أخرى غفر الله لها في كلب سقته؟
- ✓ هل سألت عن أحوال أمي وأبي وأقربائي وسعيتُ لإسعادهم اليوم؟ هل دعوت الله لَمن توفَّاه منهم؟
- ✓ هل نظرت إلى أسرتي اليوم بعين البصيرة فسعيت لوقايتها من سوء تأثيرات الشوارع والأسواق والإعلانات والتلفاز و(الإنترنت) والتهافت على هذه الأمور؟ وكم طبَّقت في حياتي اليوم قولَ ربي سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[14]

- ✓ إن كنتُ ربة بيت، فهل ودَّعت زوجي بوجه طلق ومحبة ودعوتُ الله أن يرزقه من الحلال؟ وهل استقبلته في المساء بابتسامة وكلمات جميلة وحاولت أن أخفِّف من تعبه وأن نكون أسرة حسنة تقتدي بنا الأُسر الأخرى؟
- ✓ إن كنتُ ربَّ بيت، فكم أعامل زوجتي وأولادي برحمة ورأفة؟ وهل أنا مدرك أن أعظم ميراث أتركه لهم إنما هو ميراث الآخرة، فأعمل على جعلهم يعيشون دين الإسلام، ويتحلون بكل خُلُق على وجه الكمال والتمام؟

---

١٤ التحريم: ٦.

- ✓ ماذا علَّمتُ اليوم أولادي الذين وضعهم الله تعالى عندي أمانةً وعلى أي أدب من الآداب حثثتهم؟ هل زرعتُ في قلوبهم حبَّ الله ورسوله ومحبةَ الأنبياء العظام والأولياء الكرام؟
- ✓ ماذا فعلتُ اليوم كي أجعل شخصية الإسلام في أولادي الذين سيمثِّلونني غدًا ويُذكِّرون الناس بي؟
- ✓ أي بذور فضيلة نثرتها في بساتين قلوب أولادي اليوم كي يكونوا قرة عين لي يوم القيامة؟
- ✓ هل جعلتُ أولادي يشعرون أن الدين والإيمان والوطن والمقدَّسات كلها أمانة في أعناقهم؟ هل ذكَّرتُ أولادي بإيمان أجدادهم الذين تركوا لنا هذا الوطن هديةً نعيش في أحضانه، وبكرم الشهداء الذين ضحَّوا بأرواحهم في سبيل الله مقبلين غير مدبرين؟ وهل جعلتهم يدركون أن عزَّنا وشرفنا وكرامتنا مرتبطة بالقرآن الكريم الذي هو أعظم نعمة من نعم الله تعالى علينا، وبالأذان الذي يُصدَح به في ربوع بلاد المسلمين، وبالعَلَمَ الذي يرفرف دلالةً على حريتنا؟
- ✓ إنني أنفقتُ على تعليم أولادي في هذه الدنيا من وقتي وتعبي وكسبي لسنوات طويلة، ولكن ماذا فعلت من أجل آخرتهم؟ هل اكتفيتُ بإرسالهم لشهر أو شهرين في فصل الصيف كي يتعلموا قراءة القرآن؟ هل يكفيهم هذا كي يفوزوا في مستقبلهم الأبدي؟
- ✓ هل عاملتُ المحتاجين إلى الهداية اليوم بقول لين وقلب رحيم وفعل يترك فيهم أبلغ الأثر؟ هل أمرتهم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر ودعوتُ الله كي يهديهم؟ هل رأوا في أحوالي شخصية المسلم التي يُقتدَى بها؟
- ✓ أي التدابير اتخذتُ كي أقي مَن أتحمل مسؤوليتهم- لا سيما أفراد أسرتي- مِن الشرور والفتن في هذه الأيام التي تُجَرُّ فيها الأجيال إلى الهاوية كجذوع الأشجار تجرفها السيول؟

- ✓ هل مسكتُ بيد صغير أو شاب وأخذته إلى المسجد؟ هل جمعت بضعَ شباب وأكرمتهم ماديًّا ومعنويًّا وسعيت لتحبيب الحق والحقيقة إليهم؟ ماذا أهديتُ صديقًا لي أحبه في الله؟
- ✓ كم ومع مَن شاركت اليوم النعمَ التي أكرمني بها الله تعالى؟ هل كنتُ اليومَ من أهل الإنفاق؟
- ✓ هل شعرتُ في قلبي اليوم بلذة إسعاد مؤمن؟
- ✓ هل مسحتُ على رأس يتيم اليوم؟ هل عُدْتُّ مريضًا؟ هل تبِعتُ جنازة؟[١٥]
- ✓ هل سألتُ عن جيراني والمحتاجين من حولي اليوم؟ هل أثَّرَ في قلبي جوع جاري أو رعشة مسكين من شدة البرد؟
- ✓ هل شاركتُ مَن هاجرَ إلى بلدي بما أملك؟ هل أستطعت أن أكون كما كان الأنصار للمهاجرين؟
- ✓ هل اهتممتُ بأمور أمة محمد ولو كانوا في أقصى بقعة من بقاع الأرض؟ هل شعر قلبي بالأسى على ما يعانيه المظلومون؟
- ✓ هل عملتُ شيئًا في سبيل إشباع الجوعى وشفاء المرضى وقضاء دين المديونين؟ هل اكتفيتُ بالدعاء بقلبي ولساني أم أنني عملت بيدي لأجلهم؟
- ✓ هل ألقيتُ اليوم السلام على مَن أعرفه وأجهله لوجه الله تعالى؟ هل لقيتُ الناس بوجه متبسم واعيًا أن التبسم في وجه أخي صدقة؟
- ✓ هل قابلتُ اليوم بالحسنة مَن أساء إلي وجافاني في معاملته وعفوت عنه لوجه الله تعالى؟
- ✓ هل فزتُ اليوم بصداقة صديق؟ وكم صديقًا جدَّدت صداقتي به؟

---

١٥ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ١٢.

- ✓ هل سعيتُ اليوم لأكون مع أهل الله أو الصالحين؟ هل غدا لي صاحب صالح صادق يخبرني بالحق لرضا الله تعالى حتى لو كرهته نفسي؟ هل شعر قلبي بالخوف من صحبة الفسَّاق والفجَّار؟
- ✓ هل أمطتُّ أذى عن الطريق حتى لا يؤذي الناس؟
- ✓ هل شاركتُ اليوم في خدمة أو نشاط يزيد من علمي النافع ويرتقي بي معنويًّا؟
- ✓ هل كنتُ في مجلس علم أو ذكر فأخذت علاجًا معنويًّا يشفي قلبي ويداوي روحي؟
- ✓ كم صفحة قرأتُ اليوم من القرآن الكريم الذي سيبقى أعظم معجزة إلى قيام الساعة؟ هل تدبرتُ الآيات التي قرأتها وعملتُ بما تقتضيه؟ هل سعيتُ لأكون من خير الناس بتعلم القرآن وتعليمه؟
- ✓ هل كانت لدي إرادة اليوم كي أواجه عاداتي السيئة التي تحاول أن تدخل حياتي؟
- ✓ هل حفظتُ لساني من اللغو والكذب والغيبة والنميمة ومن كل كلمة سوء قد تؤذي أحدًا؟
- ✓ كيف أغلقت دفتر أعمالي اليوم؟ وماذا كُتِبَ فيه؟ هل أنا مستعد لأُحاسَب على صفحة اليوم يومَ تُعرَض الأعمال؟
- ✓ هل فكرتُ اليوم أنني أملأ شريط حياتي بلا انقطاع، وأن آلات التصوير الربَّانية تسجِّل كل حركاتي وسكناتي وأقوالي وأفعالي؟ هل حاسبتُ نفسي على آخر أربع وعشرين ساعة قضيتها من حياتي؟

إن المؤمن الذي يحاسب نفسه ويُسائلها كل ليلة ويستعد للموت كما ينبغي لن يرى في الموت مصدرَ خوف بل وسيلة لبلوغ السعادة الأبدية، وعندها يغدو الموت الذي هو ممر بين عالَمين حدثًا جميلًا في نظره.

ونفهم مما ذكرنا أن الحل الوحيد للنجاة من هول الموت أن نتفكر في قول: «موتوا قبل أن تموتوا» ونسعى لعيش حياة صالحة، ذلك أن:

موت كل امرئ من لون حياته

إن الموت الذي سيحل على رأس كل حيٍّ لا محالة إنما هو كقيامة صغرى خاصة به. وكما أن الذي يعيش حياته حياة عبودية لله تعالى مؤمنًا به لن يذوق طعم الخوف والحزن يوم القيامة، فكذلك تكون حاله لحظة خروج أنفاسه الأخيرة؛ لذلك يتجلى الموت على كل امرئ وفقًا لأعماله في الدنيا.

وما أجمل تعبير مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله عن هذه الحقيقة إذ قال:

«أيْ بُنَي، موت كل امرئ من لون حياته. الموت يبدو كعدو رهيب لَمن عاداه وكره لقاءه ولم يدرك أنه وسيلة للقاء الله تعالى، والموت كحبيب لَمن أحبه ورغب في لقائه.

يا مَن تخشى وتفِرُّ من الموت، إن كنتَ تريد جوهر الأمر وصدق القول، فاعلم أنك لا تخشى الموت، وإنما تخشى ذنوبك وغفلتك.

وما رأيتَه في مرآة الموت ففزعتَ منه لم يكن صورة الموت بل وجهكَ القبيح. إن مَثل روحك كمثَل شجرة والموت أوراقها، وكل ورقة تأخذ شكلها من نوع شجرتها...

إن القيامة للثيران الباهتة اللون أي للكافرين والفاسقين عيد أضحى مريع؛ ذلك يومُ موت للثيران فيه العذاب والشدة، وعيد أضحى للمؤمنين فيه اليُمن والسعادة».

إن المؤمنين في عيد الأضحى يكونون فرحين، أما الحيوانات فتُلقَى تحت السكاكين، والناس يوم القيامة سيكونون في مثل إحدى هاتَين الحالتين، كلٌّ وفقًا لخياراته وميوله ونمط حياته في الدنيا؛ فإما أن يكون من المسرورين أو ممن يستحقون العذاب المهين.

فالعبدُ بناءً على هذه الحقيقة إن عاش حياته مؤمنًا بالدنيا وحدها أسيرًا لأهواء نفسه، فسيمسي القبر له سجنًا مظلمًا ضيقًا. ويضطرب للقاء الموت اضطرابًا لم يعهده من قبل في حياته.

غير أنه إذا لم يأبه لرغبات النفس التي حرَّمها الإسلام وترقَّى في الدرجات المعنوية بالأوصاف السامية المكنوزة في روحه، فسيرى في الموت شرطًا لازمًا للوقوف في حضرة ربه العظيم المتعالي، وعندها يغدو الموت الذي يُفزِع كثيرًا من الخلق محطةً للقاء "الرفيق الأعلى".

وقد كان مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله يرى ليلةَ موته "ليلةَ عرس"، أي يراها ليلة تُنهي غربته في الدنيا وتوصِله بالحبيب، فهو القائل:

«لا تظننَّ أني أحمل معي هم الدنيا حين تراني محمولًا في التابوت يوم موتي! ولا تحسبنَّ أني أحزن لفراقي هذه الدنيا! إياكَ أن تبكي لموتي أو تقول: "يا حسرتا عليه!" لكن ابكِ عليَّ إذا رأيتني أطيع نفسي في حياتي وأقع في مكائد الشيطان!

ولا تقولنَّ: "وداعًا، وداعًا" حين يحثون الترابَ عليَّ! بل اعلمْ أن ذلك وقت التلاقي، لا وقت الفراق.

القبر حجاب وراءه الفوز بالجنة! قد رأيتَ غروب الشمس، أفلا تنظر إلى شروقها! أيضرُّ الشمسَ والقمرَ غيابُهما وراء الأفق؟

إن بدا لك ذلك المشهد غروبًا أو غيابًا، فهو ولادة وحياة من جديد!

أتستطيع أن تقول عن البذرة إن سقطت في التراب: إنها ماتت؟

اعلمْ أن الموت مخاض لولادة الروح في عالَم آخر، أي إن اسمه "موت" في هذا العالَم الفاني، لكن اسمه "مولد" في العالَم الباقي!

أليس الله هو مَن يقبض الروح! فاعلمْ أن الموت حلو كالسكر لعباد الله الخواص. وكذا لو كان الموت نارًا، فهو لأهل الله روح وريحان..».

والخلاصة أن الموت ليس عدمًا بل ولادة في حياة أبدية؛ فكما أن قدوم الوليد إلى هذه الدنيا ولادةٌ له، فكذلك خروج الروح من الجسد إلى عالَم البرزخ ولادةٌ في عالَمٍ آخر، ثم تكون ولادة أخيرة في الآخرة التي هي دار القرار.

الموت على الإسلام

يحذِّرنا الله تعالى مبيِّنًا كيف ينبغي أن تكون أحوالنا ومعاملاتنا كي ننجو من سوء العاقبة في هذه الدنيا، ولعلَّ مِن أعظم تلك التحذيرات قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١٦)

لقد خلقنا الله تعالى ولم نكن شيئًا مذكورًا، وجاء بنا إلى هذه الدنيا من غير أن ندفع ثمن ذلك، وأكرمنا من بين مخلوقاته بأن جعلنا من الإنس، ثم زاد في إكرامه علينا بأن شرَّفنا أن نكون من المسلمين. ووضع الله تعالى فينا صفات فريدة تجعلنا ننال معرفته ومحبته، وخلقنا في أحسن تقويم، وأمدَّنا بالكتب والرسل. وعرضَ لذوي البصيرة تجليات حكمته وأسراره في هذا الكون الشاهد على وجوده ووحدانيته ومطلق قدرته وعظمته. وكل ذلك نِعَم عظيمة نقف عن شكرها عاجزين...

وأعدَّ الله تعالى لنا الجنة التي هي دار سعادة أبدية. ولهذه الجنة ثمن، فإنْ كنا قد أتينا إلى هذه الدنيا من غير أن ندفع ثمنًا، فإننا مضطرون لدفع ثمن بعض الأمور قبل أن ننتقل إلى الآخرة، ذلك أنه لا أحد يضمن انتقاله إلى الآخرة مسلمًا.

وقد نبَّهنا الله تعالى بقوله في كتابه العزيز:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(١٧)

أي إننا نخضع لامتحانات طوال حياتنا كي نستطيع أن نسلِّم أرواحنا إلى صاحبها راضيًا عنَّا ومن غير أن نتنازل عن إيماننا مهما كلَّفنا ذلك.

فحينما يقول الله تعالى: **﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** فكأنه بذلك يحذِّرنا من أن نموت قبل أن ننقذ إيماننا، ويلفت انتباهنا أن هذا أشدُّ خطرٍ على العبد في هذه

---

١٦ آل عمران: ١٠٢.

١٧ العنكبوت: ٢.

الدنيا، ويبيِّن لنا أن خروج الروح لا يكون إلا مرة واحدة، وأن خروج الأنفاس الأخيرة من غير إيمان طامة كبرى من المحال تجنبها.

ويذكر الله تعالى في القرآن الكريم المؤمنين حق الإيمان مثل سحرة فرعون وأصحاب الأخدود الذين ضحوا بأرواحهم وأموالهم وبكل شيء يملكونه في سبيل إيمانهم بربهم. ويخبرنا في مواضع أخرى بسوء مُنقَلب آخرين مثل بلعام بن باعوراء وقارون وأمثالهم ممَن كانوا يحيون حياة هدى وصلاح لكن أقدامهم زلَّت في أواخر حياتهم فوقعوا في الخسران المبين.

لذلك فإن قلَقَ المرء من خاتمة أمره إنما هو علامةُ إيمانه الحقيقي ومقتضاه. ذلك أنه ليس من أحد- سوى الأنبياء والمبشرين بالجنة- يضمن نجاته في الآخرة. فالصحابة الكرام الذين بُشِّروا بالجنة وهم في الدنيا كانوا يعيشون في خشية من تبدل أحوالهم وفي خوف دائم من لحظة خروج أنفاسهم الأخيرة وما سيلقون بعد الموت.

وفي الحادثة الآتية توضيح لهذه الحقيقة:

إذ جاء رجلان إلى سلمان الفارسي، فدخلا عليه في حصن في ناحية المدائن، فأتياه، فسلَّما عليه وحيَّياه، ثم قالا: أنت سلمان الفارسي؟ قال: نعم. قالا: أنت صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: لا أدري. فارتابا وقالا: لعله ليس الذي نريد، قال لهما: أنا صاحبكما الذي تريدان، إني قد رأيت رسول الله ﷺ وجالسته، فإنما صاحبه من دخل معه الجنة.[١٨]

لقد كان هذا قول الصحابي سلمان الفارسي وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: «**سلمان منا أهل البيت**»[١٩] ذلك أنه على كثرة فضائله لم يكن ليرضى

١٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٤٠- ٤١؛ الذهبي، سير، ١، ٥٤٩.

١٩ الحاكم، المستدرك، ٣، ٦٩١/ ٦٥٤١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦، ١٣٠؛ ابن هشام، سيرة، ٣، ٢٤١؛ ابن سعد، الطبقات، ٤، ٨٢.

ويكتفي بأعماله في سبيل الدين، بل كان يحيا بين الخوف من عذاب الله ورجاء رحمته.

وما أفضله من مثال لِمَا كان عليه الصحابة الكرام الذين كانوا خير جيل وأحسن قدوة لأمة الإسلام إلى قيام الساعة...

فعلينا ألا ننسى حتى خروج أنفاسنا الأخيرة أننا نسير على أرض زلِقة، وكما أن الماشي في حقل ألغام ينتبه إلى كل خطوة يخطوها، فكذلك على المؤمن أن يتقي الله في ما حرَّمه في هذه الدنيا الفانية، ويحرص على العيش كما جاء في الكتاب والسُّنَّة.

ويبيِّن ربنا ﷻ لنا الطريق السليم حتى لا تزل أقدامنا ونحيد عن الصراط المستقيم، فيقول في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢٠]

وهذا يعني أنه ينبغي ألا يغيب الإسلام في أي صفحة من صفحات حياتنا، ولا ننسى ربنا أبدًا في بيوتنا وأعمالنا وشوارعنا وأسواقنا ومدارسنا، وأن نراعي أوامره في كل حال من أحوالنا. ولا بد أن يكون سعينا الدائم ومقصدنا الوحيد أن نموت على الإسلام.

يقول رسول الله ﷺ:

«**...فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر...**».[٢١]

فجوهر المسألة ولب الموضوع أن يعيش المرء في هذه الحياة الفانية في إطار الحقائق التي وردت في الكتاب والسُّنَّة.

٢٠ محمد: ٧.

٢١ مسلم، الإمارة، ٤٦/ ١٨٤٤؛ النسائي، البيعة، ٢٥/ ٧٧٦٦؛ ابن ماجه، الفتن، ٩/ ٣٩٥٦.

كلٌّ في قلق واضطراب

يقول الله سبحانه وتعالى في بداية سورة النبأ:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[22]

فيبيِّن بهذه الآيات اضطراب المنكرين وحيرتهم واختلافهم في خبر القيامة واصفًا إياه بـ(النبأ العظيم)، وكأنهم يتساءلون فيما بينهم:

«وماذا لو كان خبر الآخرة حقيقة؟ ماذا سنلقى إن كانت هناك جنة ونار؟»

لقد كان الناس في الجاهلية- كما هو الحال اليوم في عصر العلمانية- يعيشون حياتهم منكرين الآخرة والحساب، ولا يشعرون بأدنى قلق من أن يُحاسَبوا على ظلم يرتكبونه. فكان ذلك أساس استغلال الأقوياء للضعفاء وتعذيبهم ومعاملتهم أقسى أنواع المعاملات. لذلك عندما جاء القرآن الكريم بخبر الآخرة، ضعضعَ أركان النظام الذي وضعه المشركون، وأقضَّ مضجعهم، وأضاق صدورهم.

فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بقبولهم اتباعه على أن ينكر خبر الآخرة ولا يحرِّم عليهم ما حرَّمه ولا يمس أصنامهم.

وحينما نرى اليوم أولئك الذين ينزعجون من خبر الآخرة، ويطلبون حياة من غير ذكر الموت والعبادات، ويسعون للعيش بلا مسؤولية مطلقين العنان لأهواء نفوسهم، لا نتذكر إلا أهل الجاهلية.

وإننا نجد مثلًا أنه إذا بُنِيَ مسجد في حي يسكنه أناس بعيدون عن الدين، فإن أسعار البيوت القريبة من ذلك المسجد تنخفض، ذلك أن صلاة الجنازة التي تُقَام في ذلك المسجد يُذكِّر بالموت الذين يعيشون حياتهم بلا قلق من الآخرة فيعكِّر صفو ملذاتهم.

---

٢٢ النبأ: ١- ٣.

وكم من ناظر في هذا العصر إلى قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٢٣] إذا مرَّ من مقبرة، يقول في نفسه: «لو أزالوا هذه الآية التي تدعو إلى التشاؤم»!

وهذا يعني أن الجميع قلق خائف مضطرب مما سيأتي بعد الموت مؤمنًا كان أو منكرًا... المؤمن قلق من الموت والقيامة والحياة في الآخرة، وكذلك الكافر؛ لكن شتَّان بين الداعي للقلق في الحالين.

فالداعي للقلق لدى الكافر خوفه من صدق خبر الآخرة، وشكُّه في أن الموت نهاية كل شيء، وشبهته في حقيقة الحساب؛ أي إنه ذلك الضيق المعنوي الذي يبثه ميله لعبودية الله الموجودة في فطرته حتى لو لم ينعكس ذلك الميل على أحواله إيمانًا وعملًا صالحًا.

أما الداعي للقلق لدى المؤمن فتساؤله: «إذا لم أعبد ربي كما يليق به اليوم، فكيف ستكون حالي في الآخرة التي هي العيش الحقيقي؟»

فقلب المؤمن:

- ✓ يقلق من لحظة الأنفاس الأخيرة أيلفظها على إيمان أم بغيره.
- ✓ يقلق من لحظة خروج روحه من جسده، أيرحِّب بمَلَك الموت حينها أم يفر منه.
- ✓ يقلق من لحظة وضعه في القبر، أيجيب عن أسئلة منكر ونكير أم ينعقد لسانه.
- ✓ يقلق من عالَم البرزخ، أيكون في روضة من رياض الجنة أم حفرة من حفر النار.
- ✓ يهتم ويغتم مما سيؤول إليه حين تُقَام المحكمة الكبرى وتوضَع الموازين القِسط، ويُسلَّم شهادة عبوديته في الدنيا، أي حين يُعطَى كتابه فلا يجد صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا وقد كُتِبَت فيه.

---

٢٣ آل عمران: ١٨٥.

فالمؤمن يتساءل: من أين سأُوتَى كتابي يا تَرى؟ بيميني أم شمالي؟ أمامي أم وراء ظهري؟ ماذا سأرى في كتاب أعمالي وقد سُجِّل فيه كل شيء حتى لو كان مثقال حبة من خردل؟

إنني أحاسب نفسي في الدنيا قبل أن يُحاسبني الله تعالى، لكن كم يتطابق الحسابَان؟ وإلى أي درجة يتوافقان؟

والحادثة الآتية خير مثال يوضِّح لنا حال قلوب أهل الله وقلقهم من الحساب:

إذ أراد أحد الصالحين أن يبتاع أشياء من السوق، وكان قد حسب في داره المال اللازم لذلك، غير أنه حين وصل السوق وجد أن المال الذي بيده لا يكفي لشراء ما يريد، فشرعَ يبكي أحرَّ البكاء مدة طويلة.

فحارَ الناس من حوله لحاله، وأرادوا أن يُهدِّئوه ويواسوه وأخبروه أنه لا داعي للبكاء لأن المال لم يكفه. فلمَّا رأى الصالح الناس ينظرون إليه بِحيرة قال وهو يبكي وينشج:

«إياكم أن تظنوا أنني أبكي على شيء من هذه الدنيا! لكنني وجدت أن حسابي في البيت لم يوافق حسابي في السوق! فكيف يوافق حسابنا في الدنيا حسابَ الآخرة غدًا؟»

والحق أننا يوم تُوضَع الموازين الإلهية سنُحَاسَب حتى على أصغر الأمور التي قد لا نقف عندها أبدًا أو لا ننتبه إليها.

ويحذِّرنا الله سبحانه وتعالى في هذا الشأن بقوله:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٢٤]

ويُروَى أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قرأ هاتَين الآيتَين في مجلس ومعهم أعرابي جالس، فقال الأعرابي: يا رسول الله أمثقال ذرة؟ قال: «**نعم**».

٢٤ الزلزلة: ٧- ٨.

فقال الأعرابي: واسوأتاه. ثم قال وهو يقولها، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«لقد دخل قلبَ الأعرابي الإيمانُ».[٢٥]

ونفهم من هذا الحديث أنه من علامات صدق الإيمان التفكير بيوم الآخرة والانشغال بهمِّه، ففي ذلك اليوم سيُحاسَب المرء على أعماله كلها حتى الذي يبلغ مثقال ذرة ولا يعبأ به في هذه الدنيا.

لذلك أكثر ما يُشغِل القلوب المؤمنة القلقُ من حساب الحسنات والسيئات في ذلك الميزان الدقيق.

ولمَّا نزلَ قول الله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٢٦]

قام رجل محتاج فقال يا رسول الله: هل عليَّ من النعمة شيء؟ قال:

«نعم، الظل والنعلان والماء البارد».[٢٧]

فأشار النبي ﷺ بذلك إلى أنه حتى الإنسان الذي يظن أنه ليس له شيء في هذه الدنيا سيجد نفسه قد أصاب من نِعمٍ كثيرة سيُحاسَب عليها يوم القيامة.

إن نصاب الزكاة معلوم، وعندما نؤدي الزكاة، فإننا نؤدي واجبنا المتعلق بما نملك، لكن ينبغي أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لن يحاسب الناس يوم القيامة على ما يملكون فقط، بل سيحاسبهم على ما أنعم عليهم من قوة وصحة وفراغ وقدرات ومهارات وغيرها مما قد لا يخطر على البال؛ ونصاب هذه النعم مجهول...

---

٢٥ السيوطي، الدر المثنور، ٨، ٥٩٥.

٢٦ التكاثر، ٨.

٢٧ السيوطي، الدر المنثور، ٨، ٦١٩.

يقول الله تعالى:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢٨)

فمَن منا يدري جميع النعم التي أكرمه بها خالقه، وقد يجهل منها الكثير أو لا ينتبه لوجودها في حياته؟ وكما أننا نعجز عن إحصاء النعم، فإننا أيضًا نعجز عن شكر الله عليها وإن بلغت تضحياتنا عنان السماء.

لقد شعرَ الصحابة الكرام بثقل هذه المسؤولية، فجعلوا حياتهم حتى آخر أنفاسهم في سبيل الله تعالى من غير تعب ولا نصب، واستنفروا وجمعوا قواهم فانطلقوا إلى أصقاع الأرض حتى وصلوا إلى أقاصي الأرض، مبلِّغين دين الإسلام بإيمان ثابت وعزيمة لا تلين.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢٩)

لذلك كان الأنبياء والمُرسلون- وهم الذين لا يشك أحد في دخولهم الجنة- يحيون حياة مليئة بالتضحيات في سبيل الله خشيةً من التقصير في أداء مهمة التبليغ.

فسيدنا محمد ﷺ كابد جميع صنوف الأذى كي يبلِّغ الناس دعوته، حتى إنه رُمِيَ بالحجارة وتعرض لكثير من المشقات والمتاعب، وما تراجع قيد أنملة عن أداء واجبه المقدَّس مع عظم المخاطر وشدة الخطوب، وتحمل مصاعب لا يتحملها البواسل من الرجال. فعاتَبه ربه سبحانه وتعالى إذ قال له:

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٣٠)

---

٢٨ النحل: ١٨.

٢٩ الأعراف: ٦.

٣٠ الشعراء: ٣.

وفي نهاية خطبة الوداع سأل الصحابةَ وقد زادوا على مئة ألف:

«**وأنتم تُسأَلون عني، فما أنتم قائلون؟**»

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكُبها [أي يقلِّبها] إلى الناس:

«**اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد**».[٣١]

فعلى المؤمن أن يحمل بين جنبيه قلبًا يقلق ويضطرب بذكر يوم القيامة حتى يحافظ على إيمان ثابت وعقيدة راسخة، ويسعى ليعيش حياة عبودية سليمة بقلب يحيا بذكر الموت.

فالله تعالى يخبر أمة الإسلام في شخص النبي ﷺ بضرورة إصلاح أحوالهم بذكر القيامة والآخرة دائمًا فيقول:

﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾[٣٢]

ولا ريب أن حديث الغاشية أي خبر يوم القيامة قد أتانا، لكن الله تعالى يحذِّرنا وكأنه يقول لنا:

- كيف تحيون براحة وكأن خبر يوم القيامة لم يأتكم؟
- كيف تحرصون في الدنيا على أمور تافهة لا طائل فيها؟
- كيف تضيِّعون أعماركم التي هي رأس مالكم الوحيد وأنتم غافلون؟

ثم يخبرنا سبحانه وتعالى في الآية التي تليها بما ستؤول إليه وجوه الغافلين الذين يلهون في الدنيا، فيقول:

﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ**﴾[٣٣]

---

٣١ انظر: مسلم، الحج، ١٤٧/ ١٢١٨؛ أبو داود، المناسك، ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك، ٧٦، ٨٤.

٣٢ الغاشية: ١.

٣٣ الغاشية: ٢.

أما المؤمنون الصالحون الذين لم يغتروا بهذه الدنيا الكاذبة وبذلوا حياتهم الفانية للفوز في الحياة الباقية فوصف لنا ربنا وجوههم بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾[٣٤]

فعلينا أن نتساءل:

في أي الفريقَين سنكون يومئذ؟

إننا في الدنيا نحرص على جمال المظهر وصلاح الهندام وحسن القوام، لكن كيف ستكون صورتنا في الآخرة؟ فهذا ما ينبغي لنا أن نحرص عليه ونهتم له؟

كيف ستكون هيئتنا يومئذ؟ هل ستسوَّد وجوهنا ويعلوها الذِّلة والخزي ويبدو عليها الشقاء والعار؟ أم ستبيَضُّ وتظهر عليها آثار السجود وتشعُّ حسنًا وجمالًا وسرورًا؟

ويخبرنا ربنا سبحانه وتعالى بحقيقة انعكاس سيرة المرء في دنياه على صورته في آخرته بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[٣٥]

كيف ستكون أجسامنا يومئذ؟ هل ستكون لنا أجسام بالية تشهد أعضاؤها على أصحابها، وتظهر عليها سوء علامات الذنوب الخفية والظاهرة التي اقتُرِفت في الدنيا، وتُحمَّل من الأثقال ما لا طاقة لها به، وتُوصَم بالعار لِمَا ارتكبت من ظلم وجور؟ أم ستكون لنا أجسام جميلة قوية طاهرة تشع أعضاؤها التي كان يصيبها ماء الوضوء في الدنيا، وينبعث نور الإيمان من أعينها، وتزيِّنها أوسمة الأعمال الصالحة؟

---

٣٤ الغاشية: ٨.

٣٥ عبس: ٣٨- ٤٢.

فعلينا ألا ننسى البتة أن ما تكون عليه وجوهنا وأجسامنا لا يحدِّده إلا قلوبنا وإيمانها وما وصلت إليه من درجات. فأصحاب القلوب التي تُنكَت نكتات سوداء في الدنيا فتغدو كسواد الفحم لكثرة ذنوبها سيُحشَرون في ذلة ومهانة وضِعة. أما أصحاب القلوب التي تطهرت من الذنوب بتزكية النفس وتزيَّنت بصالح الأعمال فسيُحشَرون بفضل الله وكرمه ووجوههم مبيضة ناضرة.

فلن يأمن أحد من أهوال يوم القيامة وغياهبها وسوء المنقلب فيها إلا مَن كان مِن أهل الله في الدنيا، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣٦]

لذلك يرى المؤمنون العارفون أن الغاية من الحياة الدنيا السعي لنيل رضا الله تعالى والتقرب إليه، وبلوغ درجة من الكمال والأدب تليق بالفوز بمشاهدة جمال وجهه الكريم ﷻ في الجنة.

اللهم إنا نسألك الوقوف في حضرتك بقلوب سليمة بعد حياة في الدنيا ترضى عنها. اللهم احفظنا من فتنة القبر واجعله روضة من رياض جنانك. اللهم إنا نتضرع إليك أن نكون ممن يأمنون من أهوال القيامة ويُحشَرون بلطفك وكرمك في زمرة الصالحين، واجعلنا من عبادك السعداء في جوار حبيبك محمد ﷺ في الفردوس الأعلى يا رب العالمين.

آمين!



---

٣٦ يونس: ٦٢.



الفصل الثاني



الإيمان بالآخرة

يقوم الناس في هذا العصر بأبحاث كثيرة كي يعيشوا مدة أطول في هذه الدنيا أو حتى طمعًا بالنجاة من الموت، ويصرفون مبالغ طائلة على الأدوية ومواد التجميل في سبيل ذلك، مع أن العيش القليل أو الكثير لن يكون همَّ أحد وغمَّه في الآخرة التي هي العيش الحقيقي. بل الجميع يومئذ يريد أن يعلم هل جعل من هذه الدنيا التي ليست أمام الآخرة إلا عشية أو ضحاها رأسَ مال لسعادته الأبدية أم أنه ضيَّعها فضيَّعَ آخرته...

لقد ذُكِرَ الإيمان بالآخرة الذي يعد من أركان الإيمان في الإسلام مع ذكر "الإيمان بالله" في كثير من الآيات الكريمة لعظمة أهميته بين أركان الإيمان الأخرى.

فنقرأ مثلًا في الكتاب العزيز قوله تعالى:

﴿... مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣٧]

﴿...فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٣٨]

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾[٣٩]

ويقول الله تعالى في معرض ثنائه على المؤمنين:

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[٤٠]

---

٣٧ البقرة: ٦٢.

٣٨ النساء: ٥٩.

٣٩ المجادلة: ٢٢.

٤٠ التوبة: ٤٤.

من المحال الاعتماد على العقل وحده لحلِّ لغز «الموت والآخرة» الذي يفوق إدراك الإنسان، فهو أمرٌ يتعلق بالغيب. لذلك لا بد للإنسان من الاستعانة بهدي الله تعالى في هذا الشأن.

ولا شك أن الله تعالى لم يترك عباده من غير عون من لدنه، إذ أمرَ عباده في كثير من آيات كتابه الكريم بجعل الإيمان بالآخرة متجذرًا في قلوبهم، وذلك بدلائل واضحة تارة وبضرب الأمثلة والإكثار من عرض مشاهد الآخرة تارة أخرى.

وهذا هو الحكمة من أن الآيات الكريمة التي نزلت على النبي ﷺ في أول عهد النبوة لتثبِّت أركان الإيمان كانت أكثر من تلك التي تذكر العبادات، وأن الآيات التي نزلت في العبادات وأحكام المعاملات بعد الهجرة لم تخلُ من ذكر أمور الآخرة، فقد كان "إنكار الآخرة" من أهم أسباب الفساد والانحطاط في عصر الجاهلية.

والحق أن إنكار وجود الآخرة بعيد عن العقل والمنطق، ولنا أن نتساءل التساؤل الآتي:

«هل رأى أحد من الناس مسرحية مُثِّلَت أمام المشاهدين من فصل واحد، ثم أُسدِل الستار وانتهت القصة وإنَّ حوادثها لا تزال مجزأة معلقة، ولا تزال الأفكار متطلعة منها إلى تفسير ما ظل مبهمًا وتتميم ما بُتِرَ مجزءًا، ولا تزال الأعصاب مشدودة إلى معرفة المرمى والمغزى من القصة وكاتبها؟

إن طفلًا عاقلًا من الناس لا يؤلف في مدرسته مسرحية بهذا الشكل، أفيقيم الله الحكيم الخبير قصة كونه العظيم هذا على مثل هذا العبث العجيب الذي يتنزه عنه الأطفال؟»[٤١]

---

٤١ د. محمد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص١٨٠.

أي إن الإنسان الذي لا يفتأ ينطق في كل فرصة بأنه يعيش في عالَم الأسباب ينبغي له عقلًا ومنطقًا أن يؤمن بالآخرة التي سيرى فيها نتائج تلك الأسباب.

ولا يخفى على ناظرٍ حقيقةُ أن كلَّ امرئ يأتي إلى هذه الدنيا من الباب نفسه أي من باب رحم الأم، ثم يعيش حياته الفانية متقلِّبًا بين رغبات نفسانية ومشاعر روحانية في هذه الدنيا التي هي كمضمار سباق مليء بالعقبات. وما إن يعبر الممر القصير بين المهد واللحد حتى يخطو عبر باب الأجل خطوته الأولى في القبر الذي يعد أول نُزُلٍ من منازل العالَم الأبدي. وليس القبر إلا كقاعة انتظار قبل ولوج المحكمة الإلهية الكبرى يوم الحساب.

يقول المولى جَلَّ جَلَالُهُ في كتابه الكريم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٤٢)

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾(٤٣)

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾(٤٤)

---

٤٢ سبأ: ٣.

٤٣ النساء: ٨٧.

٤٤ القيامة: ٦–١٣.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾[٤٥]

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٤٦]

فمَثَل الدنيا كمثَل دار لها بابان، سكنها مذ عهد سيدنا آدم عليه السلام الملايين من الناس ثم تركوها، فأين هم الآن؟

أو أين سنكون نحن بعد حين؟

هل مِن عالِمٍ بما سنؤول إليه؟

كلا!.. غير أنه ثمة حقيقة قطعية لا تقبل الشك أبدًا، وهي أن الموت آتٍ آتٍ، يحلُّ على الظالمين والمظلومين والعابدين والفاسقين، والكل ينتظر القيامة التي هي مبدأ الحياة الأبدية...

أليس لنا أن نتفكَّر قليلًا في هذا التراب الذي نمشي عليه؟

ألا يحتوي جثث ما لا يُعدُّ من البشر وقد تفسخت فصارت جزءًا منه؟

وكأن الجثث غدت ظلالًا فوق ظلال... ونحن سنُدفَن غدًا مع أعمالنا في حضن هذا التراب ونمسي بين تلك الظلال. ثم تبدأ الرحلة نحو الخلود والحياة الأبدية. وإذا لم يكن من هذا الأمر مفر، فلنتمهَّل ولنفكِّر:

---

٤٥ الجاثية: ٢٦- ٢٧.

٤٦ الإسراء: ٥٠- ٥١.

الآخرة أمام الدنيا...

ما معنى أن يكون العمر طويلًا أو قصيرًا في هذه الحياة الفانية؟ الحياة في الدنيا ليست إلا كفقاعة صابون أمام حياة الآخرة الأبدية. ومهما طال عمرُ المرء في هذا العالَم الفاني، فليس ذلك إلا مدة قصيرة أمام حياة الآخرة.

والدليل على هذه الحقيقة قول الله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٤٧]

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[٤٨]

وقد وضَّح لنا رسول الله ﷺ عظمةَ الحياة الآخرة أمام الحياة الدنيا بتشبيه يقرِّب الصورة للأذهان فقال:

«**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟**»[٤٩]

وقد عبَّر يونس أمرَه رحمه الله عن قصر المدة التي نحل فيها في هذا العالَم الفاني أبلغ تعبير إذ قال:

أتينا من رحم الأم إلى المتجرِ........فاشترينا كفنًا ورجعنا إلى القبرِ!

فواجبنا أن نزيِّن أعمارنا التي ليست إلا مدة قصيرة أمام الآخرة بعبادة الله وطاعته.



٤٧ المؤمنون، ١١٢- ١١٤.

٤٨ النازعات: ٤٦.

٤٩ مسلم، الجنة، ٥٥/ ٢٨٥٨.

إن أيام الحياة المعدودة لها قيمة عظيمة في الآخرة، فالآخرة مكان رؤية جزاء الأعمال في الدنيا، أما الدنيا فهي محل الكسب.



لما احتُضِرَ عامر بن عبد قيس وهو من التابعين، بكى. فقيل: «ما يبكيك؟» قال:

«ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام الليل».[٥٠]



وقد قال الجنيد البغدادي رحمه الله موضِّحًا حقيقةَ أن المرء يفوز بالآخرة وهو في الدنيا:

«يومٌ في الدنيا خير من ألف سنة في الآخرة، فالربح والخسارة في هذه الدنيا، ولا شيء يمكن القيام به في الآخرة للنجاة هناك».

ولو أن الله وهبنا عُمرًا لألف سنة، فوُلِدنا مثلًا في سنة ١٠٠٠ وعشنا في الدنيا في راحة وسعة حتى سنة ٢٠٠٠، فإننا كنا قد ذقنا طعم الموت الآن، أي إننا مهما عشنا، فإن الحياة الفانية في الدنيا ليست إلا فصلًا قصيرًا أمام الآخرة التي هي العيش الحقيقي.

أي عاقل يرجِّح اللحظة على الخلود؟

إن إدراك الذي يفضِّل الدنيا على الآخرة كإدراك ذلك الصغير الذي يظن البصل في يده ألذَّ فاكهة إذ لا يعرف غيرها من أطايب الطعام، فهو بجهله كطائر مسكين يترك التحليق في سعة السماء ويُسرِع للدخول في قفص صغير.

---

٥٠ الذهبي، سير، ٤، ١٩.

وقال بعض الحكماء:

«لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من طين يبقى، لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى. ولا سيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفنى والآخرة من ذهب يبقى».[٥١]

ولا ريب أن العقل السليم والمنطق القويم يقتضيان التخلي عن المنافع الصغيرة العابرة في سبيل المكاسب الكبيرة التي تظل فوائدها إلى الأبد؛ فواجب كل عاقل الحذر من الانغرار بلذائذ الدنيا الفانية والسعي للفوز بالآخرة.

وقد عرَّف لنا رسول الله ﷺ العاقلَ بقوله:

«الكيِّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».[٥٢]

فلا بُدَّ من وزن كل إنسان على ضوء هذه الحقائق ليُعلَم أهوَ ذو عقل سليم؛ أي إن العاقل مَن يدفع الفاني ليفوز بالباقي، والغافل مَن ينغر بالدنيا وينسى الآخرة، أما الذي يبيع آخرته في سبيل دنيا غيره فهو- كما أخبرنا سيدنا عمر رضي الله عنه- جاهل أحمق! لأن الله تعالى لا يقيم وزنًا لمَن نسي الآخرة ومشى وراء الدنيا التي لا تعادل عند الله تعالى جناح بعوضة.

لذلك كان من نصائح لقمان الحكيم:

«من اختار الدنيا على الآخرة، فاتته الدنيا ولا يصير إلى ملك الآخرة».

إن الدنيا عند مَن يتبع هوى نفسه كسراب خدَّاع، أو كحلوى التفاح التي تعجب الصغار، ظاهرها حلو وباطنها حامض.

---

٥١ أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، القاهرة، ١٤١٩، ٢، ١١٢.

٥٢ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(٥٣)

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾(٥٤)

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(٥٥)

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٥٦)

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾(٥٧)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٥٨)

---

٥٣ الحديد: ٢٠.

٥٤ الرعد: ٢٦.

٥٥ العنكبوت: ٦٤.

٥٦ الأنعام: ٣٢.

٥٧ إبراهيم: ٣.

٥٨ النحل: ١٠٧.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾(٥٩)

﴿...قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾(٦٠)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾(٦١)

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾(٦٢)

﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾(٦٣)

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله:

«اللهم إن العيش عيش الآخرة».(٦٤)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطاءً، فقال:

«ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».(٦٥)

---

٥٩ البقرة: ٨٦.

٦٠ النساء: ٧٧.

٦١ الإسراء: ١٨– ١٩.

٦٢ القيامة: ٢٠– ٢١.

٦٣ غافر: ٣٩.

٦٤ البخاري، الجهاد ،٣٣ / ٢٨٣٤، الصلاة، ٤٨؛ مسلم، الجهاد، ١٢٧–١٢٨/ ١٨٠٥.

٦٥ الترمذي، الزهد، ٤٤/ ٢٣٧٧.

وعنه ﵁ قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو في غرفة كأنها بيت حَمَام، وهو نائم على حصير قد أثر بجنبه، فبكيت، فقال:

«ما يبكيك يا عبد الله؟»

قلت: يا رسول الله، كسرى وقيصر يطئون على الخَزِّ والحرير والديباج، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك، قال:

«فلا تبكِ يا عبد الله، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة، وما أنا والدنيا، وما مثلي ومثل الدنيا إلا كمثل راكب نزل تحت شجرة ثم سار وتركها».(٦٦)

وينبِّه المولى ﷻ المؤمنين من غبطة أهل الكفر وما هم فيه من غنى ورفاه وجاه بقوله:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ. وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٦٧)

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٦٨)

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾(٦٩)

---

٦٦ الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٠، ١٦٢/ ١٠٣٢٧.

٦٧ الزخرف: ٣٣– ٣٥.

٦٨ آل عمران: ١٩٦– ١٩٧.

٦٩ النمل: ٤ –٥.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

«مَن سعَى لنيل الدنيا الفانية، سعى للسوء والقبح ولِما لن يكون، ومَن سعى للآخرة، سعى للحُسن والجمال والحق».

يُروَى أن رجلًا قال لسفيان الثوري: أوصني، قال:

«اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام».[٧٠]

فلنا أن نتساءل هنا: كم نهتم بالحياة الدنيا التي هي بضعة أيام، وكم نهتم بالحياة الآخرة التي سنعيش فيها إلى الأبد؟

يقوم الناس في هذا العصر بأبحاث كثيرة كي يعيشوا مدة أطول في هذه الدنيا أو حتى طمعًا بالنجاة من الموت، ويصرفون مبالغ طائلة على الأدوية ومواد التجميل في سبيل ذلك، مع أن العيش القليل أو الكثير لن يكون همَّ أحد وغمَّه في الآخرة التي هي العيش الحقيقي. بل الجميع يومئذ يريد أن يعلم هل جعل من هذه الدنيا التي ليست أمام الآخرة إلا عشية أو ضحاها رأسَ مال لسعادته الأبدية أم أنه ضيَّعها فضيَّعَ آخرته...

غير أن كثيرًا من الناس لا ينجون من اتباع أهواء أنفسهم والوقوع في هذه الغفلة ولو كانوا مدركين لهذه الحقائق، ويفضِّلون الدنيا التي ليست حتى قطرة أمام بحر الآخرة الزاخر، وهذا مصداق قول الله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٧١]

وأودُّ هنا أن أعرض حادثة رأيتها بعينَي فتركَت أعمق الأثر في قلبي:

بينما أنا خارج من البيت لصلاة الفجر، سمعت مواءً، لكنه لم يكن مواءً طبيعيًّا، بل مواءً يثير الفضول في النفوس، فرأيت في الحديقة هرَّتَين تقف كل واحدة أمام

٧٠ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٧، ٥٦.

٧١ الأعلى: ١٦ – ١٧.

الأخرى كنمر صغير تنظر والشرر يتطاير من عينيها وكلُّ شعرة منهما غدت شوكةً، وهي على استعداد تام للانقضاض في أي حركة على خصمها كي تمزقه إربًا.

وبينما أفكِّر في سبب هذه العداوة الشديدة، رأيتُ بينهما فأرة، فأرةً صغيرة ميتة، ففهمت أن الهرَّتَين تتنازعان على جيفة تلك الفأرة، وأن الواحدة منها جاهزة لتمزيق الأخرى أو تُمزَّق إلى أشلاء من أجل جيفة فأرة!

إن هذا المشهد الذي قد يبدو عاديًّا فيه عِبرةٌ عظيمة في واقع الأمر، فهو يعكس النتائج المريرة لعدم الاستغناء عن جيفة، ويذكِّرنا من جانب بأولئك الذين يتهافتون على الدنيا فيؤثرون ما فيها من لذاذات على الآخرة ونعيمها، ويبيِّن لنا أن ما يحرص عليه أهل الغفلة والضلال من أهواء النفوس وميولها وحب المقام والمنصب ليس إلا جيفة منتنة، ويشير إلى أن من الحماقة هدم الآخرة في سبيلها.

فلا عجب من أن يحار المرء ممَّن يكد ويعمل في سبيل الدنيا الفانية وحدها مع أنه يؤمن بالآخرة التي هي دار المقام. وليست حماقة أشد من استهلاك هذا العُمر القصير الذي هو بضاعتنا الوحيدة استهلاكًا كأنه لن ينفد، وعدم جعله رأس مال للفوز في الآخرة.

فالدنيا ليست محل لعب ولهو، بل هي المكان الوحيد الذي يمكن المرء فيه أن يعدَّ عدَّته للآخرة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٧٢]

فينبِّهنا بهذا إلى أن نيل الإنسان السعادة في العقبى ليس بهجر الدنيا وتركها، بل بالاستفادة من النعم التي أكرمه الله تعالى بها على النحو الذي يرضى به عنه، وجعل كل نعمة من هذه النعم بضاعة له في الآخرة.

٧٢ القصص: ٧٧.

رأى الجنيد البغدادي رحمه الله يومًا رجلًا يبيع الثلج وينادي:

«أعينوا إنسانًا تذوب بضاعته!» فخرَّ مغشيًّا عليه.

فالإنسان مسافرٌ إلى الآخرة تنفد بضاعته يومًا بعد يوم، فإذا لم يجعلها بالإيمان سببًا للفوز بالآخرة، ستصير مساعيه في الدنيا ألعوبة في يد الشيطان، ونتيجة ذلك الخسرانُ العظيم والعذابُ الأليم.

وقد قال سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«إن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، لا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، آثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله عز وجل».[٧٣]

زاد الآخرة

إننا جميعًا مسافرون للوقوف في حضرة المولى جل جلاله، لكن السفر لا يكون إلا بالإعداد وحمل الزاد.

يُروَى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه:

«لو أردت سفراً، أعددت له عدة؟»

قال: نعم، قال:

«فكيف سفر طريق القيامة؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم؟»

قال: بلى بأبي أنت وأمي، قال:

«صمْ يومًا شديد الحر ليوم النشور، وصلِّ ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور، وحجَّ حجة لعظائم الأمور، وتصدقْ بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها».[٧٤]

---

٧٣ ابن أبي الدنيا، موسوعة، ١، ٧٧.

٧٤ ابن أبي الدنيا، كتاب التهجد؛ الغزالي، إحياء، ١، ٣٥٤.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٧٥]

فأشار ربنا المنزه عن الزمان والمكان باستعمال كلمة «غد» التي تدل على الوقت القريب، إلى القيامة التي يعتقد الكافرون بأنها غير واقعة والتي يراها الغافلون عنهم بعيدة.

ويخبرنا عَزَّ وَجَلَّ باختلاف مفهوم الزمان بقوله:

﴿...وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[٧٦]

فعلينا ألا نتأخر في زرع بذور الأعمال الصالحة اليوم في مزرعة الدنيا ولا نهمل هذا الأمر، حتى نجني ثمارها في الآخرة القريبة منا كقرب الغد من اليوم. وينبغي لنا أن نستعمل أوقاتنا على خير وجه حتى إن قيل للواحد منا: «غدًا ستموت!" فلا يجد عندئذ حاجة لتغيير شيء في سير حياته.

وما أعظم الحِكَم في تنبيهات الشيخ سعدي الشيرازي إذ قال:

«تزوَّدْ للآخرة في حياتك! فكلُّ قريب لك يحرص على مالك بعد موتك، ولا يؤدي خيرًا لروحك.

أعطِ الدينار حين تكون في يدك اليوم! فحين تموت، تقع من يدك فلا يكون لك عليه سلطان! وإن كنت تريد أن تجتنب الألم، فلا تنسَ مَن هم تحت الألم! وزِّع المال الذي بيدك اليوم في أماكنه، ولا تؤجل ذلك للغد! ففي الغد سيكون مفتاح مالك في يد غيرك. احمل زادك اليوم بنفسك. ولا تتوقع الرأفة من زوجك وأولادك بعد موتك!».

---

٧٥ الحشر: ١٨.

٧٦ الحج: ٤٧.

يبيِّن المولى ﷻ لنا خير الزاد اللازم في رحلتنا نحو الخلود بقوله:

﴿...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٧٧]

فهو سبحانه يريد من عبده أن يكون أهلًا له، فيرشده إلى سبيل ذلك.

وأساسُ بلوغ درجة الولاية حبُّ ما يحبه الله تعالى وترك ما يكرهه. أما التقوى الذي يعد خير زاد للآخرة فهو التحلي بالصفات التي يحبها الله تعالى، والحذر من الصفات القبيحة التي يكرهها. وإذا أراد العبد أن يصل إلى درجة الولاية تلك، فعليه أن يأتي الله بقلب سليم متحلٍّ بالتقوى.

وانطلاقًا من هذه الحقيقة كان قول مولانا جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي:

«إذا أردت أن تكون من أهل الله، فاعلمْ أن زيارة مَن تحب لا تكون بيدَين فارغتَين. فزيارتهم على هذه الحال كالذهاب إلى الطاحونة من غير قمح.

سيسأل الله تعالى يوم الحشر عباده: «بماذا أتيتَ إلى يوم القيامة؟». ثم سيقول:

«لقد أتيتم كما خلقناكم أول مرة، صِفرَ الأيدي، لا زاد لكم، فرادى محتاجين. أخبروني بالهدايا التي جلبتموها ليوم القيامة! أم أنكم ما كنتم تتمنون القدوم من الدنيا إلى الآخرة والوقوف في حضرة المولى؟ أكذَّبتم خبر القيامة الذي جاءكم في القرآن؟»

أيها الإنسان، يا مَن خُلِقْتَ في أحسن تقويم! إنك لا تنكر يوم القيامة، فكيفَ تأتي إلى باب حبيبك فارغ اليدين؟ قلِّل النوم والطعام والشراب في هذه الدنيا الفانية، وأعدَّ هدية ليوم تلقى فيه المولى!»

وخلاصة الكلام أن أفضل هدية تُقَدَّم للمولى ﷻ قلب منيب طاهر تتجلى عليه أسماء الله الجمالية.

---

٧٧ البقرة: ١٩٧.

فوائد الإيمان بالآخرة

إن المؤمن الذي يعيش مدركًا أن الدنيا فانية والآخرة باقية لا يجعل من قلبه فريسة سهلة للدنيا، ويعلم أن النعم المؤقتة امتحانٌ من الله تعالى، فيستعملها جميعًا في سبيل نيل مرضاة خالقه ﷻ، أي إن العبد يكون على الاستقامة المطلوبة بالخوف من الآخرة والاستعداد للموت.

فالمؤمن الذي يقول: ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا**﴾[٧٨] لا ريب أنه يرغب عن الذنوب والآثام ويرغب في الأعمال الصالحة .

أما الغافل فيعيش حياته كما يشاء غير آبِه بالآخرة، فهو يتبع أهواء نفسه ولا يدري في أي حال هو، ويظن التعاسةَ والرذالةَ سعادةً، ويضيِّع عمره متراخيًا متكاسلًا وكأنه ليست هناك مرحلة مخيفة تنتظره في القبر والآخرة.

مع أن الحوادث لا تزول إن عدَّها المرء غير موجودة. ولم يردْ أيُّ خبر عن نجاة الهاربين من الموت والآخرة والخالق سبحانه وتعالى، ولم يرَ أحد فائدة في الخوف من الموت من غير استعداد له.

ولا شكَّ أن حقيقة الموت والآخرة ستظهر يومًا أمام مَن ينكرها. وتمسي سعادة أهل الغفلة الكاذبة وقهقهاتهم المصطنعة خسرانًا شديدًا وحسرةً وندامة.

إن الإيمان بالآخرة يجعل كل ذي عقل سليم يدرك أنه للدنيا مودِّع يومًا، وأنه باقٍ وحده مع ما صنع من خير أو شر، ويعلِّمه أنه سيلقى جزاء أعماله صالحها وسيِّئها؛ أي إن التفكر في الموت والآخرة وسيلة لإحياء القلب وتخليصه من حب الدنيا، وإصلاحِ السلوك والأحوال، والبعدِ عن الذنوب والآثام.

---

٧٨ الإنسان: ١٠.

والتفكر في الموت في أوقات اليسر والرخاء يحمي العبد من آفات الغنى، والتفكر فيه في أوقات العسر والضرَّاء يكون وسيلة لطمأنينة القلب بالحمد والشكر والقناعة والرضا.

الموت للإنسان أعظم امتحان وأشدُّ مصيبة، غير أن الأعظم من ذلك والأشد عيشُه في الدنيا متجاهلًا الموت وما وراءه وإضاعته عمره الذي هو رأس ماله من غير أن يعمل أعمالًا صالحة تليق بالوقوف في حضرة خالقه ﷻ. والذي يليق بالعاقل الاستعدادُ للموت قبل مجيئه، وما السبيل إلى ذلك إلا تطهير نفسه من الطبائع السيئة. ذلك أن النفس التي لم تخضع للتربية التي أمرَ الله تعالى بها لن تقبلَ أبدًا حقيقة فنائها والموت. يقول إسماعيل حقي البورصوي رحمه الله عن النفس:

«كيف تكون النفس مسْلِمة؟ هي أمُّ الكفر. حتى إبليس صار كافرًا لإطاعته نفسه».(٧٩)

ونفهم من قوله رحمه الله أن النفس إن لم تُضبَط ويُقلَّل من رغباتها وشهواتها إلى أقل حد، فإنها لن تأذنَ لصاحبها بالتفكر في الموت وما وراءه، فتغلب نفسانيَّاتُه روحانياتِه في لحظة الأنفاس الأخيرة، ويكون ذلك سببًا لموته على الكفر والعياذ بالله.

ولا بد للخلاص من هذا الخطر الجسيم أن يزكِّي المرء نفسه ويربيها وأن يقوِّي روحه بالعبادات وذكر الله تعالى.

يشير الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله إلى ضرورة تزكية النفس قبل الموت بقوله:

«أيْ أخي، ستغدو ترابًا في نهاية حياتك! فكنْ متواضعًا مثله».



٧٩ Çıtım Erik Dalına, İstanbul 2021, s. 60.

يقول رسول الله ﷺ:

«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».[٨٠]

إن المؤمن الذي يصغي السمع لما ورد من إرشادات في هذا الحديث النبوي ويطبِّقُها ستصبح علاقاته مع الناس قائمة دائمًا على الرحمة واللطافة والأدب والاحترام ومراعاة حقوق العباد.

إن الإيمان بالآخرة يقوِّي الشعور بالمسؤولية في القلب، ويحث المرء على أداء واجباته ومسؤولياته على أدق صورة. فهو إن عرفَ أنَّ الله تعالى مطَّلع عليه كل حين، وأن أعماله كلها تُسجَّل في صحيفته، وأنه سيُحاسَب في الآخرة على حياته في الدنيا، فسيحذر من إتيان أعمال السوء حتى لو لم يكن يراه أحد. بل إنه سيجد الأعمال الصالحة التي يؤديها حيث لا يراه أحد أقربَ لسر "الإخلاص" ويرى في ذلك فرصةً لنيل رضا الله تعالى. ويغدو عندئذ إنسانًا نقيًّا طاهرًا لا يضره اختلاف أحواله السرية منها والعلنية.

والآخرة عالَمٌ لا بد منه من أجل الظالمين والمظلومين، والفاسقين والصالحين؛ لأنه من الطبيعي أن ينال المحسنون ثواب ما عملوا والمسيؤون عقاب ما صنعوا. وحسبنا أن نعلم أنه لو لم يكن في هذه الدنيا الفانية مكان يأوي إليه المحسن وسجن يُعاقَب فيه المسيء، لأمسَت الحياةُ لا تُطَاق.

فينبغي للمرء بناءً على هذه الحكمة وحدها أن يرى ضرورة الإيمان بوجود الآخرة.

ولنا أن نتساءل هنا: ألا يغضب الإنسان من بعوضة تقرصه فيسعى لمعاقبتها، ويتذكر معروفًا صغيرًا ولو مضت عليه السنون؟ فما أشد حماقة مَن يظن أن أعماله

٨٠ البخاري، الأدب، ٣١ / ٦٠١٨، ٨٥/ ٦١٣٦، الرقاق، ٢٣؛ مسلم، الإيمان، ٧٤، ٧٥.

الصالحة والسيئة طول عمره ستبقى بلا جزاء عند الله تعالى! وأين سيذهب ظلم الظالم في الدنيا وآهات المظلوم وكفر الكافر وإيمان المؤمن؟

ولو لم يكن هناك ثواب وعقاب في الآخرة، لما بقيت قيمةٌ للنظام الإلهي الذي سخَّر كل شيء للإنسان، وصار خلقُ الإنسان عبثًا، وناقضَ ذلك اسمَي الله "العدل" و"الحكيم". لأن الله منزَّهٌ عن النقائص، وكذلك منزَّهٌ عن أن يظلم عباده، أو يكون له فعل وإرادة وتصرف بلا حكمة. فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٨١]

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٨٢]

أي إن الله بعدله يعاقب السيئين ويجزل الثواب للمحسنين، ويقول في ذلك:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٨٣]

ويقول في سورة لقمان:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[٨٤]

---

٨١ ص: ٢٧- ٢٨.

٨٢ الجاثية: ٢١- ٢٢.

٨٣ الزلزلة: ٧- ٨.

٨٤ لقمان: ١٦.

ولا شك أن الذين لا يوجد في قلوبهم أثرٌ من خوف الله ومحبته ولا يفكِّرون في الآخرة سيكونون مصدر كلِّ ضرٍّ وشرٍّ في الدنيا لأنهم يلهثون وراء غاياتهم ومصالحهم الشخصية. وأمثال هؤلاء لا يرون في المسؤوليات الدينية والوجدانية والمشاعر النبيلة مثل حب الوطن والمصلحة العامة ومنفعة المجتمع إلا أمورًا تافهة تُثير ضحكهم، ولا يمتاز هؤلاء الغافلون عن غيرهم إلا بخداعهم الناس.

ويبيِّن الله تعالى في كتابه سوء طبع الذين لا يؤمنون بالآخرة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾[٨٥]

ونستخلص مما ذكرنا أن إضعاف الدين والإيمان بالآخرة عمل شديد الخطورة يجرُّ المجتمعات إلى الهلاك، ولذلك أمثلة كثيرة نجدها في التاريخ الحديث والقديم.

وعلينا أن نذكُر هنا أن الذين يؤمنون بالآخرة ويحيون حياتهم على هذا الأساس لا يشعرون بالخوف من الموت ولو لم يضمنوا خروج أنفاسهم الأخيرة على الإيمان. والسعي لنيل رضا الله والفلاح في الآخرة يجعل المرء يسعى للاستفادة من كل لحظات حياته في هذا السبيل، ويقوِّي تحمُّله للمصائب والمحن المؤقتة في الدنيا. ذلك أن لذات الدنيا الفانية لا تُشبِع روح الإنسان أبدًا، فطمأنينة الروح مكنوزة في اللذات التي يمنحها الإيمان.

وقد ذكرَ الله تعالى في كثير من الآيات الموت والآخرة بكلمة «لقاء» وهي كلمة ذات دلالات عميقة، منها قوله:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٨٦]

---

٨٥ البقرة: ٢٦٤.

٨٦ العنكبوت: ٥.

أي إن الموت وإنْ كان فِراقًا أليمًا لمَن يتركهم الميت وراءه، فهو للمؤمنين وسيلةٌ لخلاص الروح من قفص الجسد، والانتقال من الفناء إلى البقاء، ومن الغربة إلى اللقاء.

وليس على الإنسان أن يتكلم عن نجاح وتفوق في هذه الحياة إذا لم يسعَ للرجوع إلى الله تعالى الذي إليه مآبنا، بقلب سليم ووجه منير.

يقول المولى جَلَّ جَلَالُهُ عن الذين لا يؤمنون بالآخرة:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(٨٧)

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(٨٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(٨٩)

---

٨٧ هود: ١٨– ١٩.

٨٨ الأنعام: ٣١.

٨٩ النساء: ١٣٦.

كيف يدعو الله تعالى عبده إليه

يدعو الله تعالى عباده إلى الجنة التي هي دار السلام. ولا ريب أن لكل دعوة شرط قبول، ولكل نعمة ثمن. وليس يدخل الجنة إلا مَن كان له قلب مُطهَّر مُنقَّى مُصفًّى، وصفات القلب هذه مفتاح دخول الجنة.

يقول الشيخ أبو الحسن الخرقاني رحمه الله:

«لقد جاء بكم الله تعالى إلى هذه الدنيا أصفياء أنقياء، فلا ترجعوا إليه والأدران عليكم».[٩٠]

إن الإنسان حين يُولَد تفوح منه رائحة عطرة ويُدخِل السرور في قلوب أهله ويمتِّع أنظارهم على الرغم من سوء مخرجه إلى هذه الدنيا، وما ذلك إلا أثر ودليل على براءته وخلوه من الذنوب والآثام. ويأمرنا الله تعالى أن نبقى أطهارًا مثلما جئنا وأن نحيا حياة نزيهة ونرجع إليه بقلب طاهر وصحيفة أعمال لا تشوبها شائبة.

فالجنة مكان روحانيات لا يدخلها الداخل وثِقَل الذنوب بين جنبَيه، لأن الذنوب تسوِّد القلب، وشدة سواد القلب تعمي البصيرة فيفقد صاحبها حينئذ شعور الحذر من الحرام.

فالقلوب المسودَّة الميتة معنويًّا تعمى عن رؤية الحقيقة، وفي ذلك يقول المولى ﷻ:

﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٩١]

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٩٢]

---

٩٠ Harakānî, Nûru'l-Ulûm, s. 258

٩١ الحج: ٤٦.

٩٢ الإسراء: ٧٢.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[93]

وصفوة الكلام أن الذي يتجنب رؤية الحقائق الإلهية الموجودة في هذه الدنيا التي هي دار امتحان، لن يرى شيئًا من نعيم الآخرة أبدًا.

ولن يجد طريق الجنة التي يدعو إليها الله تعالى مَن عميَت عينا قلبه بسواد الذنوب، فلا مناص لنا من أن نأتي الله بقلب طاهر منيب.



---

٩٣ طه: ١٢٤– ١٢٦.



الفصل الثالث



الموت

حينما يُلبَس روح الإنسان الجسدَ ويدخل الدنيا من بابها، فهو من تلك اللحظة مسافر إلى الموت.

ماذا ينفع الإنسان إذا اجتمعت لديه النِّعَم الفانية كلها، وصار مثل سليمان عليه السلام في غناه، ومثل يوسف عليه السلام في جماله، وعاش ألف سنة في سعادة وأمان؟ ألن يدخل في النهاية حفرة ضيقة تحت هذا التراب الأسود؟

التفكر في الموت

عندما ينظر المرء بعيون قلبه إلى تجليات قدرة الله تعالى وعظمته الظاهرة في نفسه ومنظومة كونه، فسيُضطر إلى أن يدرك كيف عليه أن يعيش حياته في الدنيا. ذلك أن تعاقب الأيام والليالي والأسابيع والشهور والفصول والسنوات تعاقبًا سريعًا، وما يصيب كل جديد من البلى، والقصور التي تمسي أطلالًا، والوجوه التي تتغير من يوم لآخر على المرآة، والشَّعر الذي يشيب ويتساقط، كلها أمور تذكِّرنا دائمًا بالمكان الذي نسير إليه؛ لذلك نجد أن الحقيقة التي ينبغي لنا أن نتفكر فيها إنما هي حادثة "الموت".

فنحن جميعًا بلا استثناء نحني الرِّقاب أمام الحكم الإلهي في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[٩٤] وسنمرُّ من مضيق الموت يومًا لا محالة.

والموت الذي يعدُّ الحقيقة المطلقة الوحيدة التي نعرفها عن مستقبلنا إنما هو كَليلةٍ تفصل أيامنا في الدنيا عن يوم الآخرة؛ إن أيام الدنيا فانية، وليلة الموت واقعة، والآخرة صباح حقيقة خالدة.



لقد خطبَ قسُّ بن ساعدة في عصر الجاهلية خطبةً في سوق عكاظ كانت موعظة بليغة للقلوب الواعية، وتعبيرًا جميلًا عن عقيدة التوحيد، إذ قال فيها:

يا أيها الناس، اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. وأقسم قسُّ قسمًا حقًّا لئن كان في الأمر رضا

---

٩٤ الأنبياء: ٣٥.

ليكون بعده سخط. إن لله لدِينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين　　من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا　　للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها　　تمضي الأكابر والأصاغر
ولا يرجع الماضي إلي　　ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة　　حيث صار القوم صائر[٩٥]



والحقُّ أن الله سبحانه وتعالى يذكِّر عباده بحقيقة الموت كل يوم حين يغلب النعاسُ في الليل الأجسامَ المنهكة بمشاغل النهار، فيقول في كتابه العزيز واصفًا حال الإنسان في الليل:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٩٦]

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٩٧]

وقد بيَّن رسول الله ﷺ هذه الحقيقة في بداية دعوته حين وقف على جبل الصفا ونادى أهل قريش قائلًا:

٩٥　انظر: البيهقي، كتاب الزهد، ص٢٦٤؛ ابن كثير، البداية، جـ٢، ص٢٣٤- ٢٤١.

٩٦　الأنعام: ٦٠.

٩٧　الزمر: ٤٢.

«واللهِ لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتُحاسبُنَّ بما تعملون، ولتُجزونَّ بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا. وإنها لَلْجنة أبدًا، والنار أبدًا. وأنتم لَأولُ مَن أُنذِر».[98]

لذلك علينا ألا نعيش في هذه الحياة الفانية أسرى لأهواء أنفسنا وكأنه لا آخرة بعد الدنيا، مثل الكافرين الذين يقولون:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[99]

بل علينا أن نعيشها كما أمر الله تعالى معتصمين بكتابه وسنة نبيه وعلى ضوء قوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[100]

ولا بد لنا أن نعي ونطبق قول رسول الله ﷺ لطارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه:

«يا طارق، استعد للموت قبل نزول الموت».[101]

وقد حثَّ النبي ﷺ أمَّتَه على التفكر في الموت في كثير من الأحيان حتى لا تبقى غافلة عن الموت التي هي حقيقة لا مفرَّ منها ولا يمكن لأحد أن ينكرها، فقال في الحديث الشريف:

«ولْتذكُرِ الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا».[102]



---

٩٨ البلاذري، أنساب الأشراف، ١، ١١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ٦٥٩؛ الحلبي، إنسان العيون، ١، ٤٠٥.

٩٩ المؤمنون: ٣٦.

١٠٠ الملك: ٢.

١٠١ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣٤٧/ ٧٨٦٨.

١٠٢ الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨.

إن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم تربوا تربيةً نبويَّةً فوعَتْ قلوبهم أهمية التفكر في الموت، حتى صار كل شيء يرونه يذكِّرهم بفناء الدنيا وبالقبر والقيامة والحساب والعذاب.

فعن أبي وائل رحمه الله وهو من كبار التابعين أنه قال:

خرجنا مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ومعنا الربيع بن خثيم رحمه الله، فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها فتمايل ليسقط. ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتينا على شاطئ الفرات على أتون،[١٠٣] فلما رآه عبد الله، والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية:

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[١٠٤]

قال: فصُعِقَ الربيع، فاحتملناه، فجئنا به إلى أهله، قال: ورابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق، فرابطه إلى المغرب فأفاق.[١٠٥]



يقول عبد الحميد كشك رحمه الله وهو من علماء الإسلام عن الصحابة:

«كان الواحد منهم إذا دخل بيته بادرته زوجه بهذين السؤالين: كم نزل اليوم من القرآن؟ وكم حفظتِ من حديث رسول الله ﷺ؟...أما عند خروجه من بيته فكانت توصيه وتقول له: اتقِ الله، ولا تكسب حرامًا، فإننا نصبر على الجوع في الدنيا، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب جهنم يوم القيامة».[١٠٦]

---

١٠٣ موقد كبير.

١٠٤ الفرقان: ١٢– ١٣.

١٠٥ أبو عبيد، فضائل القرآن، ص١٣٨.

١٠٦ عبد الحميد كشك، في رحاب التفسير، ١، ٢٦.

يقول المفسر إسماعيل حقي البورصوي في كتابه "روح البيان":

«علامة الزوجة الصالحة عند أهل الحقيقة أن يكون حسنها مخافة الله، وغناها القناعة، وحليها العفة أي التكفف عن الشرور والمفاسد، وعبادتها بعد الفرائض حسن الخدمة للزوج، وهِمَّتها الاستعداد للموت».[١٠٧]



إن غاية الناس اليوم العيشُ براحة مدة أطول في هذه الدنيا، غير أن مقصود الصحابة الكرام كان الانتقال إلى دار القرار بيض الوجوه سليمي القلب مطمئني الوجدان.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال لأحد التابعين:

«أنتم أكثر صلاة وأكثر صيامًا من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم. قالوا: وبِمَ؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب منكم في الآخرة».[١٠٨]



وعن محمد بن كعب القرظي قال:

لقيتُ عمر بن عبد العزيز بالمدينة في شبابه وجماله وغَضَارته، فلما استُخلِفَ قدمت عليه فاستأذنت عليه فأُذِنَ لي فجعلت أُحِدُّ النظر إليه فقال لي: يا ابن كعب ما لي أراك تُحِدُّ النظر؟ قلت: يا أمير المؤمنين لِمَا أرى من تغير لونك ونحول جسمك ونَفَار شعرك، فقال: يا ابن كعب، فكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري، وقد انتزع النمل مُقلتَي، وسالتَا على خدي، وابتدر منخراي وفمي صديدًا، لكنت لي أشد إنكارًا، دع ذاك أعد عليَّ حديث ابن عباس، عن رسول الله ﷺ.[١٠٩]



---

١٠٧ البورصوي، روح البيان، ٢، ١٦٤.

١٠٨ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣٥٠.

١٠٩ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣٠٠/ ٧٧٠٦.

عن أبي هريرة ﵁ قال، قال رسول الله ﷺ:

«**أكثروا ذكر هاذِم اللذات**». (١١٠)

فالذي يذكر الموت دائمًا ويتفكر فيه كما ينبغي لا ينخدع باللذات الفانية، والذي يعرف أنه راحلٌ إلى الآخرة يومًا لا يغتر باللهو في محطة الدنيا ولا يضيع وقته فيها.

يبني الصغار على الشاطئ بيوتًا من الرمال أثناء لعبهم هناك، فيلعبون بها مدة، وحينما يملون منها يهدمون تلك البيوت التي شغلَتهم لساعات بِركلة واحدة، أو يضربها موجٌ عاتٍ فيبتلعها كلها.

والموت كذلك بالتمام، فعندما يتذكر الموتَ الذين ينسجون أحلام المستقبل ويضعون الخطط والمشاريع، يدبُّ الحزن في قلوبهم. ويأتي الموت فجأة على الذين يوشكون أن يحققوا رغباتهم، فلا يُبقِي لتلك الرغبات أثرًا، ويضيع مجهودهم سدى، مثلما تضيع ذرات بيوت الرمل في خضم الأمواج.

فما أشد غفلة مَن يحيا عمرَه ناسيًا حقيقة الموت مُطلِقًا العنان لهوى نفسه!

عن أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ غرز بين يديه غرزًا، ثم غرز إلى جنبه آخر، ثم غرز الثالث فأبعده، ثم قال:

«**هل تدرون ما هذا؟**»

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

«**هذا الإنسان، وهذا أجله، وهذا أمله يتعاطى الأمل والأجل، يختلجه دون ذلك**». (١١١)



---

١١٠ الترمذي، الزهد، ٤/ ٢٣٠٧.

١١١ أحمد بن حنبل، مسند، ٣، ١٧/ ١١١٣٢.

وما أسوء اغترار المرء بهذه الدنيا التي يفني عمره فيها بما لا طائل فيه وكأنه سيبقى فيها أبدًا، مع أن الموت حقيقة واقعة لا تُغادِر أحدًا!

وقد أشار سفيان الثوري رحمه الله إلى هذه الغفلة عند الناس كافة بقوله:

«لو صاحَ مناد في جماعة من الناس: مَن يضمن أنه سيعيش حتى مساء اليوم، فليقمْ. لمَا قامَ أحد. والعجيبُ أنه لو نادى: مَن استعدَ للموت فليقمْ. لما قامَ أحد أيضًا».



يقول رسول الله ﷺ:

«بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سَهَا ولَهَا ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عَتَا وطَغَى ونسي المُبتَدا والمُنتَهى».[١١٢]

والخلاصة أن المرء يصل إلى غاية العلم حين يبدأ بحل لغز دخول ما تحت التراب والولادة على عالم الخلود. ومَن أشقى مِن الغافل السائر في طريق الخلود وإدراكه لا يتجاوز حدود الدنيا؟

ولا ننسى أن مَثَل القلوب التي لم تستضِئ بالتفكر بالموت وما وراءه وهي في الدنيا كمَثَل الأطلال لم ترَ نور الشمس يومًا. فالتفكر بالموت نورٌ إن لم تُضِئ الحياة، بقيت في ظلام الغفلة لا محالة.

فينبغي للمرء حين يرَى المقابر حيثما كانت أن يتفكر في فنائه ويعيش حياته في الدنيا ذاكرًا حقيقة الآخرة، ويرى إلى ما سيؤول إليه فيصلح حاله، ويجعل من نِعَم الدنيا وسيلة لسعادة الآخرة، ولا يغتر بشبابه وصحته وعزمه وقوته ولا يظن أنه في الدنيا باق، ولا يلتفت إلى ما لا يعنيه وما لا ينفعه، ويسعى لتأمين زاده في رحلته إلى الآخرة...

١١٢ الترمذي، صفة القيامة، ١٧/ ٢٤٤٨.



رحلة لا رجعة فيها

إن الموت الذي ينقل المرء من عالَم الأوهام إلى عالم الحقيقة أصعبُ رحلاته الفردية وأشدها مشقة، وقد قال المولى ﷻ في ذلك:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ...﴾(١١٣)

فلن يصحبَ المرءَ في رحلته هذه قريبٌ أو ولدٌ أو صديقٌ أو مالٌ ومُلكٌ، لن يصحبه إلا الإيمان- إن كان- في قلبه، وما أتى مِن أعمال صالحة في حياته الدنيا.

وكان من نصائح أهل الحكمة للغافلين المُتَّبِعين الدنيا قولهم:

«أيها الغافل الذي نسيت سرَّ الامتحان وخُدِعتَ بالدنيا، واغتررت بثروتك الفانية! إياكَ أن تثقَ بما بنَيت من قصور فاخرة ودُور متينة! لا تنسَ أن مكانكَ تحت التراب الأسود ينتظرك. ستبقى قصورك المشيدة المهيبة وراءك، وتنام في دارك تحت التراب وحيدًا يائسًا مع أعمالك!»

إن المال الذي لا يكون بضاعةً لسعادة الآخرة سيمسي على صاحبه حسرة وندامة، إذ يُروَى عن يحيى بن معاذ رحمه الله أنه قال:

«مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته.

قيل: وما هما؟

قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله».

فما أشدَّها من مصيبة على المرء أن يُحاسَب على ما لم ينفعه. وقد ورد في الحديث الشريف أن لا شيء سيرافق العبد في قبره إلا أعماله، فإن كانت صالحة، فستصبح له نورًا ورفيقًا في قبره، تبشِّره وتوسِّع قبره وتحميه من العذاب والمشقة

١١٣ الأنعام: ٩٤.

والشدة، أما إن كانت سيئة- والعياذ بالله- فإنها ستكون وبالًا عليه ونذيرًا وتُظلِم قبره وتضيِّقه.[١١٤]

وينبغي لنا ألا ننسى هذه الحقيقة التي عبَّر عنها الحسن البصري بقوله:

«لا يغرنك كثرة من ترى حولك، فإنك تموت وحدك، وتُبعَث وحدك، وتُحاسَب وحدك....[١١٥]

ابن آدم! اعلم أن ملك الموت الذي وُكِّلَ بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرك واستعد له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك، واعلم ابن آدم! إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لم تستعد لها غيرك، ولا بد من لقاء الله، فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك».[١١٦]

كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون

إن مثَلَ الحياة كمثَل قطرات الماء التي تملأ كأسًا، والأنفاس الأخيرة هي القطرة الأخيرة التي تجعل الكأس تطفح. وبريق الماء في الكأس من بريق القطرات، فينبغي للعبد أن يحفظ تلك القطرات من أدران الذنوب والمعاصي كي يقف في حضرة المولى ﷻ طاهرًا نقيًّا.

والطريقة التي نستعمل بها أنفاسنا الآن علامةٌ واضحةٌ على أحوالنا لحظة خروج الأنفاس الأخيرة. فإذا كنا نريد أن نودِّع هذه الحياة الفانية على أفضل صورة، فعلينا أن نرى في كل نفَس نتنفَّسه تجهيزًا للأنفاس الأخيرة، ذلك أن الرجل:

«يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه».[١١٧]

---

١١٤ انظر: عبد الرزاق، المصنف، ٣، ٥٨١-٥٨٢.

١١٥ البورصوي، روح البيان، [التكاثر، ٣].

١١٦ علي المتقي، كنز العمال، رقم: ٤٢٧٩٠.

١١٧ المناوي، فيض القدير، ٥، ٥١٩.

أي إن الحالة المعنوية للأنفاس التي نتنفَّسها بالعبادات والمعاملات والأخلاق في حياتنا الدنيا إنما هي كبوصلة لأنفاسنا الأخيرة، وترجمان لأحوالنا في الآخرة.

وخير مثال لهذه الحقيقة الحادثة التالية:

يُروَى أن الشيخ بهلول دانا كان ينظر إلى جدار مائل في موضع خراب بجانب طريق ويتفكر في عاقبته. وبينما كان ينعم النظر إليه مرةً، وقع الجدار فجأة، فبدا السرور على وجه بهلول دانا، فسُئِل عن ذلك، فقال:

- أما رأيتم الجدار وقعَ في الجهة التي كان مائلًا إليها!

فقيلَ له: وماذا في ذلك؟

فقال:

- إذا كان كل شيء في الدنيا يقع نحو ما يميل إليه، فإنني حين أموت أبلغُ مرضاة الله تعالى لأنني أميل إليه. أيها الناس، أكثِروا من ميلكم إلى الله تعالى بالركعات والسجدات حتى لا تقعوا نحو ما لا يرضاه تعالى!.



والحقُّ أن القلوب التي تراقب الله في سرِّها وعلنها غالبًا ما تنشغل في موتها بما كانت تنشغل به في حياتها، أي إنها تموت على ما عاشت عليه، ولهذا أمثلة كثيرة:

يُروَى أن عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله وهو من رواة الأحاديث أنه قال:

«كنتُ في المدينة، فأردت أن آتي مسجد النبي ليلةً، فلحقتني امرأة وقالت:

«يا سيد، إنْ كنتَ تريد ثوابًا فتعالَ أعِنْ مريضًا هنا يحتضر، لعلك تلقِّنه كلمة الشهادة»

فذهبتُ معها، فجعلتُ أسعى لتلقين الرجل المحتضر كلمة الشهادة، فما أفلحتُ! ثم فتحَ عينَيه وقال:

«كم مرة لقَّنتني، لقد أشحتُ بوجهي عن كلمة الشهادة ودين الإسلام طويلًا، ولا أستطيع أن أنطق بها الآن» ثم مات.

ثم جعلت أبحث عن أصل هذا الرجل وما كان عليه، فعلمتُ أنه كان مدمنًا الخمر، فقلتُ في نفسي: صدقَ رسول الله ﷺ إذ قال:

«**مدمن الخمر كعابد وثن**»[118]

فنفهم من هذه الحادثة أن الحياة المظلمة لا تنتهي بموت منير!



ويُروَى عن التابعي الربيع بن خثيم رحمه الله أنه قال:

»كنتُ عند رجل يحتضر، فكنتُ كلما لقَّنته: "لا إله إلا الله"، كان يحرِّك أصابعه كأنه يحصي مالًا».

فإذا كان الأمر كذلك، فلا بد للمؤمن أن يقلق ويتساءل: أين أريد أن ألقى الموت وفي أي حال؟ وكيف سيحين ميعادي مع ملك الموت الذي لا مفرَّ منه؟

ذلك أن هناك موتًا والمرءُ يسجد في المسجد، أو يعمل كي يجني الرزق الحلال، أو يفرِّج كربة أخيه ويعينه، أو ينفق على عباد الله في سبيل نيل رضاه سبحانه وتعالى؛ وموتًا والمرء- والعياذ بالله- يجلس في مرتع فجور، أو يؤذي قلبًا، أو يقف مع الباطل في وجه الحق، أو يلهث وراء لذة دنيئة، أو في حال غضب، أو في صحبة أعداء الله والفاسقين، أو يشاهد السوء، أو يقع في الحرام!



---

١١٨ ابن ماجه، الأشربة، ١/ ٣٣٧٥.

ولا ريب أن الإنسان يُبعَثُ على ما مات عليه، فعن عبد الله بن عمرو، قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو؟ فقال:

«يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرًا محتسبًا، بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا، بعثك الله مرائيًا مكاثرًا، يا عبد الله بن عمرو، على أي حال قاتلت، أو قُتِلت بعثك الله على تلك الحال». (١١٩)

ويقول رسول الله ﷺ:

«يُبعَث كلُّ عبد على ما مات عليه». (١٢٠)

«إذا أراد الله بقوم عذابًا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم». (١٢١)

ضمان الإيمان في الأنفاس الأخيرة

عندما ينال الإنسان شهادةً دنيوية، فإن شهادته تلك تبقى مُعترَفَةً طول حياته، لكن الأمر يختلف في الحياة المعنوية؛ إذ لا ضمان لبقاء الحال كما هو، وقد ذكرَ القرآن الكريم أخبار مَن زلَّت أقدامهم عن الصراط المستقيم في أواخر حياتهم، مثل قارون وبلعام بن باعوراء.

فقارون كان عبدًا صالحًا، وكان أفضل مَن يفسِّر التوراة، ثم امتُحِنَ بالغنى، واغترَ بما أوتيَ من مال وبغى على سيدنا موسى ومَن معه، فجرَّه غروره وافتخاره إلى الهلاك. (١٢٢)

---

١١٩ أبو داود، الجهاد، ٢٤/ ٢٥١٩؛ الحاكم، ٢، ٩٥/ ٢٤٣٧.

١٢٠ مسلم، الجنة، ٨٣/ ٢٨٧٨.

١٢١ مسلم، الجنة، ٨٤/ ٢٨٧٩.

١٢٢ انظر: القصص، ٧٦- ٨٢.

أما بلعام بن باعوراء[١٢٣] الذي عاش أيضًا في عصر سيدنا موسى عليه السلام فقد كان من المؤمنين الصالحين، لكنه مالَ إلى هوى نفسه، فساءَت عاقبته.

فلا أحد يضمن سلامة لحظاته الأخيرة في الدنيا إلا الأنبياء ومَن أشاروا إلى حسن إيمانهم، فعلى المؤمن إذن:

- ✓ أن يكون يقظ القلب يحيا طوال عمره بين الخوف والرجاء.
- ✓ أن يسعى لفهم سرِّ قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾[١٢٤]
- ✓ أن يحيا ساعيًا لعيش الكتاب والسُّنَّة في كل نفَس من أنفاس حياته، وألا يغيب عن قلبه ولسانه دعاء يوسف عليه السلام: ﴿...**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[١٢٥]
- ✓ ألا ينسى أن أعظم شهادة يمكن أن ينالها في دار الامتحان الفانية هذه هي شهادة الإيمان لحظة خروج أنفاسه الأخيرة.



إن لحظة خروج الأنفاس الأخيرة أشد لحظات الحياة صعوبة وأكثرها حرجًا، فحينها تتساقط أفكار المرء وأحلامه وخططه ومشاريعه، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾[١٢٦]

---

١٢٣ ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الأعراف، ١٧٥] ذكَر المفسرون أن المقصود من هذه الآية بلعام بن باعوراء الذي كان من قوم موسى عليه السلام. وكان بلعام من المؤمنين بسيدنا موسى عليه السلام، لكنه كفَر من أجل منافع دنيوية.

١٢٤ الحجر: ٩٩.

١٢٥ يوسف: ١٠١.

١٢٦ ق: ١٩.

وعن أم المؤمنين عائشة ﵂ أنها قالت:

إن رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكْوَة فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**».[127]

فلا مناص للعبد من الإعداد لتلك اللحظة العصيبة من أجل أن يموت على الإيمان. فإن لم يتجذر الإيمان في قلب العبد طول حياته، ولم يعش على هدي الكتاب والسُّنَّة، ولم يعوِّد لسانه على ذكر الله، فليس من اليسير النطق بكلمة التوحيد في اللحظات الأخيرة من الحياة.

والقصة التالية توضِّح هذه الحقيقة:

يُروَى أن خيَّاطًا قال لأحد الصالحين: ماذا تقول في قول رسول الله ﷺ:

«**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر**»[128]

فسأله الصالح:

- هو كذلك، بماذا تشتغل؟
- أخيطُ الثياب.
- ما أسهل شيء في عملك؟
- مسك المقص وقصُّ القماش.
- ومنذ متى أنت في عملك هذا؟
- منذ ثلاثين سنة.
- هل ستستطيع أن تقص القماش إذا بلغت روحك الحلقوم؟
- كلا.

١٢٧ البخاري، الرقاق ٤٢/ ٦٥١٠، المغازي، ٨٣/ ٤٤٤٩.

١٢٨ الترمذي، الدعوات، ٩٨/ ٣٥٣٧.

أيها الخياط، إنْ كنتَ حينئذ لا تستطيع أن تعمل عملك الذي تعلمته في مدة وبقيت تعمله بسهولة ثلاثين سنة، فكيف تتوب في تلك اللحظة ولم تتب قط في حياتك؟ تُبْ إلى الله وأنت اليوم في صحتك وقوَّتك! وإلا فقد لا تنال حسن الخاتمة في نفَسك الأخير... ألم تسمع قولهم: «بادرْ إلى التوبة قبل الموت».[١٢٩]

فما أشدَّ خسارة مَن يترك التوبة والاستغفار والحمد والذكر والشكر والعبادات للغد المجهول ولنهاية العمر، فلا أحد يعلم متى تنتهي أنفاسه المعدودة، ولا في أي حال يكون حينها.



مر عمر بطلحة ﵁ بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال: ما لك كئيبًا؟... قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند موته إلا كانت نورًا لصحيفته، وإن جسده وروحه ليجدان لها رَوْحًا عند الموت».

فلم أسأله حتى توفي، قال: أنا أعلمها، هي التي أراد عمه عليها، ولو علم أن شيئًا أنجى له منها، لأمره.[١٣٠]

وقد قال رسول الله ﷺ:

«مَن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخلَ الجنة».[١٣١]

ويشير العلماء أن المراد من الحديث قول: «لا إله إلا الله» هي وضميمتها «محمد رسول الله». والمراد بقول «لا إله إلا الله» في هذا الحديث وغيره كلمتا الشهادة، وقول «لا إله إلا الله» لقب جرى على النطق بالشهادتَين شرعًا.[١٣٢]

١٢٩ انظر: المناوي، فيض القدير، جـ٥، ص٥٠.

١٣٠ ابن ماجه، الأدب، ٥٤.

١٣١ أبو داود، الجنائز، ١٥-١٦/ ٣١١٦؛ الحاكم، المستدرك، ١، ٥٠٣؛ قارن: البخاري، الجنائز، ١.

١٣٢ العظيم آبادي، عون المعبود، بيروت ١٤١٥، ٨، ٢٦٧- ٢٦٨.



إن كلمة التوحيد تُنَقَشُ في القلب نتيجة حياة قائمة على ما تقتضيه هذه الكلمة. فلو كان العبد مهملًا لأوامر الله ونواهيه أو مقصِّرًا فيها أو جاهلًا بها، فسوف تكبر الهوَّة بينه وبين كلمة التوحيد، وإنْ لم يتب عن غفلته، ازدادت الهوَّة بينهما عمقًا. ثم تقتصر علاقة كلمة التوحيد بالعبد على لفظ حروفها لا غير، وذلك هو الخسران المبين.

يقول المولى ﷻ:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[١٣٣]



قيل لوهب بن منبه رحمه الله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال:

«بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتِحَ لك، وإلا لم يُفْتَح لك».[١٣٤]

ورُويَ عن الإمام الزُّهري وهو من كِبار التابعين، أنه سئل عن قول النبي ﷺ:

«مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة»،

فقال: «إنما كان هذا في أول الإسلام قبل نزول الفرائض والأمر والنهي».[١٣٥]

أي لا بد من تطبيق أحكام القرآن والسُّنَّة كلها بعد كمال الدين، ومن الضروري أن تكون كل لحظة من لحظات حياتنا في إطار كلمة التوحيد كي ننال السعادة الأبدية في الآخرة.

---

١٣٣ العنكبوت: ٢- ٣.

١٣٤ البخاري، الجنائز، ١.

١٣٥ الترمذي، الإيمان، ١٧/ ٢٦٣٨.

فاتباع النفس وما تجلبه من أعمال سيئة تمنع في كثير من الأحيان النطقَ بكلمة التوحيد لحظة خروج الأنفاس الأخيرة. ومن القصص التي تُروَى عن هذا الموضوع:

أنَّ يونس بن عبيد رحمه الله تعالى، وهو من حُفَّاظ الحديث الثقات قال: حضرتُ الساعة رجلًا احتُضِرَ فقلت له: قل: لا إله إلا الله فامتعض، فألححت عليه، فقال: ادع الله لي فقال: هذا لسان الميزان على لساني يمنعني من قولها.

قلت: أفما يمنعك إلا من قولها؟ فقال: نعم.

قلت: وما كان عملك به؟ قال: ما أخذتُ ولا أعطيت به إلا حقًّا في علمي، غير أني كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أحتبره[١٣٦]. [١٣٧]



بينما الجنيد البغدادي رحمه الله يمشي في صحراء اليمن، رأى كلبَ صيد فقدَ أسنانه ولم تبقَ قوة في مخالبه التي كان يهجم بها على الآساد، وبدا كأنه ثعلب هرِم. لقد كان في الماضي يلاحق الغزلان والثيران البرية ويصطادها، أما الآن فصار إلى صحبة خراف وديعة.

وعندما رأه هزيلًا ضعيفًا لا يقوَى على شيء، أعطاه شيئًا من طعامه، ثم قال له حزينًا:

«أيها الكلب، لا أدري أيُّنا أفضل حالًا غدًا. إنْ نظرنا في الظاهر، فأنا أفضل منك اليوم لأني إنسان. غير أني لا أعلم ما يخبئه لي القضاء والقدر! إنْ لم تزل قدم إيماني، فسوف ألبس تاج عفو ربي، وأما إنْ ذهبت عني كسوةُ معرفتي، فسوف أكون أدنى منك درجة؛ فالكلب مهما ساء طبعه، لن يُساق إلى النار».

---

١٣٦ أي لا ينظِّف الميزان مما علق به من الغبار.

١٣٧ القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى، ص١٩١ – ١٩٢.

يقول الشيخ محمد معصوم فاروقي رحمه الله:

«الخوف من الأنفاس الأخيرة نعمةٌ تجعل أولياء الله جميعًا في همٍّ».

فالمؤمن الذي يحمل في قلبه هذا الشعور دائمًا يعيش حياته في الدنيا وكأنه يمشي في حقل من الألغام، ويسعى لفهم لسان حال القبور كي يجعل محطته الأخيرة قبل البعث روضةً من رياض الجنة، ويدرك أن الإعداد للموت إنما هو إعداد نفسه للقبر، لا إعداد القبر لنفسه.



نُقِلَ أنه كان للشيخ أحمد بن حرب رحمه الله جار مجوسي اسمه بهرام، قال له يومًا: أسأل منك أربع مسائل، فإن أجبتَ أؤمن، قال الشيخ: اذكر. فقال المجوسي: لمَ خلقَ اللهُ الخلقَ؟ ولمَ زرقَهم؟ ولمَ يُميتهم؟ وإذا أماتهم لمَ يُحييهم؟ قال الشيخ رحمه الله: خلقهم ليعبدوه، ورزقهم ليعرفوه، ويُميتهم ليعترفوا بأُلوهيته ومُلكِهِ وقهرِه، ويُحييهم ليعرفوه بالقدرة والعلم. فلمَّا سمعَ بهرام قال: اعرضْ عليَّ الإسلام. فقال الشيخ: قل: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله. فلمَّا تمَّ إيمانه، شهقَ الشيخُ، وغُشيَ عليه، ولمَّا أفاق قال: يا شيخُ، ما سببُ الشهقة؟ قال: حين رفعتُ المُسبِّحَةَ بكلمة التوحيد نُودي في سرِّي: يا أحمد، آمنَ بهرام بعد سبعين سنة عبرَتْ عمرَه في عبادة النار، وحسنَتْ حاله، وصارت عاقبته محمودة، وأنتَ تعبدُ الله تعالى، وعبدتَه ثمانين سنة، وليس آخرُ أمركَ معلومًا.[١٣٨]

لذلك علينا أن نسعى ليكون كل نفَس من أنفاسنا وسيلةً لجعل لحظاتنا الأخيرة في هذه الدنيا خيرًا لنا، وألا نثق بصلاح أعمالنا ولا بكثرة عباداتنا، بل نلجأ إلى رحمة الله ومغفرته دائمًا من أجل نجاتنا في الآخرة.

١٣٨ العطار، تذكرة الأولياء، ص٣١٥.

يقول رسول الله ﷺ:

«إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يُختَم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يُختَم له عمله بعمل أهل الجنة».[139]



وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«إن المؤمن في ستة أنواع من الخوف: أحدها من قبل الله تعالى أن يأخذ منه الإيمان، والثاني من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيام، والثالث من قبل الشيطان أن يبطل عمله، والرابع من قبل ملك الموت أن يأخذه في غفلة بغتة، والخامس من قبل الدنيا أن يغتر بها وتشغله عن الآخرة، والسادس من قبل الأهل والعيال أن يشتغل بهم فيشغلونه عن ذكر الله تعالى».[140]

وعلمنا ربنا سبحانه وتعالى دعاءً بيَّن به ضرورة التجائنا إليه:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[141]



وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول:

«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»،

فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال:

«نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء».[142]



١٣٩ مسلم، القدر، ١١/ ٢٦٥١.

١٤٠ عبد العزيز السلمان، موارد الظمآن، ٦، ٦١٤.

١٤١ آل عمران: ٨.

١٤٢ الترمذي، القدر، ٧/ ٢١٤٠.



ومن الأمور التي ينبغي للمؤمن ألا يغفل عنها حسنُ الظنِّ بالله تعالى، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁ قال:

سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول:

«**لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ**».(١٤٣)

لأن الله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

«**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**».(١٤٤)

فحسنُ الظن بالله إنما هو طلب العبد رحمة ربه وكرمه، والأمل دائمًا برحمته العظيمة وعنايته، وتمني أن يعامله بعفوه ومغفرته، وهو الإيمان يقينًا ببلوغ مثل هذه السعادة.

غير أن العبد ينبغي أن يكون ذا "إيمان" و"عمل صالح" لتحقيق ذلك، ففي كثير من الآيات يُذكَر الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح، وفي هذا إشارة إلى لزوم وجود هاتَين الخصلتَين معًا لدى العبد.

وخلاصة القول أن العبد الذي يأمل رحمة الله وكرمه ولطفه فيسعى لأداء واجبات العبودية على قدر استطاعته، سيجد الله تعالى كما يأمل، والعبد الذي يأمل عكس ذلك، يجد الله تعالى كذلك.

وندعو الله تعالى في نهاية هذا البحث بدعاء سيدنا أبي بكر ﵁:

«اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك».(١٤٥)

آمين!

---

١٤٣ مسلم، الجنة، ٨٢/ ٢٨٧٧؛ أبو داود، الجنائز، ١٢- ١٣/ ٣١١٣.

١٤٤ البخاري، التوحيد ١٥، ٣٥؛ مسلم، التوبة، ١/ ٢٦٧٥.

١٤٥ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٨٥.

عند المُحتضَر

أوصى رسول الله ﷺ أمته بقول الخير عند المريض أو المُحتضَر، إذ قال:

«إذا حضرتم المريض، أو الميت، فقولوا خيرًا، فإن الملائكة يؤَمِّنون على ما تقولون».[١٤٦]

«إذا دخلتم على المريض فنفِّسوا له في أجله، فإن ذلك لا يرد شيئًا ويُطيِّب نفسه».[١٤٧]

ومن الأمور التي أمرَ بها الدين تلقين مَن جاءه الأجل قول: «لا إله إلا الله»، إذ قال رسول الله ﷺ:

«لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله».[١٤٨]

غير أن التلقين ينبغي أن يكون بأسلوب رقيق، ويحرص الملقِّن على تجنب إجبار المُحتضَر أو الإصرار على قوله كلمة التوحيد، لأن إغضاب المُحتضَر في مثل هذه الأوقات العصيبة قد تجعله يموت من غير قول: «لا إله إلا الله» أو يأتي- والعياذ بالله- بقول مناف للإيمان، فتسوء خاتمته.[١٤٩]

إذا لم يتكلم المؤمن بكلام دنيوي بعد أن نطق بكلمة التوحيد، فإنه مهما طال مرضه يُعَد عند موته ميِّتًا على كلمة التوحيد. ويُؤمَل أن يكون ممَن بشَّر بهم رسول الله ﷺ إذ قال:

---

١٤٦ مسلم، الجنائز، ٦/ ٩١٩؛ أبو داود، الجنائز، ١٥.

١٤٧ الترمذي، الطب، ٣٥/ ٢٠٨٧؛ ابن ماجه، الجنائز، ١/ ١٤٣٨.

١٤٨ مسلم، الجنائز ١، ٢/ ٩١٦؛ أبو داود، ١٥- ١٦/ ٣١١٧.

١٤٩ «إذا كان المُحتضرَ في حال السكرات قد عاش حياته على الإيمان ولم تظهر عليه أي علامة من علامات الكفر، ثم بدت أحوال كفر في أنفاسه الأخيرة، فإن ذلك يُحمَل على الجِنَّة، ولا يُكَفُّ عن معاملته معاملة المؤمنين».
Necip Fâzıl Kısakürek، Îman ve İslâm Atlası, sf. 330،Büyük Doğu Yay. İst. 2017

«مَن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».[١٥٠] فلا ضير في عدم تلقين مثل هؤلاء المرضى مرة أخرى.

ومما يُوصى فعله عند المُحتضَر أن يقرأ أحدهم بصوت عذب القرآنَ لا سيما سورة يس.

لحظة الموت

سيظهر الموت أمام كل إنسان بهيئة تليق بعيشه في حياته، فيكون لبعض الناس كفرح صباح العيد، ولآخرين كرحلة عذاب مليئة بالكوابيس...

فالملائكة ستسِلُّ أرواح المؤمنين الصالحين برفق[١٥١] وتبشِّرهم قائلة:

﴿...سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٥٢]

وعندئذ تُرفَع الحُجب، وتُرى الملائكة، ويُبشَّر المؤمنون الصالحون. يقول الله سبحانه وتعالى في بيان هذه الحقيقة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[١٥٣]

ويُبلِّغنا الله ﷻ كيف سيُخاطَب عبادُه الذين قضوا حياتهم في طاعة واطمأنت قلوبهم بذكره، وذلك لحظة الموت ثم الحشر ثم وهم داخلون الجنة، فيقول:

---

١٥٠ أبو داود، الجنائز، ١٥- ١٦/ ٣١١٦؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٤٧؛ الحاكم، المستدرك، ١، ٥٠٣؛ قارن: البخاري، الجنائز، ١.

١٥١ انظر: النازعات، ٢.

١٥٢ النحل: ٣٢.

١٥٣ فصلت: ٣٠- ٣٢.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١٥٤]

فنفهم من هذه الآية أنه على العبد أولًا أن يكون راضيًا عن ربه؛ أي على العبد إنْ أراد أن يحظى بمفتاح دخول الجنة، أنْ يكون راضيًا عن قضاء ربه في جميع أحواله وظروفه وتقلبات حياته، ويستمر في عبوديته بصبر وشكر، إلى أن يرضى ربه عنه.



إن لحظة موت أصحاب القلوب القاسية التي لم يشع فيها نور الإيمان طامةٌ كبرى، لأن الملائكة تنزع أرواحهم بشدة،[١٥٥] فتخرج وهم يتألمون تحت ضربات الملائكة.

ويشير الله سبحانه وتعالى إلى هذا المشهد المريع بقوله:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١٥٦]

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[١٥٧]

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[١٥٨]

---

١٥٤ الفجر: ٢٧- ٣٠.

١٥٥ انظر: النازعات، ١.

١٥٦ الأنفال: ٥٠.

١٥٧ النحل: ٢٨- ٢٩.

١٥٨ محمد: ٢٧.

وما أشد التحذير في تشبيه رسول الله ﷺ لخروج روح الفاجر من جسده، إذ قال واصفًا تلك الحال:

«ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتُفَرَّقُ في جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفُّودُ(١٥٩) **من الصوف المبلول»**.(١٦٠)

ويخاطب الله سبحانه وتعالى المشركين في القرآن الكريم بقوله:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ. وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ. وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ. وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ. فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾(١٦١)

ويذكُرُ الله ﷻ في سورة الواقعة أحوال سيئي العاقبة لحظة الموت، فيقول:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(١٦٢)

إن البشر جميعًا سيُطأطئون الرؤوس ويستسلمون طوعًا أو كرهًا لقضاء الله وقدره لحظة الموت. ولن يستطيع ساعتئذ الاعتراضَ حتى أولئك المتكبِّرون المتغطرسون الذين رفضوا أوامر الله تعالى في حياتهم وعاندوا أشدَّ العناد. وحينما تُرفَع حُجُب الغفلة الكثيرة عن إدراك الإنسان، سيُدرِكُ أن الحُكمَ الأصلي في الكون لله وحده، ولكن هيهات أن ينفعه ذلك!

---

١٥٩ السَّفود: عود من حديد يُنظَمُ فيه اللحم ليُشوَى.

١٦٠ أحمد، مسند، ٤، ٢٨٧، ٢٩٥/ ١٨٥٣٤؛ الحاكم، المستدرك، ١، ٩٣- ٩٥/ ١٠٧.

١٦١ القيامة: ٢٦- ٣٣.

١٦٢ الواقعة: ٨٣- ٨٧.

ويقول الله تعالى:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(١٦٣)

عن عبادة بن الصامت ﵁ عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومَن كره لقاء الله كره الله لقاءه»

قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت، قال:

«ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه؛ وإنَّ الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه».(١٦٤)

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

«كان داود النبي فيه غيرة شديدة وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة والله لتفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت قال أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمتنع مني شيء فقال داود أنت والله ملك الموت فمرحبا بأمر الله فرمل داود مكانه حيث قبضت روحه حتى فرغ من شأنه».(١٦٥)



---

١٦٣ الواقعة: ٨٨- ٩٦.

١٦٤ البخاري، الرقاق، ٤١/ ٦٥٠٧؛ مسلم، الذكر، ١٥/ ٢٦٨٤.

١٦٥ أحمد، مسند، ٢، ٤١٩/ ٩٤٣٢.

وما أجمل قول نجيب فاضل قيصاكوراك رحمه الله:

تُرفَع حجب وتُسدَل حينئذ أخرى

فطوبى لك إن قلتَ لعزرائيل: مرحبًا مرحبًا

يُروَى أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سألَ العالِم الزاهد أبا حازم: «كيف القدوم على الله ﷻ غدًا؟» فقال:

«أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق "الهارب" يقدم على مولاه».

ويُقال: «من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا».

ونقول: «إنه لا أجمل ولا أفضل من ابتسامة المرء حين تُرفَع حجب الغفلة عنه في أنفاسه الأخيرة ويرى مقعده من الجنة».

نسأل الله تعالى أن يُحسِن ختامنا!

ندامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**ما من أحد يموت إلا نَدِمَ**»

قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال:

«**إنْ كان محسنًا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون نَزَعَ**».[١٦٦]

ويحذِّر الله سبحانه وتعالى عبادَه في هذا الشأن بقوله:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[١٦٧]

---

١٦٦ الترمذي، الزهد، ٥٩/ ٢٤٠٣.

١٦٧ المنافقون، ٩.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١٦٨]

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[١٦٩]

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[١٧٠]

فإن كان الأمر كذلك، فعلى كلِّ ميسور أن يستعمل النعم التي أكرمه الله تعالى بها للفوز بالآخرة إذ الفرصة سانحة، وأن يستعدَ من اليوم ليوم القيامة العصيب. وينبغي ألا ننسى أننا حينما ننتقل إلى دار المقام، فلن يستطيع الغني أن ينفق ما في يديه، أو يجعل النعم الفانية بضاعة لسعادته الباقية.



يقول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل».[١٧١]

إن الطالبَ إذا خرجَ من امتحان، ثم ذَكَرَ الأجوبة الصحيحة التي لم يذكرها في الامتحان، فلن يستطيع أن يرجع كي يصحِّح أجوبته ويزيد من درجاته... وكذلك مَن يدرك الأجوبة الصحيحة في امتحان الدنيا بعد الموت، فلن ينفعه تذكره شيئًا حينها، لا بل سيكون سببًا لحسرة وندامة شديدة.



١٦٨ المنافقون: ١٠.

١٦٩ الفجر: ٢٤.

١٧٠ المنافقون: ١١.

١٧١ البخاري، الرقاق: ٤.

عن أبي ذر ﷺ أنه قال:

«في المال ثلاثة شركاء: القَدَر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها، وأنت ذميم. فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن، فإن الله ﷻ يقول: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾(١٧٢)، ألا وإن هذا الجَمَل مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أقدِّمه لنفسي».(١٧٣)

فما أبلغ هذه الحِكَم التي تلخِّص لنا ضرورة الإعداد للموت وما وراءه من اليوم حتى لا نقول: ليت كذا وكذا.



كان الربيع بن خثيم رحمه الله قد حفر في داره قبرًا، فإذا وجد في قلبه قسوة أو جفوة، جاء فاضطجع في القبر، فيمكث فيه ما شاء الله ثم يقول:

﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...**﴾(١٧٤)

ثم يقول: يا ربيع قد رجعت، قد رجعت، ثم يقوم فيمكث ما شاء الله وذلك يُرَى فيه.(١٧٥)



وفي كلام الإمام الغزالي رحمه الله عِبرٌ كثيرةٌ إذ يقول:

«أيها الولد، هَبْ أنك متَّ اليوم، فكم ستحزن على لحظات الغفلة التي عشتها في حياتك. ستقول: ليت، وليت، لكن هيهات هيهات!».

---

١٧٢ آل عمران: ٩٢.

١٧٣ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ١٦٣.

١٧٤ المؤمنون: ٩٩ -١٠٠.

١٧٥ البلاذري، أنساب الأشراف، ١١، ٣١١- ٣١٢.

«على المؤمن بعد أن يصلِّي صلاة الفجر أن يذكِّر نفسه بما يلي:

إن رأس مالي عمري، ومع مرور كلِّ يوم من عمري يذهبُ رأسُ مالي، وينتهي الربح والكسب، لكن هذا اليوم يوم جديد، وقد أكرمني الله تعالى في هذا اليوم أيضًا بأن أذن لي بالعيش، ولو توفَّاني لكنت تمنيت أن يعيدَني ولو ليومٍ واحدٍ كي أعمل صالحًا.

فلنفترض أنك تُوفِّيت الآن، ثم أُعدتَّ إلى هذه الدنيا، لهذا لا تقترب أبدًا اليوم من الذنوب والمعاصي واحذر منها، ولا تبذِّر أي لحظة من لحظات يومك هذا؛ لأن كل نَفَسٍ تتنفسه نعمةٌ لا تُقدَّر بثمن».

فلا بد لنا جميعًا أن نسعى أولًا لعمل الصالحات إذ الفرصة متاحة ونُعِدَّ العدة للآخرة، فلا نغتر بلذاذات الدنيا الفانية وبريقها الخدَّاع. ولا ننسى أن نِعَم الدنيا التي نظن أننا نملكها ليس إلا ككنز نراه في أحلامنا. فعلينا أن نسعى كما قال مولانا جلال الدين الرومي:

«لإرجاع ما ينبغي إرجاعه إلى المالك الحقيقي قبل أن يُرجِعه الأجل».



ويحذِّرنا الله تعالى من الغفلة في هذا الشأن فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١٧٦]

ولا ننسى أن الأنفاس الأخيرة كمرآة مجلوَّة صافية يشاهد فيها الإنسان عمره كله بمحاسنه ومساوئه على أوضح صورة. ولا يُسدَل حجاب غفلة أو هوى حينئذ على العيون والقلوب، لا بل تُرفَع الحُجُب ولا يجد الإنسان محيصًا من الاعتراف الذي يسوقه إلى ندامة ما بعدها ندامة.

---

١٧٦ البقرة: ٢٥٤.

لذلك علينا أن نذكر شعار: "موتوا قبل أن تموتوا" فنترك بإرادتنا اليوم طموحاتنا النفسانية التي سنُجبَر على تركها بالموت، وعلينا أن نصلح من أحوالنا بالتوبة والاستغفار قبل أن يحلَّ الأجل حتى لا تمسي أنفاسنا الأخيرة مرآة خسران نشاهد فيها حياتنا نادمين.

لن نستطيع أن نفعل شيئًا لآخرتنا، ولن تنفعنا الندامة على حياتنا الدنيا بعد أن يحين موعد تسليم سند الأجل الذي نجهل موعده.

إن الوقت من أعظم ما أكرم الله تعالى عبدَه، فالوقت لا يُسترَجع ولا يُجمَع ولا يُدَان أو يُستدَان. وقد أقسم الله تعالى بالوقت في سورة العصر، وحذَّرنا أنَّ مَن لم يُحيها بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر فقد خسر خسرانًا مبينًا.

فاليومُ هو اليوم الذي نحسب فيه حسابًا ينجينا يوم الحشر! واليومُ هو اليوم الذي نعمل فيه الصالحات! واليومُ هو اليوم الذي نسلِّم فيه الأمانات التي نحملها لصاحبها الحقيقي!

ولذلك قيل: «هلكَ المُسوِّفون» فلا أحد يضمن أنه سيعيش لغد.

علينا أن نسارع لأعمال الخير ونذكر دائمًا حديث رسول الله ﷺ:

«**يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا**».[١٧٧]

---

١٧٧ ابن ماجه، إقامة، ٧٨/ ١٠٨١.

رحلة الروح

أخبرنا رسول الله ﷺ ببعض المشاهد من أحوال القبر والقيامة والآخرة حتى نتفكر ونعتبر ونستعد للحظة الأنفاس الأخيرة وما بعدها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها». فذكر من طيب ريحها وذكر المسك.

قال: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنتِ تعمرينه، فيُنطَلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل»،

قال: «وإن الكافر إذا خرجت روحه- وذكر من نتنها، وذكر لعنًا- ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض. قال فيُقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل»،

قال أبو هريرة: فردَّ رسول الله ﷺ رَيْطَةً [ثوبًا رقيقًا] كانت عليه، على أنفه، هكذا.[١٧٨]

رحلة الجسد

قال رسول الله ﷺ في هذا الشأن:

«إذا وُضِعَت الجنازة، فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدِّموني، قدِّموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصَعِقَ».[١٧٩]



١٧٨ مسلم، الجنة، ٧٥/ ٢٨٧٢.

١٧٩ البخاري، الجنائز، ٤٩، ٨٩/ ١٣٨٠/ ١٣١٦.

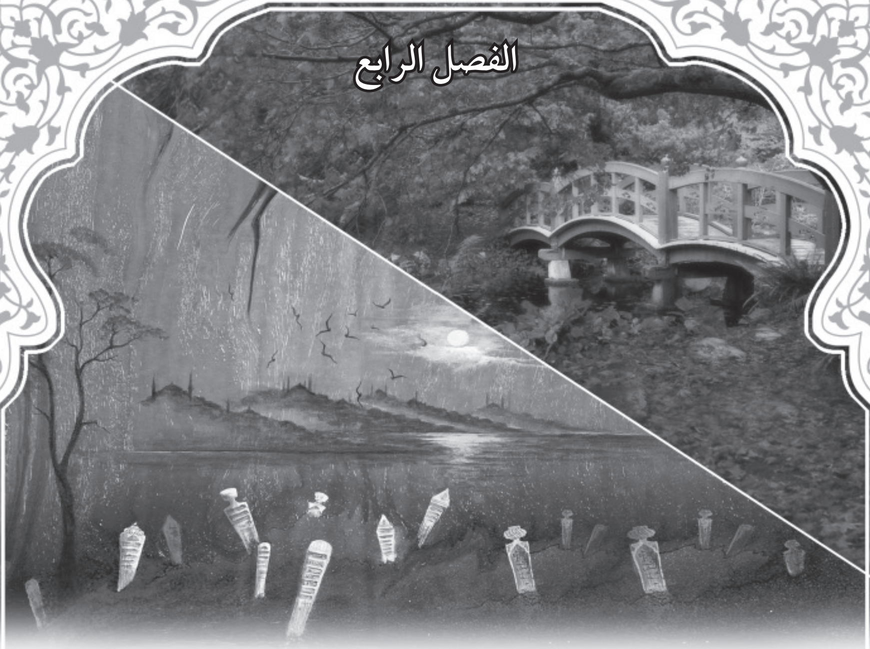
وعن البراء بن عازب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى، حتى بلَّ الثرى، ثم قال:

«**يا إخواني لمثل هذا فأعدوا**».[١٨٠]



١٨٠ ابن ماجه، الزهد، ١٩/ ٤١٩٥.





حياة القبر

يبدو القبر الذي سيدخله الإنسان مثل كومة تراب، لكنه في الأصل مثال للحشر. والقبر الذي يعدُّ أول منازل الآخرة سيكون بناءً على اتباعنا أوامر الله تعالى أو عصيانها.

يقول رسول الله ﷺ:

«إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار».

(الترمذي، القيامة، ٢٦/ ٢٤٦٠)

البرزخ وعالَم الآخرة

سننتقل بعد فراقنا هذه الدنيا بالموت إلى حياة القبر أو ما يُسمَّى بعالَم البرزخ الذي يعد محطة في رحلتنا، ثم تبدأ حياة الآخرة التي تعد المحطة الأخيرة.

إن حياة البرزخ مؤقتة مثل حياتنا في الدنيا، أما حياة الآخرة فحياة سعادتها أبدية وعذابها خالد.

وأهم أمر علينا ألا ننساه أبدًا في شأن البرزخ وعالَم الآخرة أن الحياة في هذَين العالَمين حياة مختلفة عن حياتنا في الدنيا من جوانب كثيرة، فالزمان والمكان والمقاييس مختلفة فيهما.

فالوقت في الدنيا مثلًا نعبِّر عنه بشروق الشمس وغروبها، ونحسب اليوم بالساعات، والشهر بالأيام، والسنة بالشهور. لكننا حينما ندخل القبر، فإن هذه الأمور تفقد معناها. فمقاييس الزمن هناك مقاييس خاصة بعالَم البرزخ.

وكذلك الأمر في حياة الآخرة، حتى إن المقاييس والمقادير والزمان والمكان مختلفة تمامًا عمَّا في الدنيا لأن الحياة هناك أبدية. فينبغي أن نحذر من الوقوع في خطأ التقييم بمقاييس الدنيا حين نسعى لفهم بعض الأخبار المتعلقة بحياة الآخرة الواردة في الآيات والأحاديث.

لا بل إن اختلاف المفاهيم لا يقتصر على اختلاف الحياة بين الدنيا والآخرة، ذلك أن الإنسان اكتشف أن المفاهيم تختلف في الحياة الدنيا أيضًا، فمفهوما الزمان والمكان اللذان نعرفهما محصوران في هذه الكرة الأرضية، ففي الفضاء يتباطأ الزمان، وقد يتسع الزمان والمكان. وقد أثبت العلماء أننا لو أرسلنا أحدَ توأمَين وُلِدَا على هذه الأرض إلى الفضاء، وضمنَّا عيشَه بظروف الدنيا لعشر سنوات في مجال جاذبية كوكب ضخم، ثم أرجعناه إلى الأرض لوجدنا أنه سيبدو أصغر سنًا من أخيه التوأم. وعندما عاد رائد الفضاء سكوت كيلي من الفضاء عام ٢٠١٥ بعد نحو سنة من إرسال وكالة (ناسا) إياه، كان قد زاد طوله ٥ سم، وازداد شبابًا بمقدار جزء من ١٠٠ جزء من الثانية.

تساعدنا هذه المعلومات في معرفتنا أنه ليس من الصواب أن نسعى لفهم حياة الآخرة الأبدية بمقاييس الدنيا. فعقلنا يحاول أن يفهم المجهول بالقياس على المعلوم. وعندما يحاول أحدهم أن يعرِّفنا بشخص نجهله، يخبرنا عنه بتشبيهه بمَن نعرفه، فيقول مثلًا: طوله كطول فلان، ووجهه كوجه فلان، وعيناه كعينا فلان...

إذن كيف نعرِّف بشيء نجهله تمامًا؟ فلو قال لنا أحدهم: «رأيت واحدًا لا هو بالذكر ولا بالأنثى، ليس له جنس». فماذا نفهم من قوله؟ لن نفهم شيئًا في الواقع، لأننا لم نرَ أحدًا ليس له جنس. إننا نؤمن إيمانًا قطعيًا بوجود مخلوقات اسمها "ملائكة" لأن ذِكرها وردَ في القرآن والسُّنَّة، مع أنها لا تملك جنسًا!

وكذلك نجهل ماهية "الروح" وصفاتها، لكننا نؤمن بوجودها. يقول الله تعالى في الآية ٨٥ من سورة الإسراء:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

فيخبرنا بذلك أنه ثمة أمور كثيرة لا نحيط بها علمًا ولا نستطيع أن نجد لها تفسيرًا.

وهذا يعني أن الإيمان شيء والإدراك شيء آخر. إننا نؤمن بكثير من الأشياء التي جاء خبرها في القرآن والسنة من غير أن ندركها، وهذا معنى من معاني الإيمان بالغيب.

وعلى هذا الأساس ينبغي لنا أن نفهم أمورًا غيبية مثل السؤال في القبر، واتساع القبر للمؤمن وضيقه للكافر وغيرها من الأمور.

وكذلك أمر الخلود في الجنة وأن الذي يدخلها لا يشيخ ولا يمرض ولا يصيبه همٌّ، وأن أجساد الكافرين في النار تحترق وتُبدَّل جلودهم من غير أن تصبح رمادًا. فكل هذه الأمور حقيقة واقعة وإنْ لم نستطع أن نفسِّرها بمقاييس الدنيا وما لدينا من علم فيها.

بقلم الأستاذ: أبو بكر سيفيل

حياة القبر

حياة القبر هي حياة "البرزخ" التي تبدأ بموت الإنسان وتستمر حتى البعث يوم القيامة. وقد بيِّن الله تعالى هذه الحقيقة بقوله:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١٨١]

مهما عاش الإنسان في هذه الدنيا الفانية وكيفما عاش، فلا مناص له من أن يرحل إلى القبر بعد أن تنفد أنفاسه المعدودة، ولن يحمل في رحلته هذه من أمور الدنيا إلا بضع أمتار من كفنه.

فلا بد أن يلفَّ الكفنُ الذي يعد آخر لباس يأخذه الإنسان من سوق الدنيا الجميعَ بلا استثناء، ولا بد أن يختم على اللذائذ والمغريات والأهواء بختم الإلغاء، فيعود جسد الإنسان إلى التراب الذي خلقه منه رب الأرض والسماء.

إن جسد الإنسان كغطاء لروحه. ويوم البعث ستُلبَس الروح جسدًا جديدًا بهيئة تليق بالمستوى المعنوي الذي بلغته في الدنيا.

يشير مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله إلى هذه الحقيقة بقوله:

«أقللْ مما تعطي جسمك من الدِّهن والعسل، فالذي يكثر من إطعام جسمه، يقع في أهواء نفسه فيذِلُّ».

١٨١ المؤمنون: ٩٩- ١٠٠.

وعن هانئ مولى عثمان بن عفان ﷺ قال:

كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يَبُلَّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال:

«إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد منه».[182]

إن الميِّت في القبر كالذي يكاد يغرق في البحر فيطلب المساعدة هلعًا مما هو فيه، يطلب الدعاء من أمه وأبيه وأخيه وخِلَّانه الأوفياء. فلو دعا له أحد، كان له ذلك الدعاء خيرًا من الدنيا وما فيها.

لذلك على المؤمن حينما يزور المقابر أن يسلِّم على أهلها، ويدعو لهم، ويقرأ القرآن إن استطاع، ويتفكر في أنه صائر إلى ما هم عليه. ومن أقوال حاتم الأصم رحمه الله:

«مَن مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم».[183]

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله:

«الأموات أحوج إلى الدعاء من الأحياء إلى الطعام والشراب».[184]

ولا شك أن الله تعالى يكرم أهل القبور إكرامًا عظيمًا ببركة دعاء أهل الدنيا. وأعظم هدية يمكن للأحياء أن يقدِّموها للموتى الاستغفار لهم والصدقة باسمهم.

فأهل السُّنَّة يعتقدون أن الميت يسمع، ويستفيد من عمل الخير ويُسَرُّ به، ويحزن من كل فعل سيئ، أي إن الإنسان يموت بجسده لا بروحه.

---

١٨٢ الترمذي، الزهد، ٥/ ٢٣٠٨؛ أحمد، مسند، ١، ٦٣- ٦٤.

١٨٣ الغزالي، إحياء، ٢، ٢١١.

١٨٤ السيوطي، شرح الصدور، لبنان ١٤١٧، ص٢٩٧.

يقول رسول الله ﷺ المبعوث رحمةً للعالمين:

«حياتي خير لكم، تُحدِثُون ويُحدَث لكم، ووفاتي خير لكم تُعرَض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم».[١٨٥]

وكان مما قاله رسول الله ﷺ في خطبة الوداع:

«...لا تخزوني فإني جالس لكم على باب الحوض».[١٨٦]

لأن أعمالنا- نحن أمته- تُعرَض عليه، وسلامنا عليه يبلغه.[١٨٧]

وقال رسول الله ﷺ:

«إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيرًا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا».[١٨٨]

وصفوة الكلام أن القبر النقطةُ الأولى التي يبدأ فيها شقاء الذين أضاعوا أعمارهم باتباعهم شهواتهم، وهو المرحلة الأولى التي تبدأ فيها سعادة الذين عاشوا أعمارهم على هدي القرآن والسنة.

مُرَّ على رسول الله ﷺ بجنازة، فقال:

«مُستَرِيحٌ وَمُستَرَاحٌ منه» قالوا: يا رسول الله، ما المُستَرِيح والمُستَرَاح منه؟ قال:

«العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب».[١٨٩]

١٨٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٢٤/ ١٤٢٥٠.

١٨٦ الهثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٢٧١/ ٥٦٣٦.

١٨٧ انظر: أبو داود، المناسك، ٩٦.

١٨٨ أحمد، مسند، ٣، ١٦٤/ ١٢٦٨٣.

١٨٩ البخاري، الرقاق، ٤٢/ ٦٥١٢؛ مسلم، الجنائز، ٦١/ ٩٥٠.

سؤال القبر

لا بد لكل إنسان محكوم بامتحان العبودية في مدرسة الدنيا هذه أن يصل إلى عالَم البرزخ ويُسأل في القبر الذي سيوضع فيه بعد أن تنفد أنفاسه المعدودة، حتى الذي لم يُوضَع في القبر بل حُرِق أو غرق أو صار طعامًا للحيوانات في الصحراء.

عن البراء بن عازب ﵁، عن النبي ﷺ قال:

«إذا أُقعِد المؤمن في قبره أُتِي، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ....﴾[190]».[191]

عن عثمان بن عفان ﵁، قال:

كان النبي ﷺ، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال:

«**استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل**».[192]

يقلق الإنسان دائمًا أشد القلق من الموضوعات التي يجهلها، ولا شك أن حياة القبر من الأمور التي تقض المضاجع، لأن الإنسان غير مطَّلع على ما سيؤول إليه تحت التراب. غير أن رسول الله ﷺ قد أخبرنا بتفصيل عن حياة القبر التي قال عنها:

«**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**».[193]

فعن أسماء بنت أبي بكر ﵄ أنها قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة».[194]

190 إبراهيم: ٢٧.

191 البخاري، الجنائز، ٨٧/ ١٣٦٩؛ تفسير، ١٤/ ٢/ ٤٦٩٩.

192 أبو داود، الجنائز، ٦٩/ ٣٢٢١.

193 الترمذي، القيامة، ٢٦/ ٢٤٦٠.

194 البخاري، الجنائز، ٨٧.

وعن أنس بن مالك ﷛ أن رسول الله ﷺ قال:

«إن العبد إذا وُضِعَ في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ، فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين».[١٩٥]

وعن أبي هريرة ﷛، عن النبي ﷺ، قال:

«إن الميت يصير إلى القبر، فيُجلَس الرجل الصالح في قبره، غير فزع ولا مشعوف[١٩٦]، ثم يقال له: فيمَ كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام، فيُقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ، جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيُقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فيُفرَج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا، فيُقال له: انظر إلى ما وقاك الله، ثم يُفرَج له فرجة قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على اليقين كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله.[١٩٧] ويُجلَس الرجل السوء في قبره، فزعًا مشعوفًا، فيُقَال له: فيمَ كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال له: ما هذا الرجل؟

١٩٥ البخاري، الجنائز، ٦٨، ٨٧/ ١٣٧٤؛ مسلم، الجنة، ٧٠/ ٢٨٧٠؛ أبو داود، الجنائز، ٧٨/ ٣٢٣١؛ النسائي، الجنائز، ١١٠؛ الترمذي، الجنائز، ٧٠/ ١٠٧١.

١٩٦ الشعف شدة الفزع حتى يذهب بالقلب.

١٩٧ إن المؤمن سيُحاسَب لا محالة يوم القيامة وإنْ كان سيُسأَل ويرى مقعده النهائي وهو في القبر كما وردَ في هذا الحديث. ولا بد له أن يرى يوم القيامة جزاء عمله خيرًا أو شرًّا وإن يكن مثقال ذرة. ذلك أنه حتى الأنبياء الذين لا شك أنهم سيدخلون الجنة سيُحاسبون كما جاء في القرآن الكريم. [انظر: الأعراف: ٦]

فيقول: سمعت الناس يقولون قولًا، فقلته، فُيفرَج له قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيُقَال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يُفرَج له فرجة قبل النار، فينظر إليها، يحطم بعضها بعضًا، فيُقَال له: هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى». (١٩٨)

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإنْ كان من أهل النار فمن أهل النار، فيُقَال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة». (١٩٩)

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الناس سيُمتَحنون في إيمانهم ويُسألون بعض الأسئلة في قبورهم إذ قال:

«ولقد أوحي إلي أنكم تُفتَنون في القبور مثل - أو قريب من - فتنة الدجال». (٢٠٠)

فأشار ﷺ بقوله هذا إلى شدة عظم سؤال القبر.

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال:

صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين، فسمعته يقول:

«اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، فقِهِ فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحمد، اللهم فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم». (٢٠١)



---

١٩٨ ابن ماجه، الزهد، ٣٢/ ٤٢٦٨؛ انظر أيضًا: البخاري، الجنائز، ٦٨، ٨٧؛ مسلم، الجنة، ٧٠.

١٩٩ البخاري، الجنائز، ٩٠/ ١٣٧٩؛ مسلم، الجنة، ٦٥/ ٢٨٦٦.

٢٠٠ البخاري، الوضوء، ٣٧/ ١٨٤، الكسوف، ١٠/ ١٠٥٣.

٢٠١ أبو داود، الجنائز، ٥٦/ ٣٢٠٢؛ ابن ماجه، الجنائز، ٢٣/ ١٤٩٩.



ما أعظم أن ينال المرء رحمة ربه سبحانه وتعالى! قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ، أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت، فقال: ذكرُ الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكرُ القبر والبرزخ؟ فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكًا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.[٢٠٢]

عذاب القبر

إن عذاب القبر من الموضوعات الغيبية التي لا تُدرَك بطريق العقل وأعضاء الحواس، لكنه ثابت بطريق الوحي. هو العذاب الذي سيذوقه مَن لم يتبع أوامر الله في الدنيا أثناء مرحلة الانتظار من موته حتى قيام الساعة. وقد ذُكِرَ هذا العذاب في بعض الأحاديث الشريفة باسم "فتنة القبر".

كان سعد بن أبي وقاص ﵁ يُعلِّم بَنِيهِ هؤلاء الكلمات كما يعلم المعلم الغلمان الكتابة ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ منهن دبر الصلاة:

«**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر**».[٢٠٣]

يقول الله سبحانه وتعالى في عذاب القبر:

﴿...وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢٠٤]

---

٢٠٢ الغزالي، إحياء، ٤، ٣١٠.

٢٠٣ البخاري، الجهاد، ٢٥/ ٢٨٢٢، الدعوات، ٣٧/ ٦٣٧٤؛ الترمذي، الدعوات/ ٣٥٦٧.

٢٠٤ الأنعام: ٩٣.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢٠٥]

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٢٠٦]

ومن الآيات الكريمة التي يستدل بها أهل السنة على عذاب القبر قول الله تعالى في آل فرعون:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[٢٠٧]

وفي قوم نوح:

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾[٢٠٨]

ومن أسباب عذاب القبر كما ورد في الأحادث الشريفة:

الغيبة والنميمة،[٢٠٩]

والنوح على الميت،[٢١٠]

وموت المرء مديونًا،[٢١١]

والكذب، والزنا، والربا، وشرب الخمر.[٢١٢]

---

٢٠٥ الطور: ٤٧.

٢٠٦ التوبة: ١٠١.

٢٠٧ غافر: ٤٦.

٢٠٨ نوح: ٢٥.

٢٠٩ انظر: أحمد، مسند، ١، ٢٢٥؛ البخاري، الجنائز، ٨٨.

٢١٠ انظر: البخاري، الجنائز، ٣٣؛ مسلم، الجنائز، ١٦-٢٨.

٢١١ انظر: ابن ماجه، الصدقات، ١٢.

٢١٢ انظر: البخاري، الجنائز ٩٢، التعبير ٤٨.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«ما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلَّى صلاةً إلا تعوذ من عذاب القبر».(٢١٣)

وعن أبي جحيفة، عن البراء بن عازب، عن أبي أيوب رضي الله عنه، قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت [غربت] الشمس، فسمع صوتًا فقال:

«**يهود تعذب في قبورها**».(٢١٤)

فإن قيل: نحن نشاهد الميت على حاله فكيف يُسأَل، ويُقعَد، ويُضرَب، ولا يظهر أثر؟ فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظير في الشاهد وهو النائم، فإنه يجد لذة أو ألمًا يحسه ولا تحسه، وكذا يجد اليقظان لذة وألمًا يسمعه، أو يتفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه.(٢١٥)



وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبرٌ ستة أو خمسة أو أربعة فقال:

«**من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟**»

فقال رجل: أنا، قال:

«**فمتى مات هؤلاء؟**»

قال: ماتوا في الإشراك، فقال:

«**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**»

ثم أقبل علينا بوجهه، فقال:

---

٢١٣ البخاري، الجنائز، ٨٧/ ١٣٧٢/ ٦٣٦٦.

٢١٤ البخاري، الجنائز، ٨٨/ ١٣٧٥؛ مسلم، الجنة، ٦٩/ ٢٨٦٩.

٢١٥ الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ، ٢، ٥٩٠.

«تعوذوا بالله من عذاب النار»

قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال:

«تعوذوا بالله من عذاب القبر»

قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال:

«تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال:

«تعوذوا بالله من فتنة الدجال»

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.(٢١٦)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانَين يعذبان في قبورهما، فقال:

«يعذبان، وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة»

ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين أو ثنتين، فجعل كسرة في قبر هذا، وكسرة في قبر هذا، فقال:

«لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».(٢١٧)

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ يومًا إلى سعد بن معاذ حين توفي، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووُضِع في قبره وسوَّى عليه، سبح رسول الله ﷺ فسبحنا طويلًا ثم كبَّرَ فكبَّرنا، فقيل: يا رسول الله لمَ سبَّحتَ ثم كبَّرتَ؟ قال:

---

٢١٦ مسلم، الجنة، ٦٧/ ٢٨٦٧.

٢١٧ البخاري، الأدب ٤٩/ ٦٠٥٢، الوضوء ٥٥-٥٦/٢١٨، الجنائز ١٣٧٨/٨٢. انظر أيضًا: مسلم، الطهارة، ١١١/ ٢٩٢؛ أبو داود، الطهارة، ١١؛ الترمذي، الطهارة، ٥٣؛ النسائي، الطهارة، ٢٦؛ ابن ماجه، الطهارة، ٢٦.

«لقد تضايقَ على هذا العبد الصالح قبرُهُ حتَّى فرجه الله ﷻ عنه».[218]

عن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره قال: **«لو نجا أحد من فتنة القبر لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضُمَّ ضَمَّة ثم رُخِّيَ عنه»**.[219]



وقال ميمون بن مهران:

خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال:

«يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المُثلات وأصاب الهوام من أبدانهم». ثم بكى وقال:

«والله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أَمِنَ من عذاب الله».[220]

النجاة من عذاب القبر

كان رسول الله ﷺ يلجأ إلى الله تعالى داعيًا:

«اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».[221]

فوصَّى أُمَّتَه بالتعوذ بالله من هذه الأمور الأربعة. ذلك أن المرء في عالَم القبر لن يجد عنده إلا أعماله في الدنيا. لهذا كانت الأعمال السيئة نقمة عظيمة على صاحبها، والأعمال الصالحة نعمة كبيرة وخير صاحب ورفيق.

---

٢١٨ أحمد، مسند، ٣، ٣٦٠، ٣٧٧/ ١٤٨٧٣.

٢١٩ الطبراني، المعجم الكبير، ١، ٣٣٤/ ١٠٨٢٧.

٢٢٠ الغزالي، إحياء، ٢، ٢١١.

٢٢١ البخاري، الجنائز، ٨٨/ ١٣٧٧؛ مسلم، المساجد، ١٢٨-١٣٤.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إذا دخل الإنسان قبره فإنْ كان مؤمنًا أحفَّ به عمله، الصلاة والصيام، فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده، فيناديه اجلس، فيجلس... وإن كان فاجرًا أو كافرًا جاء الملك وليس بينه وبينه شيء يرده».(٢٢٢)

«يُؤتَى الرجل في قبره، فإذا أُتِيَ من قِبَلِ رأسه دفعته تلاوة القرآن، وإذا أُتِيَ من قِبَلِ يديه دفعته الصدقة، وإذا أُتِيَ من قِبَلِ رجليه دفعه مشيه إلى المساجد، والصبرُ حَجْرَةً، فقال: أما إني لو رأيت خليلًا كنت صاحبه».(٢٢٣)

وقد ذكرَ رسول الله ﷺ فضلَ سورة المُلك في النجاة من عذاب القبر، فقال عنها: «**هي المانعة**»(٢٢٤).

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: الم تنزيل [سورة السجدة]، وتبارك الذي بيده الملك.(٢٢٥)

وقال طاوس بن كيسان رحمه الله وهو من علماء التابعين في هاتَين السورتَين:

«تفضلان على كل سورة من القرآن بسبعين حسنة».(٢٢٦)

وقال عليه الصلاة والسلام:

«من قرأ (قل هو الله أحد) في مرضه الذي يموت فيه لم يفتن في قبره».(٢٢٧)

---

٢٢٢ أحمد، مسند، ٦، ٣٥٢/ ٢٦٩٧٦؛ قارن: الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٥١-٥٢/ ٤٢٦٨.

٢٢٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٣، ص٥٢/ ٤٢٧٠.

٢٢٤ انظر: الترمذي، فضائل القرآن، ٩/ ٢٨٩٠؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٥٤٠/ ٣٨٣٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧، ١٢٨.

٢٢٥ الترمذي، فضائل القرآن، ٩/ ٢٨٩٢.

٢٢٦ الترمذي، فضائل القرآن، ٩/ ٢٨٩٢.

٢٢٧ القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى، ص٣٣٠.

نِعَم القبر

إن المؤمنين الصالحين الذين استطاعوا أن يجعلوا من الحياة الفانية رأسمال لسعادتهم الأبدية بالعيش في الدنيا كما أمر الله تعالى سيعيشون في نِعَمٍ عظيمة في القبر كما يشاء الله تعالى.

قال عطاء الخرساني رحمه الله:

«أرحم ما يكون الرب بعبده إذا دخل في قبره وتفرق الناس عنه وأهله».[٢٢٨]

ويمكن ذِكرُ ما يلي في موضوع النِّعَم التي سينالها المؤمن في قبره:

يوسَّع قبر المؤمن، ويغدو روضة من رياض الجنة، ويرى مقامه في الجنة، أما الأنبياء والشهداء فيأتيهم رزقهم من الجنة مباشرةً.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون،[٢٢٩] وأنه في حادثة الإسراء والمعراج رأى موسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام يصلون، ولمَّا حانت الصلاة أمَّهم.[٢٣٠]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**».[٢٣١]

«**مررت على موسى ليلة أُسرِيَ بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره**».[٢٣٢]

---

٢٢٨ القرطبي، التذكرة، ص٣٤٥.

٢٢٩ انظر: مسلم، الإيمان، ٢٧٨؛ قارن: أبو نعيم، حلية الأولياء، ٢، ٣١٩؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ٣، ٢٦٣.

٢٣٠ انظر: مسلم، الإيمان، ٢٧٨.

٢٣١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٢١١/ ١٣٨١٢.

٢٣٢ مسلم، الفضائل، ١٦٤/ ٢٣٧٥.

وثمة في المؤمنين مَن ينال هذه الألطاف الربانية. فصلاة الأنبياء وبعض الصالحين في قبورهم بعد وفاتهم ورفع التكليف عنهم صلاةٌ نابعة من حبهم لعبادة الله تعالى وما فيها من لذة معنوية.

ويُروى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه رأى بعض الأنبياء يلبون ويطوفون الكعبة.[٢٣٣]

وهنا لا بد أن نبيِّن أن المرء لا يستطيع أن يدرك ماهية حياة القبر حقَّ اليقين إلا حين يعيشها. وما وردَ في الكتاب والسنة إنما هو بناءً على إدراك البشر وتصوراتهم الدنيوية. وحقيقة القبر تفوق عقل الإنسان المحدود وإدراكه. وواجب المؤمن في الأساس الانشغالُ بالإعداد لحياة القبر بدلًا من البحث في ماهيته.

وهذا ما نفهمه من جواب النبي ﷺ لمَن سأله: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «**وما أعددت للساعة؟**».[٢٣٤]

أي واجب المؤمن الانشغال بالإعداد لما يهمه بدلًا من التلكؤ بما لا يعنيه من حياة القبر والآخرة.

إن الإنسان سيُولَد بعد وفاته في عالَم ظروفه مختلفة عن ظروف الدنيا، مثلما أنه جاء إلى الدنيا من عالَم مختلف الظروف. وقد تكون الآخرة عالمًا مختلفًا عن عالَم القبر، ولربما يعطينا ربنا سبحانه وتعالى إدراكًا وحواسًّا مختلفة في كل عالَم نمر به.

وخير الكلام في مثل هذه المسائل التي تتجاوز حدود العلم والعقل قولُ: «لا يعلم الغيب إلا الله» و»اللهُ أعلمُ بالصواب» ثم السكوت.

---

٢٣٣ البخاري، اللباس، ٦٨؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٨؛ أحمد، مسند، ١، ٢٣٢؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٣٨/ ٤١٢٣.

٢٣٤ مسلم، البر، ١٦٣/ ٢٦٣٩.

مَن لا تبلى أجسادهم في القبر

خلقَ اللهُ تعالى الإنسانَ من تراب، وجعله ينمو ويكبر طوال عمره بالغذاء الذي ينبت من التراب، ثم يعود ذلك الإنسان بعد وفاته إلى التراب.

يقول الله تعالى:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(٢٣٥)

تُظهِر هذه الحقيقة أن جسد الإنسان محكوم بالفناء لا محالة، وأصل بنيته المادية تراب لذلك سيعود إلى التراب مرة أخرى في القبر، أي سيرجع إلى أصله.

غير أن الله تعالى لن يُبليَ أجساد بعض من عباده في عالَم القبر وستبقى طرية ندية إكرامًا خاصًّا منه لهم، ويأتي في مقدمة هؤلاء المُكرَمين أنبياء الله صلوات الله عليهم أجمعين.

فعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قُبِضَ، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»

قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْت- بليت-؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

«إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء».(٢٣٦)

وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام:

«إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حي يرزق».(٢٣٧)

---

٢٣٥ طه: ٥٥.

٢٣٦ أبو داود، الصلاة، ٢٠١/ ١٠٤٧، الوتر ٢٦؛ انظر: النسائي، الجمعة، ٥.

٢٣٧ ابن ماجه، الجنائز، ٦٥/ ١٦٣٧.

وثمة مجموعة من الأدلة الحية على أن أجساد الأنبياء لا تبلى، من هذه الأدلة في تاريخنا الحديث أنه أثناء إنشاء سد دجلة الذي يروي قسمًا كبيرًا من سهل مدينة دياربكر، تمَّ نقل قبرَي النبي أليسع عليه السلام وخلفه وابن عمه ذو الكفل عليه السلام كي لا يبقيَا تحت الماء. ففُتِح قبرا النبيَّيَن- ويُروَى أن عمر القبرين ٣٢٠٠ عام- ونُقِل النعشان إلى قبرَين جديدَين في تل قريب. وقد شهدَ الشهود على حادثة نقل القبرَين أن جسدَي النبيِّيَن لم يبلَيَا.

وممَّن يُحرَم على الأرض أجسادهم الشهداءُ، وقد وُقِفَ على كثير من أجساد الشهداء سليمة في قبورهم في أيامنا هذه. يقول الله تعالى في الشهداء:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢٣٨]

ولا ريب أن حياة الأنبياء أعلى درجة من حياة الشهداء.

ومن الثابت بالأدلة النقلية والشهادات الحيَّة أن الأرض محرَّمة على أجساد الصالحين الذين امتلأت قلوبهم بحب الله ورسوله، وتغذوا باللقمة الحلال واجتنبوا كلَّ حرام ومشبوه طوال أعمارهم، وكانوا عبادًا لله تعالى عاشوا على التقوى. ومن الأمثلة لهذا الموضوع:

أنه لما سقط الحائط -أي جدار حجرة عائشة رضي الله عنها- في زمان الوليد بن عبد الملك، أخذوا في بنائه فبدت لهم قدم، ففزعوا وظنوا أنها قدم النبي صلى الله عليه وسلم، فما وجدوا أحدًا يعلم ذلك حتى قال لهم عروة:

«لا والله ما هي قدم النبي صلى الله عليه وسلم، ما هي إلا قدم عمر رضي الله عنه».[٢٣٩]

٢٣٨ آل عمران: ١٦٩-١٧٠.

٢٣٩ البخاري، الجنائز، ٩٦.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: لما حضر أُحُد دعاني أبي من الليل، فقال:

«ما أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك، غير نفس رسول الله ﷺ، فإن علي دينًا فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيرًا».

فأصبحنا، فكان أول قتيل ودُفِن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه.[٢٤٠]

الأعمال بعد الموت

يذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن المؤمنين إخوة.[٢٤١] ومما تفترضه هذه الأخوة على المؤمنين أداء الواجب الأخير للأخ في الدين بعد موته؛ أي تغسيل الإنسان الذي كرَّمه الله تعالى وخلقه في أحسن تقويم وجعله أشرف المخلوقات، تغسيلًا يليق بشرفه وكرامته وبأدب ورعاية، ثم دفنه على أفضل صورة.

فعن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**حقُّ المسلم على المسلم خمس: ردُّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**».[٢٤٢]

وعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«**حق المسلم على المسلم ست**» قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال:

«**إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فسمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتَّبعه**».[٢٤٣]

---

٢٤٠ البخاري، الجنائز، ٧٨.

٢٤١ انظر: الحجرات، ١٠.

٢٤٢ البخاري، الجنائز، ٢/ ١٢٤٠؛ مسلم، السلام، ٤/ ٢١٦٢.

٢٤٣ مسلم، السلام، ٥/ ٢١٦٢.

١ . التجهيز والتكفين والتشييع

إن الصلاة على أخينا الميت ودفنه فرض كفاية، أما غير ذلك فسُنَّة. فإذا لم يقم بهذه الواجبات أحد في بقعة من الأرض، أثمَ الجميع لتركهم فرضًا.

وقد أولى رسول الله ﷺ أهمية لتجهيز الجنازة، وأمرَ القائمين على هذا العمل بتغسيل الميت على أفضل صورة وتطييبه، إذ قال في هذا الشأن:

«مَن غسل ميتًا فكتم عليه غفر له أربعين مِرة، ومن كفن ميتًا كساه الله من السندس وإستبرق الجنة، ومن حفر لميت قبرًا فأَجنَّه فيه، أُجرِيَ له من الأجر كأجر مسكن أسكنه إلى يوم القيامة». (٢٤٤)

ومما يجب الانتباه إليه أثناء تكفين الميت تجنب فعل أي شيء يكرهه الحي، كتغسيل الميت بماء شديد الحرارة أو شديد البرودة.

وينبغي تجهيز الميت وتكفينه من غير إسراف أو تقتير. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب يومًا، فذكر رجلًا من أصحابه قُبِضَ فَكُفِّنَ في كفن غير طائل -غير كامل-، وقُبِرَ ليلًا، فزجر النبي ﷺ أن يُقبَر الرجل بالليل حتى يُصلَّى عليه، إلا أن يضطر إنسان إلى ذلك، وقال النبي ﷺ:

«إذا كفن أحدكم أخاه، فليحسن كفنه». (٢٤٥)

«البَسُوا البياض فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم». (٢٤٦)

وحثَّ رسول الله ﷺ على الاستعجال في دفن الميت إذ قال:

«أسرعوا بالجنازة، فإن تكُ صالحة فخير تقدمونها، وإن يكُ سوى ذلك، فشر تضعونه عن رقابكم». (٢٤٧)

---

٢٤٤ الحاكم، المستدرك، ١، ٥٠٦/ ١٣٠٧.

٢٤٥ مسلم، الجنائز، ٤٩/ ٩٤٣؛ أبو داود، الجنائز، ٢٩-٣٠/ ٣١٤٨؛ النسائي، الجنائز، ٣٧.

٢٤٦ الترمذي، الأدب، ٤٦/ ٢٨١٠.

٢٤٧ البخاري، الجنائز، ٥١/ ١٣١٥؛ مسلم، الجنائز، ٥٠، ٥١/ ٩٤٤.

وقد نرى في بعض الأماكن تأخير دفن الميت بحجة انتظار الناس كي يدركوا صلاة الجنازة، على الرغم من أن كلام النبي ﷺ واضح وضوح الشمس. والأصل الاستعجال ودفن الميت، لأن صلاة الجنازة كما ذكرنا فرض كفاية. فيصلي الحاضرون على الميت، والذين لا يدركون صلاة الجنازة يستطيعون أن يصلوا عليه مرة أخرى.[٢٤٨] ومَن لا يستطيع الحضور، له أن يصلي الجنازة غيبًا.

ويمكن وضع الميت في ثلاجة الموتى لتشريح الجثة أو لضرورة أخرى، أما وضعه في ثلاجة الموتى من غير ضرورة فيُعَدُّ أذى له.

وضع حجر عند رأس القبر لمعرفة مكانه جائز. فعن المطلب بن أبي وداعة قال:

لما مات عثمان بن مظعون، أخرج بجنازته فدفن، فأمر النبي ﷺ رجلًا أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليها رسول الله ﷺ، وحسر عن ذراعيه، قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ، حين حسر عنهما ثم حملها فوضعها عند رأسه، وقال:

«أتعلَّمُ بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي».[٢٤٩]

ولما مر رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية بالأبواء قال:

«إن الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه».

فأتاه رسول الله ﷺ فأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، فقيل له، فقال:

«أدركتني رحمتها فبكيت».[٢٥٠]

---

٢٤٨ صلاة الجنازة مرة ثانية مكروهة لدى الحنفية والمالكية. أما الشافعية والحنابلة فقد رأوا جواز أن يصلي الذين لم يدركوا صلاة الجنازة مرة ثانية ولو كان ذلك بعد دفن الميت، حتى إن الشافعية عدُّوا ذلك سُنةً.

٢٤٩ أبو داود، الجنائز، ٥٧-٥٩/ ٣٢٠٦. انظر: ابن ماجه، الجنائز، ٤٢.

٢٥٠ ابن سعد، الطبقات، ١، ١١٦-١١٧؛ انظر أيضًا: مسلم، الجنائز، ١٠٥-١٠٨.

وتسوية القبر مما أمر به الإسلام، إذ لما سوي جدث إبراهيم ولد النبي كأن رسول الله ﷺ رأى كالحجر في جانب الجدث فجعل رسول الله ﷺ يسوي بإصبعه ويقول:

«إذا عمل أحدكم عملًا فليتقنه فإنه مما يسلي بنفس المصاب».[٢٥١]

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ كان على شفير قبر ابنه، فرأى فرجة في اللحد، فناول الحفار مَدَرَةً -طينًا- وقال:

«إنها لا تضر ولا تنفع، ولكنها تُقِرُّ عين الحي».[٢٥٢]

ولا بأس في رش الماء على القبر من أجل تثبيته. حين دفن النبي ﷺ إبراهيمَ قال:

«هل من أحد يأتي بقربة؟»

فأتى رجل من الأنصار بقربة ماء، فقال:

«رشها على قبر إبراهيم».[٢٥٣]

وأمر رسول الله ﷺ بحجر فوضع عند قبره،[٢٥٤] وهو أول قبر رش عليه.[٢٥٥]

ومن المستحسَن زرع شجرة قرب القبر.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال:

«أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»

---

٢٥١ ابن سعد، الطبقات، ١، ١٤١.

٢٥٢ ابن سعد، الطبقات، ١، ١٤٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١، ٤٥١.

٢٥٣ ابن سعد، الطبقات، ١، ١٤١.

٢٥٤ ابن سعد، الطبقات، ١، ١٤٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١، ٤٥١.

٢٥٥ ابن عبد البر، الاستيعاب، ١، ٥٩؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ١، ٥١؛ القسطلاني، المواهب اللدنية، ١، ٢٥٩.

قال فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا ثم قال:

«لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا».[٢٥٦]

يقول الإمام القرطبي العالمُ الفقيه المفسر المحدث في شرحه لهذا الحديث:

فقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما لم ييبسا**» إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبحان، فإذا يبسا صارا جمادًا. والله أعلم... قال علماؤنا: ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن، وقد بيَّنا... أنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدى إليه».[٢٥٧]

ويُكرَه الدعس على القبور والجلوس عليها. يقول رسول الله ﷺ في هذا الشأن:

«لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده، خيرٌ له من أن يجلس على قبر».[٢٥٨]

وعن جابر رضي الله عنه قال:

«نهى رسول الله ﷺ أن يُجصَّص القبر، وأن يُقعَد عليه، وأن يُبنَى عليه».[٢٥٩]

وقد اختُلِفَ في موضوع "التلقين" بعد دفن الميت. ويُفهَم من حديث: **«اقرؤوا يس على موتاكم»**[٢٦٠] فضلَ قراءة هذه السورة قبل الموت وبعده.

---

٢٥٦ مسلم، الطهارة، ١١١/ ٢٩٢.

٢٥٧ القرطبي، تفسير، ١٠، ٢٦٧.

٢٥٨ مسلم، الجنائز، ٩٦/ ٩٧١؛ أبو داود، الجنائز، ٧٧؛ النسائي، الجنائز، ١٠٥.

٢٥٩ مسلم، الجنائز، ٩٤؛ أبو داود، الجنائز، ٧٦؛ الترمذي، الجنائز، ٥٨.

٢٦٠ أبو داود، الجنائز، ٢٤؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٦، ٢٧؛ ابن حبان، صحيح، ٥، ٣.

٢- قضاء الدين

يعيش المسلم بشعور الإحسان أي مدركًا أنه تحت آلات التصوير الربَّانية، ويخشى أن يقف في حضرة الله تعالى مديونًا.

فإذا مات أحدهم وعليه دين، فعلى أقربائه أن يقضوا الدين قبل أن ينفذوا وصيته ويقسِّموا ميراثه. فحتى الشهيد لا يدخل الجنة ما لم يُقضَ دينه.[٢٦١]

وقال رسول الله ﷺ:

«**نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه**».[٢٦٢]

أي إنها محبوسة لا تستطيع أن تبلغ مقامها. ولا يمكن الحُكمُ في هلاكها أو غير ذلك إذا لم يُقضَ الدين عنها، لذلك تبقى منتظرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّين، فيسأل: «**هل ترك لدينه فضلًا؟**» فإن حدث أنه ترك وفاء، صلى، وإلا قال للمسلمين: «**صلوا على صاحبكم**» فلما فتح الله عليه الفتوح، قال:

«**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينًا فعلي قضاؤه،**[٢٦٣] **ومن ترك مالًا فلورثته**».[٢٦٤]

وعن سعد بن الأطول رضي الله عنه، أن أخاه مات وترك ثلاثمئة درهم، وترك عيالًا، فأردت أن أنفقها على عياله، فقال النبي ﷺ:

«**إن أخاك مُحتبَس بدَينه، فاقضِ عنه**»،

٢٦١ انظر: مسلم، الإمارة، ١١٩، ١٢٠؛ النسائي، البيوع، ٩٨؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٨٩.

٢٦٢ الترمذي، الجنائز، ٧٦؛ ابن ماجه، الصدقات، ١٢/ ٢٤١٣.

٢٦٣ لذلك على الحاكم أن يدفع من بيت المال (خزينة الدولة) الدَّين الذي يتركه الميت وليس عنده شيء يُقضَى به دينه.

٢٦٤ البخاري، النفقات، ١٥/ ٥٣٧١؛ مسلم، الفرائض، ١٤/ ١٦١٩.

فقال: يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارَين، ادَّعتهما امرأة وليس لها بينة، قال: **«فأعطِها فإنها محقة»**.[٢٦٥]

وقد حذَّر رسول الله ﷺ المؤمنين من بقاء الدَّين إلى يوم القيامة بقوله:

«مَن كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه».[٢٦٦]

٣. تنفيذ الوصية

تُنفَّذ وصية الميت بـ"ثلث" ماله بعد تجهيزه وتكفينه وقضاء دينه، أما ما بقي من ماله فيُقسَّم على ورثته.

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: إني قد بلغ بي من الوجع وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: **«لا»** فقلت: بالشطر؟ فقال: **«لا»** ثم قال:

«الثلث والثلث كبير - أو كثير - إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك» فقلت: يا رسول الله، أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟ قال:

«إنك لن تخلف فتعمل عملًا صالحًا إلا ازددت به درجة ورفعة، ثم لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام، ويضر بك آخرون، اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد ابن خولة»

يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة.[٢٦٧]

---

٢٦٥ ابن ماجه، الصدقات، ٢٠/ ٢٤٣٣.

٢٦٦ البخاري، المظالم، ١٠/ ٢٤٤٩، الرقاق، ٤٨.

٢٦٧ البخاري، الجنائز، ٣٦/ ١٢٩٥، الوصايا، ٢، النفقات، ١؛ مسلم، الوصية، ٥/ ١٦٢٨.

٤ . الدعاء والاستغفار

إن أول دعاء للمسلم الميت صلاةُ الجنازة. وقد بشَّر رسول الله ﷺ أمته في هذا الشأن إذ قال:

«**ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلًا، لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفَّعهم الله فيه**».[٢٦٨]

والرقم "أربعون" المذكور في الحديث دلالة على حشد من الناس، فقد ذُكِر رقم "مئة" في حديث آخر،[٢٦٩] وفي رواية أخرى ذكر أن ثلاثة صفوف تُعَدُّ كافية،[٢٧٠] فكان مالك بن هبيرة راوي الحديث إذا استقل أهل الجنازة جزأهم ثلاثة صفوف للحديث.

وحسن شهادة المسلمين أمر عظيم للميت، فعن أنس بن مالك ﵁ أنهم مروا بجنازة، فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ:

«**وجبَتْ**»،

ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا، فقال:

«**وجبَتْ**».

فقال عمر بن الخطاب ﵁: ما وجبت؟ قال:

«**هذا أثنيتم عليه خيرًا، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا، فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض**».[٢٧١]

إن الصلاة على المسلم الميت والذهاب إلى القبر له ثواب عظيم. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

---

٢٦٨ مسلم، الجنائز، ٥٩/ ٩٤٨.

٢٦٩ انظر: مسلم، الجنائز، ٥٨.

٢٧٠ انظر: أبو داود، الجنائز، ٣٩/ ٣١٦٦؛ الترمذي، الجنائز، ٤٠.

٢٧١ البخاري، الجنائز، ٨٦/ ١٣٦٧؛ مسلم، الجنائز، ٦٠/ ٩٤٩.

«من اتَّبع جنازة مسلم، إيمانًا واحتسابًا، وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط».(٢٧٢)

وعن سعد بن أبي وقاص أنه كان قاعدًا عند عبد الله بن عمر، إذ طلع خباب صاحب المقصورة، فقال يا عبد الله بن عمر: ألا تسمع ما يقول أبو هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«من خرج مع جنازة من بيتها، وصلى عليها، ثم تبعها حتى تدفن كان له قيراطان من أجر، كل قيراط مثل أُحُد، ومن صلى عليها، ثم رجع، كان له من الأجر مثل أحد»

فأرسلَ ابن عمر رضي الله عنه خبابًا إلى عائشة رضي الله عنها يسألها عن قول أبي هريرة رضي الله عنه، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت. وأخذ ابن عمر قبضة من حصى المسجد يقلبها في يده، حتى رجع إليه الرسول، فقال: قالت عائشة: صدق أبو هريرة. فضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض، ثم قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة.(٢٧٣)

إن الغاية من ذكر الثواب في الحديث ليس تحديد كميته بل بيان فضل تشييع الجنازة، والله أعلم، لأن الله تعالى يؤجر عباده على أعمالهم وفقًا للنية والإخلاص في قلوبهم.

يقول رسول الله ﷺ:

«إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».(٢٧٤)

ونستطيع هنا أن نذكر بعضًا من الأدعية في الجنائز:

---

٢٧٢ البخاري، الإيمان، ٣٤/ ٤٧.

٢٧٣ مسلم، الجنائز، ٥٦/ ٩٤٥.

٢٧٤ أبو داود، الجنائز، ٥٤-٥٦/ ٣١٩٩؛ ابن ماجة، الجنائز، ٢٣/ ١٤٩٧.

فعن عوف بن مالك ﷺ قال:

صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه وهو يقول:

«اللهم، اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقِّه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر- أو من عذاب النار».(٢٧٥)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على الجنازة، قال:

«اللهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا. اللهم مَن أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفَّه على الإيمان».(٢٧٦)

«اللهم أنت ربها، وأنت خلقتها، وأنت هديتها للإسلام، وأنت قبضت روحها، وأنت أعلم بسرها وعلانيتها، جئناك شفعاء فاغفر له».(٢٧٧)

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ دخل قبرًا ليلًا، فأُسرِجَ له سراج، فأخذَه من قِبل القِبلة، وقال:

«رحمكَ الله، إن كنت لأوَّاهًا تلَّاءً للقرآن»، وكبَّر عليه أربعًا.(٢٧٨)

ويخبرنا الله ﷻ أن المؤمنين يدعون لمَن سبقوهم بقولهم:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢٧٩)

---

٢٧٥ مسلم، الجنائز، ٨٥/ ٩٦٣.

٢٧٦ الترمذي، الجنائز، ٣٨/ ١٠٢٤؛ ابن ماجة، الجنائز، ٢٣/ ١٤٩٨.

٢٧٧ أبو داود، الجنائز، ٥٦/ ٣٢٠٠.

٢٧٨ الترمذي، الجنائز، ٦٢/ ١٠٥٧.

٢٧٩ الحشر: ١٠.

ومن أعظم الأشياء التي ينتظرها الميت من الأحياء الاستغفارُ. وقد كان النبي ﷺ يوصي الناس بالاستغفار للميت لعلَّ ذلك يسهِّل على الميت سؤال القبر.

وكان رسول الله ﷺ يكثر من زيارة أصحابه وشهداء أحد في مقبرة البقيع. فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت:

«كان رسول الله ﷺ- كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ - يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيسلِّم على أهلها ويدعو لهم»[٢٨٠]

وقد جاءه جبريل عليه السلام ذات ليلة فقال له:

«إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم». فاتجه ﷺ إلى البقيع فورًا.[٢٨١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له**».[٢٨٢]

وقال رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«**إن الرجل لتُرفَع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيُقال: باستغفار ولدك لك**».[٢٨٣]

إن الأولاد يحتاجون إلى الوالدَين وهم يكبرون في الدنيا، لكن الوالدَين يحتاجان إلى أولادهما في أواخر حياتهما، وكذلك يحتاجان إلى دعاء أولادهما وصدقتهم الجارية بعد موتهما.

---

٢٨٠ انظر: مسلم، الجنائز، ١٠٢/ ٩٧٤.

٢٨١ مسلم، الجنائز، ١٠٣/ ٩٧٤.

٢٨٢ مسلم، الوصية، ١٤/ ١٦٣١.

٢٨٣ ابن ماجه، الأدب، ١/ ٣٦٦٠؛ أحمد، مسند، ٢، ٥٠٩.

والولد الصالح- كما ذُكِرَ في الحديث الشريف- وسيلة للرحمة والصدقة الجارية لوالديه، أما الولد العاق الذي لم يخضع لتربية دينية فيكون وبالًا وشرًّا جاريًا لوالديه، فلا يُزَاران في قبرهما على شدة حاجتهما لذلك.

والولد الذي لا يتربى على نهج الكتاب والسنة ويتركه والدَاه على هواه فيقولان مثلًا: «ما زالَ صغيرًا، سيصلح مع مرور الوقت...»، سيلومُ والدَيه يوم القيامة، ويقول: «أهملَني والداي، وما أحسنا تربيتي».

ولا ننسى أن الصغار يأتون إلى الدنيا أطهار أنقياء أهلًا للجنة، لكن إنْ أهمل الوالدان تربية أولادهما الذين يُعَدون أمانة إلهية بين أيديهم تربيةً معنوية، جعلوا طيور الجنة تلك تطير إلى أماكن خاطئة، والعياذ بالله. وسيلقى الوالدان وبالًا عظيمًا في الآخرة إذا لم يُذيقا أولادهما من معين الكتاب والسنة لأنهما حُرِما منها.

إن الناس جميعًا يعيشون في الدنيا مجتمعين، الآباء والأمهات والأولاد والأقارب والأحباب. لكن الآخرة ستكون "يوم فصل". ويخبرنا الله تعالى في كتابه العزيز بذلك، ويقول لأهل الجنة:

﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**﴾[٢٨٤] ويدعو عباده الذين رضي عنهم إلى الجنة حيث يكرِمهم ويُغدق عليهم من نعمه وفضله، لكنه يقول للمجرمين:

﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾[٢٨٥] فتنقطع هنالك العلاقة التي كانت في الدنيا بين أهل الجنة والمجرمين، ويُساق المجرمون إلى جهنم.

وكم من زوجَين سيفترقان هنالك! وكم من أولاد سيسلكون غير سبيل والديهم! وكم من أقرباء وجيران سيمشي بعضهم في طريق ويمشي بعضهم في طريق آخر لأن قبلة قلوبهم في الدنيا لم تكن واحدة! إنه يوم فراق عصيب ما بعده فراق!

---

٢٨٤ يس: ٥٨.

٢٨٥ يس: ٥٩.

فإنْ كنا لا نبتغي الحزن يومئذ، فلا بد لنا أن نستقيم اليوم، وندرك أن أولادنا قرة أعيننا هم أمانة من الله، فنربِّيهم تربية معنوية حسنة من نعومة أظافرهم.

إن أرحم الوالدَين الوالدان اللذان يُعِدَّان أولادهما للمستقبل الحقيقي بتربيتهم على نهج الكتاب والسنة. وأعظم ميراث يمكن أن يتركه المرء لأولاده أن يجعل فيهم شخصية الإسلام.

وليست الرأفة بالصغار والشباب بإشباع بطونهم، وكسوتهم بأجمل الثياب، وإدخال البهجة في نفوسهم، وإراحة أجسامهم، كأن العيش عيش الدنيا فقط. بل الرأفة بهم تكون أولًا بغرس الطمأنينة في قلوبهم وإشباع ظمئهم المعنوي. وبذلك ينجون من العذاب في المستقبل الأبدي، ويتحلون بالقيم المعنوية التي تجعل حياتهم في الآخرة فوزًا عظيمًا.

فالأب والأم المؤمنان بالله والآخرة والرحيمان بأولادهما إذا خُيِّرا بين سعادة أولادهما في الدنيا وبين سعادتهما في الآخرة، لم يترددا لحظةً في ردِّ الدنيا واختيار الآخرة، وما سقطا في حماقة طلب القطرة وترك البحر الواسع.

ولا يستطيعان أن يقولا:

«فليشبع أولادنا في الدنيا، وليأكلا الزقوم في الآخرة».

ولا: «فليضمنوا مستقبلهم في الدنيا، ولتسود وجوههم في الآخرة».

وإنه ليؤسفنا أن نرى الناس اليوم يولون أهمية كبيرة ليكون للأولاد مستقبل مشرق، فيصرفون في سبيل ذلك "الوقت والمال والجهد"، ولا يهتمون بالعلم الديني الذي يكون وسيلة للسعادة في دار القرار. ولا يكترثون بشهادات الآخرة أمام شهادات الدنيا. ويظنون أن إرسالهم الأولاد إلى المساجد لشهر أو شهرين في الصيف يكفيهم ليعرفوا دينهم. فالإنسان عندما يستصغر علم الدين، يكون ذلك علامة على ضعف الإيمان في قلبه.

فعلى الآباء والأمهات لا سيما المتمسكين بدينهم والمتمسكات أن يتمهلوا قليلًا ويفكروا ويتدبروا:

- ✓ مَن الذي يكفل المستقبل؟ هل المستقبل الحقيقي الدنيا أم الآخرة؟
- ✓ هل نرغب أن يكون لأولادنا المقام العالي في الآخرة كما نطلب لهم المقام العالي في الدنيا الفانية بحرصنا على أن ينالوا العلم في أفضل المدارس؟
- ✓ هل يكبر أولادنا كما نريد؟ ماذا يحدِّد شخصياتهم؟ بماذا يقتدون في قلوبهم وفي مبادئهم وفي أهدافهم؟ هل يستعمل أولادنا الإنترنت والحاسوب والهواتف المحمولة أم أن هذه الأجهزة تستعملهم؟
- ✓ لا شك أن الوالدَين يحبان أن يريَا أولادهما وعليهم أجمل الثياب، لكن الوالدَين اللذَين يؤمنان بالآخرة ينشغلان بكيف سيكون حال أولادهما في الآخرة، هل سيلبسون السندس والإستبرق في الجنة، أم ستلفح وجوههم النار في جهنم؟ لذلك يعوِّدان أولادهما منذ نعومة أظافرهم على ارتداء الثياب التي يرضى الله تعالى عنها. فهل نهتم بالأحوال التي سيغدو أولادنا عليها بين يدي الله تعالى في الآخرة كما نهتم بثيابهم لدى خروجهم أمام أفراد المجتمع كي لا يبدوا غرباء عنهم؟
- ✓ إلى ماذا نسعى أكثر؟ إلى جمال أولادنا الظاهر؟ أم جمال أرواحهم بالتربية التي يتلقونها في ظلال الكتاب والسنة؟

  لأن الله تعالى يبيِّن الأساس في تقييم عباده بقوله:

  ﴿...**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(٢٨٦)

  ويقول رسول الله ﷺ:

«**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**». (٢٨٧)

---

٢٨٦ الحجرات: ١٣.

٢٨٧ مسلم، البر، ٣٣/ ٢٥٦٤.

أي إن ما سيفنعنا وينفع أولادنا في رحلتنا إلى دار الخلود ليس قوتنا البدنية ولا جمال ظاهرنا، وإنما الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة...

فعلينا أن نسعى لتعليم أولادنا كما أمرنا الله تعالى في كتابه ما دامت الفرصة اليوم متاحةً لنا، حتى لا نبقى وحيدين في حسرة وندامة شديدة في قبورنا المظلمة، بل تصلنا أدعيتهم واستغفارهم لنا. علينا أن نهتم بتربية أولادنا تربية حسنة، ونزرع حب الله ورسوله والاعتصام بالكتاب والسنة في قلوبهم الطاهرة. وعلينا أن نحثهم بالهدايا والكلام الحسن كي تزدهر القيم المعنوية فيهم، انطلاقًا من حقيقة أن العلم محمود دائمًا.

وقد ذكر الإمام مالك أن أباه كان يُهدِيه هدية عند حفظه حديثًا من أحاديث النبي ﷺ، حتى صار يجد لذة في حفظ الحديث وإنْ لم يُهدِه أبوه.

ولا ننسى أننا نحصد ما نزرع في قلوب أولادنا، أي إننا ننتظر منهم ما وضعنا فيهم...

٥. الصدقة والإنفاق

إن أكثر ما ينفع الميت بعد الدعاء والاستغفار له التصدق والإنفاق باسمه.

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري أن أمه أرادت أن توصي، ثم أخَّرت ذلك إلى أن تصبح. فهلكت، وقد كانت همت بأن تعتق. فقال عبد الرحمن: فقلت للقاسم بن محمد: أينفعها أن أعتق عنها؟ فقال القاسم: إن سعد بن عبادة قال لرسول الله ﷺ: إن أمي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**».[٢٨٨]

توفي عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه في نوم نامه، فأعتقت عنه عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ رقابًا كثيرة.[٢٨٩]

---

٢٨٨ الموطأ، العتق، ١٣؛ انظر: البخاري، الوصايا، ١٥.

٢٨٩ الموطأ، العتق، ١٤.

فنفهم مما ذكرنا أن المُتوفين من المؤمنين يستفيدون من دعاء إخوانهم وأقاربهم وصدقاتهم، وفي ذلك حثٌّ على عمل الخير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر، أفأقضيه عنها؟ فقال: «**لو كان على أمك دين، أكنت قاضيه عنها؟**» قال: نعم، قال: «**فدين الله أحق أن يُقضَى**».(٢٩٠)

فينبغي على المرضى والمسنِّين الذين لا يطيقون صيام الفرض أن يدفعوا الكفارة في حياتهم أو يوصوا بدفعها. فإذا وُجِدَت الوصية وكان ثلث تركة الميت كافيًا، فدفْعُ الورثةِ الفديةَ واجبٌ عليهم. وإذا لم تكن هناك وصية أو لم يكن ثلث التركة كافيًا، فإنه من المستحسَن أن يدفع الورثة الفدية تبرعًا منهم.

وإذا كانت الأعذار الأخرى كالسفر والمرض والحمل والرضاع والمشقة تجيز عدم الصيام، فإنها لا تجيز دفع الفدية، لأنه لا بد من القضاء في هذه الحالة لدى زوال العذر. فإذا ماتَ مَن كان عليه قضاء صيام، فإن دفع الورثة الفدية لدى علماء الإسلام جائز، ومنهم مَن رأى أنه مندوب.

ويرى بعضهم أنه يجوز دفع الفدية عمَّن توفي ولم يكن يصوم عمدًا وكان عليه قضاء، وأن هذه الفدية تُسقِط عنه قضاء الصيام.

وثمة خلاف بين العلماء في هذا الشأن، وقد تركزَ على "الصلاة" و"الصيام" لأنهما عبادتان بدنيَّتان. لكن الجدل أخف في العبادات المالية كالأضحية والنذر والكفاراة والزكاة التي لم يستطع المكلَّف أداءها. لأن إيفاء الدَّين في العبادات المالية يكون من جنس الدَّين وثمة حقوق للعباد فيها. والوكالة في العبادات المالية جائزة.

والأساس في هذه الآراء الأمل والحيطة والتمني أكثر من الأدلة الشرعية.

٢٩٠ مسلم، الصيام، ١٥٥/ ١١٤٨.

٦ . تلاوة القرآن

من أعمال الخير التي تؤدى ويُهدَى ثوابها للميت تلاوةُ القرآن الكريم لا سيما سورة يس كي يستفيد الموتى من الرحمة الإلهية التي تتنزل عند تلاوة القرآن. وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له، واقرؤوها على موتاكم».[٢٩١]

«إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره، وليقرأ عند رأسه بفاتحة الكتاب، وعند رجليه بخاتمة البقرة في قبره».[٢٩٢]

وعن العلاء بن اللجلاج، عن أبيه، قال: قال لي أبي:

«يا بني إذا أنا مت فألحدني، فإذا وضعتني في لحدي فقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله، ثم سِنَّ عليَّ الثرى سنًّا، ثم اقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة وخاتمتها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك».[٢٩٣]

ومما يلفت الانتباه قول عمرو بن العاص رضي الله عنه في آخر حياته موصيًا مَن حوله:

«فإذا دفنتموني فشُنُّوا عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحَر جزور ويُقسَّم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي».[٢٩٤]

ونقل الإمام النووي الذي ذكر هذه الرواية في كتابه عن الشافعي قوله:

«ويُستحَب أن يُقرأ عنده شيء من القرآن، وإن ختموا القرآن عنده كان حسنًا».[٢٩٥]

---

٢٩١ أحمد، مسند، ٥، ٢٦/ ٢٠٣٠٠؛ أبو داود، الجنائز، ٣١٢١؛ النسائي، السنن الكبرى/ ١٠٨٤٧.

٢٩٢ الطبراني، المعجم الكبير، ١٢، ٤٤٠/ ١٣٦١٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٤٤.

٢٩٣ الطبراني، المعجم الكبير، ١٩، ٢٢٠/ ٤٩١.

٢٩٤ مسلم، الإيمان، ١٩٢/ ١٢١.

٢٩٥ النووي، رياض الصالحين، بيروت ١٩٩٨، ص٢٩٥.

ولمَّا توفي سعد بن معاذ ﵁ صلى عليه رسول الله ﷺ وسبَّح وكبَّر.[٢٩٦]

ويقول الإمام الشعبي وهو من أعلام الحديث من التابعين:

«كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرؤون عنده القرآن».[٢٩٧]

«كانت الأنصار يقرؤون عند الميت بسورة البقرة».[٢٩٨]

وكان التابعي جابر بن زيد يقرأ عند الميت سورة الرعد.[٢٩٩]

فنفهم من هذه الروايات أن من وسائل الرحمة للحي والميت زيارةُ القبور، والسلام على أهلها، والدعاء والاستغفار لهم، وعمل الخير بأسمائهم، وتلاوة القرآن.

وتُبيِّن أحاديث النبي ﷺ وكلامُ الصحابة الكرام في زيارة القبور كيف ينبغي لنا أن نتعامل مع هذا الموضوع من غير إفراط أو تفريط.

٧. التعزية

من المسؤوليات الاجتماعية المهمة تعزية مَن مات له قريب أو أصابته مصيبة. يقول رسول الله ﷺ:

«**ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة، إلا كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة**».[٣٠٠]

إن الإنسان الذي خُلِقَ في عجز يحتاج إلى المواساة والدعم حين تحل عليه مصيبة أو يقع في بلاء، لذلك تُعَد التعزية وتشييع الميت من الواجبات الإسلامية والإنسانية المهمة، وإهمال هذا الأمر سبب لوقوع المسلم في وبال.

---

٢٩٦ للاطلاع على كامل الحديث انظر: ص١١٠.

٢٩٧ أبو بكر بن الخلال، القراءة عند القبور، بيروت ١٤٢٤، ص٨٩.

٢٩٨ ابن أبي شيبة، مصنف، ٢، ٤٤٥/ ١٠٨٤٨.

٢٩٩ المصدر السابق، ٢، ٤٤٥/ ١٠٨٥٢.

٣٠٠ ابن ماجه، الجنائز، ٥٦/ ١٦٠١.

ولا ننسى أن زيارة أخينا ومواساته التي قد نستصعبها قد نحتاج إليها في يوم من الأيام حين يحلُّ علينا ما حلَّ عليه. لذلك إنْ كنَّا نريد المواساة في أوقات حاجتنا، فعلينا أن نسعى لنشارك إخواننا في الدين آلامهم ونعمل على تفريج كربهم، لأن أخوة الدين الحقيقية تقتضي مشاركة الأتراح كما تقتضي مشاركة الأفراح.

بعض من الممارسات الخاطئة بعد وفاة الميت

إن الصلاة على الميت وتشييعه ودفنه آخرُ واجبات المؤمنين تجاه أخيهم في الدين، وإحسانٌ لأهله.

ومما يليق بالمسلم أن يكون بجانب أخيه المسلم في أيام الفرح وأيام الحزن على السواء، وليست مصيبة أعظم من مصيبة الموت، ففيها ترِقُّ القلوب وتتألم وتتدبر العقول وتتفكر. والذي يعتبر بموت أخيه المسلم يجد فرصةً لمحاسبة نفسه حتى يراعي أوامر الله تعالى في ما بقي من عمره.

لكننا مع الأسف قد نرى أفعالًا وأمورًا لا تليق بآداب الإسلام وتناقض ما ذكرناه هنا. وسنسرد فيما يلي بعضًا من البدع والأفعال الخاطئة التي تنبع من جهل أو غفلة أو منفعة، أو تكون أثرًا من آثار الأديان الباطلة والثقافات المنحرفة:

- إرسال إكليل من الزهور.
- الوقوف أمام نعش الميت وقفة احترام.
- تشييع الميت بآلات موسيقية.
- وضع الميت في ثلاجة الموتى من غير ضرورة.

لأن الأساس في الإسلام التعجيل في دفن الميت، وقد حذرنا النبي ﷺ كثيرًا في هذا الشأن، إذ يُروى أن طلحة بن البراء رضي الله عنه مَرِضَ فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال:

«إني لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت فآذنوني به وعجلوا فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله».[٣٠١]

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له:

«يا علي، ثلاث لا تؤخرها: الصلاة إذا آنت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت لها كفئًا».[٣٠٢]

- غسل الميت بماء مغلي أو بارد، لأنه لا بد من الرحمة بالميت كالرحمة بالحي، فيُغسَل الميت بماء دافئ.

عن أم قيس بنت محصن رضي الله عنها قالت:

توفي ابني فجزعت عليه، فقلت للذي يغسله: لا تغسل ابني بالماء البارد فتقتله، فانطلق عكاشة بن محصن إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها، فتبسم، ثم قال: «**ما قالت طال عمرها**»، فلا نعلم امرأة عَمِرَت ما عَمِرَت.[٣٠٣]

- حمل الميت ودفنه في مكان آخر، فالميت لا يُنقَل إلى بلدة أخرى إلا إذا لم يكن فيها قبر للمسلمين. وهذا أمر مهم، فلا بد من الحرص على دفن الميت مع الصالحين مثلما نحرص على صحبة الصالحين في الحياة.

- من غايات الجنازة تذكير الأحياء بالموت والتفكر بالآخرة والاعتبار. ولم يستحسن بعض العلماء تلاوة القرآن والتكبير والذكر أثناء تشيع الميت خشيةً من الإخلال بهذه الغاية. لذلك من الخطأ القيام بمراسم تكون سببًا للمفاخرة والإسراف في الجنازة التي ينبغي أن يسود فيها التواضع والبساطة والإخلاص.

---

٣٠١ الترمذي، الجنائز، ٣٨/ ٣١٥٩.

٣٠٢ الترمذي، الصلاة، ١٣/ ١٧١.

٣٠٣ النسائي، الجنائز، ٢٩/ ١٨٨٢.

كان أسيد بن حضير ﵁ من أفاضل الناس، وكان يقول: لو أني أكون كما أكون محل حال من أحوال ثلاث، لكنت من أهل الجنة، وما شككت في ذلك، حين أقرأ القرآن وحين أسمعه يُقرَأ، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدت جنازة، وما شهدت جنازة قط فحدثت نفسي بسوى ما هو مفعول بها وما هي صائرة إليه.[٣٠٤]

- مخالطة النساء الرجال في صلاة الجنازة، وذهابهن إلى القبر من غير ضرورة.

فصلاة الجنازة وتشييع الميت إلى القبر من الأمور التي فيها فضل عظيم للرجال لا للنساء، فهي لهن "مكروهة تنزيهًا"[٣٠٥] لأن احتمال إظهارهن أفعالًا لا توافق حال الحزن والألم احتمالٌ كبيرٌ لرقة قلوبهن والرحمة والرأفة في فطرتهن.

عن أم عطية ﵂، قالت:

«نُهينَا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا»[٣٠٦]، أي لم يوجب ولم يشدد علينا في المنع.

ومن المكروه أن تصلي النساء صلاة الجنازة وإنْ لم يخالطن الرجال. ولا ننسى أنه ثمة شروط لصلاة النساء في جماعة. والشرط الأهم في هذا الموضوع الحذرُ من اختلاط الرجال بالنساء. وفي هذا الشأن قال رسول الله ﷺ عن باب من أبواب مسجده:

«**لو تركنا هذا الباب للنساء**»، فما دخل منه الصحابة الكرام بعد ذلك.[٣٠٧]

---

٣٠٤ أحمد، مسند، ٤، ٣٥١؛ الحاكم، ٣، ٣٢٦/ ٥٢٦٠.

٣٠٥ المكروه: ما يطلب في الشرع تركه من غير إلزام. والمكروه تنزيهًا مكروه أقرب إلى الحلال.

٣٠٦ البخاري، الجنائز ٢٩، الاعتصام ٢٧؛ مسلم، الجنائز، ٣٤-٣٥.

٣٠٧ أبو داود، الصلاة، ٥٣/ ٥٧١.

أما في الحرمَين الشريفَين "المسجد الحرام والمسجد النبوي" فيمكن للحجاج والمعتمرين أن يصلوا في جماعة حتى صلاة الجنازة، وذلك لفضيلة المكانَين، إلا أنه لا بد من مراعاة عدم التزين والتعطر والحذر من الاختلاط وأسباب الفتن.

- الصياح والنياح على الميت.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال:

«**اتقي الله واصبري**» قالت: إليك عني، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوَّابِين، فقالت: لم أعرفك، فقال:

«**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**».[٣٠٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«**لا تُتبَع الجنازة بصوت ولا نار**».[٣٠٩]

- المبالغة في المأتم والحداد لأسابيع وشهور، وكره الحياة.
- اغتياب الميت، وذكر عيوبه، ونسيانه.
- الصلاة بجهة القبر أو بناء مسجد عليه.
- بناء قبر للمفاخرة وكتابة عبارات مديح فيها مبالغة على شواهد القبور، وتزكية الميت كأن دخوله الجنة أمر قطعي، وإنْ كان معروفًا بفضله. والحديث التالي يبيِّن هذه الحقيقة على أفضل وجه:

لمَّا توفي عثمان بن مظهور في بيت أخيه الأنصاري في المدينة، فقالت أم العلاء ربة البيت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريكِ؟**» قلت: لا أدري والله، قال:

---

٣٠٨ البخاري، الجنائز، ٣١/ ١٢٨٣؛ مسلم، الجنائز، ١٥/ ٩٢٦.

٣٠٩ أبو داود، الجنائز، ٤٦/ ٣١٧١.

«أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري- وأنا رسول الله- ما يفعل بي ولا بكم» قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي أحدًا بعده.[٣١٠]

ومما يقض مضاجع الصالحين ثناء الناس عليهم ثناءً يُحاسبهم الله تعالى عليه، لذلك أوصى الشيخ خالد البغدادي رحمه الله الملقَّب بـ"شمس الشموس" في العلم والعرفان بعدم كتابة عبارات المديح والثناء على قبره.

- دفع المال لتلاوة القرآن أو قراءة ختمة على الميت أثناء الدفن أو بعده، وإقامة حفل أناشيد دينية مقابل أجرة بعد مرور أيام معينة على وفاة الميت، وإكرام الحاضرين بالطعام. إن تلاوة القرآن في الجنازة تُرجَى أن تكون وسيلة لنيل القارئ ثوابًا والميت نفعًا. غير أن تلاوة القرآن إنْ كانت لمال أو هدية لا لرضا الله تعالى، فإن تلاوته تكون سببًا لضياع فضيلة هذا العمل وأجره.
- عداوة الأقارب من أجل الميراث وإرضاءً لرغبات النفس. فعلى المؤمنين تقسيم الميراث كما أمر الله تعالى، وتجنب ما قد يفسد أواصر القرابة.

إننا نرى اليوم مع الأسف كثيرًا ممن ضعف إسلامهم وإيمانهم يرفضون قسمة الله تعالى فيشعلون نار الغضب والكراهية بين الأقارب، مع أن الله تعالى قد هدَّد مَن لا يتبع أوامره في هذا الشأن بالعذاب الشديد. وقد ذكر القرآن الكريم كثيرًا من الموضوعات دون تفصيل فيها، غير أنه ذكر كيف يُقسَّم الميراث بتفصيل وعبارات واضحة لا تدع مجالًا للتأويل، ثم قال:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٣١١]

٣١٠ البخاري، التعبير، ٢٧/ ٧٠١٨.

٣١١ النساء: ١٣- ١٤.

- لا يوجد دليل من الكتاب أو السنة على ختم ختمة بعد وفاة الميت بسبعة أيام أو أربعين أو اثنين وخمسين. وقد تكون مثل هذه الأفعال من الأمور المحدثة كي لا يُنسى الموت، غير أن نسيان الميِّت دليل على عدم تركه ذكريات جميلة في قلوب الأحياء.

إن الاستغفار للميت والصدقة باسمه وقراءة القرآن الكريم أمر واجب في كل حين، وحصر هذه الأمور في أيام معينة يكون سببًا لنسيان الميت في سائر الأيام، وقد يظن الجاهل أن هذه الأمور المحصورة في أيام معينة من أوامر الدين.

وما أجمل قول الشاعر:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيًا والناس حولك يضحكون سرورًا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

إن العباد الصالحين الذين عاشوا حياتهم في سبيل الله تاركين وراءهم ذرية صالحة وجيلًا حسنًا وذكريات جميلة وآثارًا نافعة ستبقى أسماؤهم حية في قلوب الناس وإنْ كانت أبدانهم تحت التراب. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لا تبحثوا عن قبرنا في الأرض بعد الموت، فقبرنا في قلوب العارفين».

فطوبى للصالحين الذين يتركون ذكرى طيبة وأثرًا لا يُمحَى في قلوب العباد.

بعض من الممارسات الخاطئة أثناء زيارة القبر

- ربط خرقة بشيء قرب القبر، أو وضع حجر أو نقود، أو رش ملح، أو ذبح ذبيحة، أو إشعال شمعة، أو طلب شيء من الميت.

- إن خرافة ربط خرقة على القبر من الشامانية التي تعتقد أن لكل جبل ونبع وبحيرة ونهر وشجرة وصخر صاحبًا، وأن أصحاب هذه الأشياء تطلب القرابين من الناس، فمَن لا يأتِ بقربان، أصابه ضرر، غير أن هذه الأرواح قنوعة ترضى حتى بقطعة قماش، أو شعر فرس، أو بحجرة تُرمَى بِنيَّة القربان.

فربط الخرق على القبور ورمي الأشياء من هذه العقائد الباطلة، ويؤسفنا أن نرى آثار هذه العقائد الباطلة منتشرة إلى يومنا هذا بين الجهَّال.

فلا بد من الحذر من هذه الخرافات التي تتعلق بموضوع العقيدة، وإلا فإن المرء ينال عقابًا شديدًا عليها في الآخرة، لأن عقيدة التوحيد لا تقبل الشرك بأي شكل من الأشكال.

وحسبنا في بيان هذه المسألة أن نذكر الحادثة التالية المعبِّرة التي رواها سلمان الفارسي رضي الله عنه:

فعن سلمان رضي الله عنه قال:

«دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل آخر النار في ذباب»،

قالوا: وكيف ذاك؟ قال:

«مر رجلان ممن كان قبلكم على ناس معهم صنم لا يمر بهم أحد إلا قرَّبَ لصنمهم، فقالوا لأحدهم: قرِّبْ شيئًا، قال: ما معي شيء، قالوا: قرِّبْ ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا ومضى فدخل النار، وقالوا للآخر: قرِّبْ شيئًا، قال: ما كنت لأقرب لأحد دون الله فقتلوه فدخل الجنة».[٣١٢]

- حرق الشموع على القبر، وهو من عادة عُبَّاد النار.
- الطواف حول قبور الصالحين.
- رسم أمور دنيوية مبتغاة من بيت وسيارة وولد على أبواب الأضرحة.
- أخذ تراب من القبر بقصد الشفاء، أو إلقاء نقود أو إلصاقها.
- تقبيل القبر والمسح عليه والاعتقاد بذلك أن أي مشكلة ستُحل أو سيتحقق المطلوب.

٣١٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٢٠٣.

ينبغي ألا ننسى أن الإنسان مخلوق عاجز، وكل إنسان وكل شيء محتاج إلى الله تعالى. ولا بأس في الطلب من الله تعالى بالتوسل بصاحب القبر بالاعتقاد أنه مسلم صالح من أهل الله تعالى، أي يجوز الالتجاء إلى الله تعالى بالتوسل بالصالحين، لكن لا يُطلَب شيء من الميت قطعًا.

فعن أنس بن مالك، أن عمر بن الخطاب ﵁، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال:

«اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»، قال: فيُسقَون.[٣١٣]

والحق أنه لا أحد يجيب الداعي ويقبل الدعوات إلا الله تعالى، فهو الصاحب الحقيقي لكل شيء، فلا بأس في السعي لقبول الدعاء بالتوسل بمَن يحبهم.

غير أن طلب بعضهم العون مباشرة من الصالحين في غيابهم أو لدى زيارة قبورهم كقولهم: «يا فلان، اشفني، أو اقضِ حاجتي»، إنما هو فعل خاطئ يفتح بابًا للشرك، والعياذ بالله.

فلا بد من الحذر من مثل هذه الأمور وأمثالها الصادرة عن جهل والتي قد تفسد جوهر عقيدة التوحيد، وإنْ كان من الممكن الإتيان بتأويلات وتفسيرات لها. ولا بد من النأي عنها لأنها تعطي انطباعًا بوجود مخلوق يستطيع التصرف في الكون ودفع المشكلات.

ومن مسؤوليات المؤمن أن يحذر مَن يأتون مثل هذه الأفعال المؤدية إلى الشرك بغفلة أو جهالة، إلا أن الذين يبالغون في هذا الشأن فيرون زيارة القبور التي تكون بمراعاة آداب الإسلام "شركًا" باسم محاربة البدع أو الغلو هم أيضًا يقترفون خطأً مشابهًا.

٣١٣ البخاري، الاستسقاء، ٣/ ١٠١٠.

فالإسلام قد جعل الاعتدال في زيارة القبور أيضًا أساسًا له، وخير مثال لنا أقوال النبي ﷺ وصحابته وأفعالهم في معرفة حقيقة هذا الموضوع من غير إفراط أو تفريط، فهم بلا شك أفضل منا في فهم ما هو "شرك" وما هو "توحيد".

والحادثة التالية ردٌّ على كل مَن يغلو في موضوع زيارة القبور ويرى فيها "شركًا":

أقبل مروان بن الحكم يومًا فوجد رجلًا واضًعا وجهه على القبر، فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب، فقال: نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آت الحجر. سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا تبكوا على الدِّين إذا وَلِيَهُ أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وَلِيَهُ غير أهله».[٣١٤]

فلا أساس لمَن يعد التوسل بمراعاة آداب زيارة القبور شركًا. فالشرك أن يرى المرء المُتوَسَّل به في مقام الضار أو النافع، فعلى المتوسِّل أن يعلم أن المُتوَسَّل به سيكون وسيلة لجلب خير أو دفع شر بإذن الله تعالى وحده.

وخلاصة الكلام أنه علينا أن نراعي أسس الإسلام مراعاة دقيقة في زيارة القبور، ونحذر من أن نكون وسيلة لنشر ما قد يفسد الإيمان، ونشرح بوصفنا مؤمنين لأهلنا ومَن حولنا ما يقول به الإسلام في كل شأن، ونسعى لنعيش حياة توافق سنَّة النبي ﷺ.



٣١٤ أحمد، مسند، ٥، ٤٢٢/ ٢٣٥٨٥؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ٥٦٠/ ٨٥٧١؛ الهيثمي، ٥، ٢٤٥/ ٩٢٥٢.



الفصل الثاني



القيامة

حين يضرب زلزال منطقة، أو تنفجر قنبلة، نقول: "كأن القيامة قامت". لكن القيامة أمر مهيب لا يسعه إدراك البشر، ففيها تنكدر النجوم، وتُطوَى السماء، وتُدَكُّ الجبال... القيامة يوم يجعل الولدان شيبًا، وفيه تضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ويبشِّر الله تعالى عباده الذين جعلهم في حمايته فأمنوا من الخوف والحزن في ذلك اليوم العصيب، فيقول:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(يونس، ٦٢- ٦٣)

القيامة

لقد جعل الله تعالى المخلوقات كلها محكومة بالفناء، وجعل للدنيا «قيامةً» مثلما جعل للإنسان «أجلًا». وجعل أجل الإنسان غيبًا وكذلك يوم القيامة، إذ قال سبحانه وتعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣١٥]

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٣١٦]

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣١٧]

علامات الساعة

لقد ذكرَ رسول الله ﷺ أنه ليس لديه أي علم عن موعد القيامة بصورة واضحة، إذ قال لمَن سأله عنها: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**».[٣١٨] غير أنه ذكر لأمته علامات الساعة حتى يعتبروا ويحذروا.

---

٣١٥ الأعراف: ١٨٧.

٣١٦ الأحزاب: ٦٣.

٣١٧ الزخرف: ٨٥.

٣١٨ مسلم، الإيمان: ٥/ ٩.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[٣١٩]

وعلامات الساعة على نوعَين: منها علامات ظاهرة كظهور الدجَّال وشروق الشمس من المغرب، ومنها معنوية كضعف التمسك بالدين.

وقد جعل بعض من العلماء علامات الساعة على ثلاثة أقسام:

١. علامات تحققت وانقضت، وتُسمَّى «العلامات الصغرى» أو «الأمارات البعيدة»، مثل بعثة النبي محمد ﷺ، ومعركتَي الجمل وصفين، وحكم الأمويين.

٢. علامات ظهرت لكنها لم تنقضِ، بل ما زالت قائمة، وتُسمَّى «العلامات الوسطى».

٣. «العلامات الكبرى» وبظهورها تقوم الساعة، وهذه العلامات كحبَّات السُّبحة تتالى في السقوط حين ينقطع حبلها.

وسنذكر فيما يلي «العلامات الصغرى والوسطى»، ثم نذكر «العلامات الكبرى».

أ) العلامات الصغرى والوسطى

ثمة علامات كثيرة تُنبِئ بالقيامة قبل وقت من ظهورها، وهذه العلامات تحذِّر المؤمن دائمًا وتذكِّره بضرورة استعداده للآخرة، منها:

١. بعثة النبي محمد ﷺ

إن نبينا محمد ﷺ خاتَمُ الأنبياءِ والمرسَلين، والورقةُ الأخيرةُ في تقويم النبوة. هو النبي الأخير الذي بُعِثَ للناس جميعًا من بعثته حتى قيام الساعة ولا نبي بعده، لذلك تُعَد بعثته علامة من علامات الساعة.

---

٣١٩ محمد: ١٨.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: «**صبَّحكُم ومسَّاكم**»، ويقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، ويقرن بين إصبعَيه السبابة والوسطى.[٣٢٠]

٢. زيادة الجهل في علوم الدين

يقول رسول الله ﷺ:

«**تعلموا القرآن وعلِّموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلِّموها الناس، أوشَكَ أن يأتي على الناس زمان يختصم الرجلان في الفريضة فلا يجدان من يقضي بينهما**».[٣٢١]

يُعَد تعلم علوم الدين وتطبيقها فرضًا على المسلمين. فمن علامات الساعة كف المسلمين عن الانشغال بعلوم الدين لضعف في إيمانهم، وعدم الصدق والإخلاص في تطبيق دينهم نتيجة ذلك.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يدرُس الإسلام**[٣٢٢] **كما يدرُس وشي الثوب،**[٣٢٣] **حتى لا يُدرَى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، ولَيُسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة، لا إله إلا الله، فنحن نقولها**»[٣٢٤]

٣٢٠ مسلم، الجمعة، ٤٣/ ٨٦٧. انظر أيضًا: ابن ماجه، مقدمة، ٧.

٣٢١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٤، ٢٢٣/ ٧١٣٣.

٣٢٢ من درس الرسم دروس إذا عفا وهلك.

٣٢٣ نقشه.

٣٢٤ وهذا تمامًا ما عاشه المسلمون في أواسط آسيا لا سيما في الصين وروسيا تحت شدة وطأة الشيوعية.

فقال له صلة: ما تغني عنهم: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال:

«**يا صلة، تنجيهم من النار**» ثلاثًا.[٣٢٥]

وقال رسول الله ﷺ:

«**إن من أشراط الساعة أن يُرفَع العلم ويثبت الجهل، ويُشرَب الخمر، ويظهر الزنا**».[٣٢٦]

ومما لا يخفى على أحد اليوم الجهل العام بعلوم الدين، وانتشارُ الخمر والزنا حقيقةٌ لا يستطيع أحد إنكارها. وليس ثمة فرق بين حال الذين يرون عدَّ الزنا ذنبًا تخلفًا ورجعيةً، ويُطلقون العنان لأهواء أنفسهم، و«**يتهارجون**[٣٢٧] **تهارجَ الحُمر**»[٣٢٨] كما قال النبي ﷺ، وحال شرار الناس الذين عليهم تقوم الساعة.

فذهاب العلم يعني ذهاب "الدين"، وانتشار الخمر يعني ذهاب "العقل"، وتفشي الزنا يعني فساد "النسل"، وكثرة الفتن تعني الضرر بـ"النفس" و"المال". مع أن أعظم واجبات المسلمين الحفاظ على هذه الأمور الخمس، ففساد هذه "الضرورات الخمس" علامة من العلامات الكبرى على خراب الأرض، وقد ذكر الله تعالى أن الإنسان لن يُترَك سدى.[٣٢٩] فالذين يضيِّعون هذه الأمانات سيهلكون لا محالة لأنه لا نبي بعد النبي محمد ﷺ.

---

٣٢٥ ابن ماجه، الفتن، ٢٦/ ٤٠٤٩.

٣٢٦ البخاري، العلم، ٢١/ ٨٠؛ مسلم، العلم، ٨/ ٢٦٧١.

٣٢٧ يجامع الرجال النساء علانية.

٣٢٨ مسلم، الفتن، ١١٠/ ٢٩٣٧. انظر أيضًا: الترمذي، الفتن، ٥٩؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣.

٣٢٩ انظر: القيامة، ٣٦.

٣. كثرة الفتن وحوادث القتل

بدأ ظهور الفتن في العالَم الإسلامي في خلافة سيدنا عثمان ﷺ، وتبدو الفتن بمظاهر مختلفة في كل عصر، فلا يعني هذا أن الفتن تظهر معًا في وقت واحد، بل ستبقى قائمة في أزمنة مختلفة وأشكال متنوعة حتى قيام الساعة.

عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال:

«سيأتي على أمتي زمان تكثر فيه القراء، وتقل الفقهاء ويقبض العلم، ويكثر الهرج»

قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال:

«القتل بينكم. ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم، ثم يأتي من بعد ذلك زمان يجادل المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما يقول».[٣٣٠]

وخير دليل على قول النبي ﷺ كثرة دعاة الدين الذين يحاولون تفسير الكتاب والسنة بعقولهم الناقصة على أهوائهم ويدَّعون إصلاح الدين وهم بعيدون أشد البعد عن التقوى، وانتشار المُكفِّرين الذين يظنون أنهم يعملون لصالح الإسلام والمسلمين، وظهور المتزمِّتين الجهلة الذين يسيئون للدين.

فعلينا أن نكون حذرين من هذه المخاطر، ولا ندع مجالًا لتجَّار الدين ومحرِّفيه.

ويُعَدُّ تحذير النبي ﷺ لعبد الله بن عمر ﷺ في هذا الشأن مقياسَ الاستقامة لنا:

«يا ابن عمر دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا».[٣٣١]

---

٣٣٠ الحاكم، المستدرك، ٤، ٥٠٤/ ٨٤١٢. قارن: البخاري، العلم، ٢٤.

٣٣١ الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ص١٢١.

ومن الطبيعي أن تزداد الفتن ويحل الاضطراب في المجتمع حين تضعف علوم الدين. وعندما تكون الأنانية الصفة السائدة بين الناس وتراهم لا يسعون إلا لمنافعهم، فإن ذلك يمهِّد الطريق إلى عزوفهم عن عمل الخير وزيادة ميلهم إلى الشر، وهذا ما يجعل المجتمع خزَّانًا للفتن فلا يجد فيه أحد أمنًا ولا أمانًا ولا طمأنينة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتَل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتِلَ».[٣٣٢]

فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: **«الهرج، القاتل والمقتول في النار»**.[٣٣٣]

وهذا ما نراه اليوم حقيقةً واضحة في كل مكان تعم فيه الفوضى ويحل الإرهاب، فالجماعات الإرهابية التي تسيِّرها في كثير من الأحيان قوى من وراء الستار تسفك الدماء وتهتك الأعراض وهي تجهل مَن تخدم، فلا يعلم القاتل لِمَ قَتل ولا المقتول لِمَ قُتِل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء».[٣٣٤]

فنفهم من هذا الحديث أن الحياة في المرحلة التي تسبق قيام الساعة ستكون عذابًا للناس، فلا يطيق الإنسان نفسه فيندم على حياته في الدنيا، ولا يمسي لروحه أي ثمن، فينفر حتى مَن ليس في قلبه إيمان من الدنيا ويطلب الموت.

---

٣٣٢ مسلم، الفتن، ٥٥/ ٢٩٠٨.

٣٣٣ مسلم، الفتن، ٥٦/ ٢٩٠٨.

٣٣٤ مسلم، الفتن، ٥٤/ ١٥٧.

فمن العسير الميل إلى الخير وإتيان الأعمال الصالحة في مثل هذا الجو، لذلك لا بد من إدراك قيمة أوقات الراحة والطمأنينة قبل مجيء أيام العسر، والعمل على جعلها بضاعةً للفلاح الأبدي.

قال رسول الله ﷺ:

«بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا».[٣٣٥]

وقال ﷺ في رواية أخرى:

«المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر».[٣٣٦]

فالذين يتبعون أهواءهم في ذلك الوقت لا يعبؤوا بما جاء في الكتاب والسنة، بل يُعمِلون عقولهم المتحجرة، ويجعلون مكاسبهم الدنيوية أمام أعينهم دائمًا حين يذكرون آيات الله تعالى وأحاديث النبي ﷺ.

يقول رسول الله ﷺ:

«يذهب الصالحون الأول فالأول، ويبقى حُفالةً كحفالة الشعير، أو التمر، لا يباليهم الله بالة».[٣٣٧]

٤ . يتكلم في الناس مَن ليس بأهل للكلام

بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال:

---

٣٣٥ مسلم، الإيمان، ١٨٦/ ١١٨. انظر أيضًا: الترمذي، الفتن ٣٠، الزهد ٣؛ ابن ماجه، الإقامة، ٧٨؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٠٣، ٣٧٢، ٥٢٣.

٣٣٦ أحمد، مسند، ٢، ٣٩٠/ ٩٠٧٣؛ انظر أيضًا: مسلم، الإيمان، ١٨٦؛ الترمذي، الفتن، ٣٠/ ٢١٩٦.

٣٣٧ البخاري، الرقاق، ٩/ ٦٤٣٤. انظر أيضًا: الدارمي، الرقاق، ١١.

«أين- أراه- السائل عن الساعة»

قال: ها أنا يا رسول الله، قال:

«فإذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة»،

قال: كيف إضاعتها؟ قال:

«إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».[٣٣٨]

إن توسيد الأمر لغير أهله يعني أن لا نعبأ بالعلم والتجربة والخبرة، ومثل هؤلاء الذين هم ليسوا بأهل للأمانة يفسدون كل شيء لأنهم لا يؤدون واجبهم كما ينبغي بل يسعون لمنافعهم الشخصية ويظلمون الناس.

٥. تقارب الزمان

قال رسول الله ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضرمة بالنار».[٣٣٩]

لن يعلم الناس في آخر الزمان كيف يمر الوقت وكيف يستفيدون منه لأن المال سيزداد وسينشغلون به أكثر ويغرقون في اللهو والمتع، أو لأنهم سيقلقون ويضطربون من كثرة الفتن. ويشير هذا الحديث الشريف إلى أن الأعمار ستقصر وستزول البركة من الأوقات.

وقد ذكرَ المحدِّث الخطابي أن قصر الزمان سيكون في زمن المهدي أو بعد نزول سيدنا عيسى عليه السلام. أما العالم المشهور علي القاري فقد ذكر أن ذلك سيكون في زمنَيهما، لأن قصر الزمان سيكون في وقت الدجال، والدجال سيخرج بين زمنَيهما.

---

٣٣٨ البخاري، العلم ٢/ ٥٩، الرقاق ٣٥؛ انظر أيضًا: أحمد، مسند، ٢، ٣٦١.

٣٣٩ الترمذي، الزهد، ٢٤/ ٢٣٣٢.

٦. كثرة مال الدنيا

قال رسول الله ﷺ: «**فأبشروا وأمِّلُوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم**».[٣٤٠]

«**إني مما أخاف عليكم من بعدي، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**».[٣٤١]

«**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**».[٣٤٢]

إن المال الذي يزداد يومًا بعد يوم سيزداد زيادة كبيرة في آخر الزمان حتى إنه سيُقنع الحريص الطمَّاع. وقد قال رسول الله ﷺ في هذا الشأن:

«**من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيًا، لا يعده عددًا**».[٣٤٣]

فأخبرنا عليه الصلاة والسلام بوقوع ذلك، وإننا بلا شك نرى بوادر ذلك في أيامنا.

٧. قلة السلام

قال رسول الله ﷺ:

«**إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق وظهور القلم**».[٣٤٤]

«**إن من أشراط الساعة أن يسلِّم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلا للمعرفة**».[٣٤٥]

---

٣٤٠ البخاري، الرقاق، ٧/ ٦٤٢٥؛ مسلم، الزهد، ٦/ ٢٩٦١.

٣٤١ البخاري، الزكاة ٤٧/ ١٤٦٥؛ مسلم، الزكاة، ١٢١-١٢٣/ ١٠٥٢.

٣٤٢ مسلم، الذكر، ٩٩/ ٢٧٤٢.

٣٤٣ مسلم، الفتن، ٦٨، ٦٩/ ٢٩١٤. انظر أيضًا: أحمد، مسند، ٣، ٣١٧.

٣٤٤ أحمد، مسند، ١، ٤٠٧/ ٣٨٧٠؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ١١٠/ ٧٠٤٣.

٣٤٥ أحمد، مسند، ١، ٤٠٥/ ٣٨٤٨؛ قارن: عبد الرزاق، مصنف، ٣، ١٥٤.

٨. من علامات الساعة الأخرى التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل... وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه عليه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به...».[٣٤٦]

وقد عاش الناس في خلافة عمر بن عبد العزيز زمنًا لم يجدوا فيه مَن يحتاج إلى زكاة، وسيعيشونه مرة أخرى في المستقبل. وإننا نرى اليوم بعضًا من المناطق لا يجد المزكِّي فيها مَن يستحق الزكاة لكثرة الغنى. ولكن يجب أن يحذر المرء من غفلة الظن أنه لم يبقَ فقير في المجتمع بالنظر إلى المحيط الذي يعيش فيه، فذلك نوع من أنواع إهمال المحتاجين. فلا بد للمؤمنين الأغنياء أن يبحثوا عن المحتاجين ويؤدوا فريضة الزكاة على أفضل صورة.

وقال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم، وتجتلدوا بأسيافكم، ويرث دنياكم شراركم».[٣٤٧]

«لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيُقتَل من كل مئة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو».[٣٤٨]

«يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا».[٣٤٩]

---

٣٤٦ البخاري، الفتن، ٢٣/ ٧١٢١.

٣٤٧ الترمذي، الفتن، ٩/ ٢١٧٠.

٣٤٨ مسلم، الفتن، ٢٩/ ٢٨٩٤. انظر أيضًا: ابن ماجه، الفتن، ٢٥.

٣٤٩ البخاري، الفتن، ٢٣/ ٧١١٩؛ مسلم، الفتن، ٢٩-٣٢. انظر أيضًا: أبو داود، الملاحم، ١٣.

فيخبرنا النبي ﷺ أن نهر الفرات سيجف ويظهر جبل من ذهب أو منجم ذهب كبير. وقد يكون استعمال كلمة "جبل" في الحديث دلالةً على عِظم حجم الذهب الذي سينكشف. وقد يكون ذلك في وقت قريب من قيام الساعة، أو يكون معناه مجازيًّا.

وقال رسول الله ﷺ:

«من أشراط الساعة: أن... تكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد».[٣٥٠]

وذلك لكثرة الفتن والحروب التي يذهب فيها الكثير من الرجال.

ولما سُئِل النبي ﷺ عن أمارات الساعة في الحديث المشهور بـ"حديث جبريل" قال:

«أن تلد الأَمَة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».[٣٥١]

ويمكن أن نوضِّح قول: «أن تلد الأَمَة ربتها» بالشكل الآتي:

١. ولادة الأمهات أولادًا عاقين يعاملونهن معاملة الجواري، واستغلال الأولاد لآبائهم وأمهاتهم.

٢. كثرة العبيد والجواري، فيصبح الولد الذي ولدته الجارية في مقام أبيه ويكون صاحب الجارية أي أمَّه.

٣. بيع الأمهات من الجواري وانتقالهن من سيد إلى آخر حتى يصلن إلى أيدي أولادهن.

وهذا كله يبيِّن لنا شدة الفساد الذي سيظهر بين الناس.

---

٣٥٠ البخاري، العلم، ٢١/ ٨١، النكاح/ ٥٢٣١، الأشربة/ ٥٥٧٧؛ مسلم، الفتن، ٩/ ٢٦٧١.

٣٥١ مسلم، الإيمان، ١، ٥/ ٨. انظر أيضًا: البخاري، الإيمان، ٣٧؛ الترمذي، الإيمان، ٤؛ أبو داود، السنة، ١٦؛ النسائي، المواقيت، ٦؛ ابن ماجه، مقدمة، ٩.

وقال رسول الله ﷺ:

«**لا تقوم الساعة ... حتى يتطاول الناس في البنيان**».[٣٥٢]

فأكد رسول الله ﷺ على كثرة "الزنا" و"البنيان" خصوصًا. وعندما ننظر اليوم إلى الواقع الذي نعيش فيه، نرى مع الأسف كثرة الرذيلة وزيادة الأبنية العالية.

إن الزنا والرذيلة كالسم يُنشَر في المجتمع لإزالة الأمن والطمأنينة عنها، أما الأبنية العالية فلا تذكِّر المرء إلا بحجارة القبور للمدن التي فقدت روحانياتها.

٩. يأتي على الناس زمان...

أخبر رسول الله ﷺ ببعض من الفتن التي ستظهر في آخر الزمان حتى تكون أمته واعية في هذا الشأن.

ومن الأحاديث الشريفة التي تبيِّن بعضًا من هذه الفتن التي تعد من علامات قيام الساعة:

«**ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله أصابه من بخاره**[٣٥٣]».[٣٥٤]

«**يأتي على الناس زمان، لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام**».[٣٥٥]

«**ليأتين على الناس زمان يُكذَّب فيه الصادق، ويُصدَّق فيه الكاذب، ويُخوَّن فيه الأمين، ويُؤتمَن الخؤون، ويشهد المرء ولم يستشهد، ويحلف**

---

٣٥٢ البخاري، الفتن، ٢٣/ ٧١٢١.

٣٥٣ قال ابن عيسى: "أصابه من غباره".

٣٥٤ أبو داود، البيوع، ٣/ ٣٣٣١. انظر أيضًا: النسائي، البيوع، ٢/ ٤٤٥٢؛ ابن ماجه، التجارة، ٥٨.

٣٥٥ البخاري، البيوع، ٧، ٢٣/ ٢٠٥٩.

وإن لم يستحلف، ويكون أسعد الناس بالدنيا لُكع[٣٥٦] بن لُكع، لا يؤمن بالله ورسوله».[٣٥٧]

«يأتي على الناس زمان لا يأمرون فيه بمعروف، ولا ينهون عن منكر».[٣٥٨]

وعن ثوبان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»،

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال:

«بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»

قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال:

«حب الدنيا، وكراهية الموت».[٣٥٩]

فنفهم من هذا الحديث أن أعداء الإسلام سيدعو بعضهم بعضًا للتعاون والاتحاد من أجل كسر شوكة المسلمين وتفريقهم والقضاء عليهم، وسيكون ذلك بسهولة وراحة كراحة صاحب الطعام حين يدعو ضيفه. وكما أن الجلوس على المائدة للطعام أمر سهل يسير، فكذلك سيكون اتفاق الكافرين على الإسلام وقتل المسلمين وسلب أراضيهم واستغلال ثرواتهم.

أما السبب الذي سيدفعهم للتجرؤ على ذلك فليس قلة عدد المسلمين بل ضعف إيمانهم وحبهم الدنيا، لأن الذي يخشى الموت ويحرص على الدنيا لا

---

٣٥٦ اللُّكع: اللئيم أو الأحمق.

٣٥٧ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٣، ٣١٤/ ٧١١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧، ٢٨٣-٢٨٤.

٣٥٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٧، ٢٨٠/ ١٢٢٠٧.

٣٥٩ أبو داود، الملاحم، ٥/ ٤٢٩٧؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٧٨.

يضحِّي ولا يواجه المشقات ويهمل الجهاد بنفسه وماله. وعندما تكون حال المسلمين هكذا، فلن يكون في قلوب أعدائهم المهابة ولا الخشية منهم.

عن الزبير بن عدي قال:

أتينا أنس بن مالك ﵁، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال:

«اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ.(٣٦٠)

وعن عبد الله بن عمر ﵄ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال:

«يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم».(٣٦١)

وقال رسول الله ﷺ:

«لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».(٣٦٢)

«إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».(٣٦٣)

---

٣٦٠ البخاري، الفتن، ٦/ ٧٠٦٨؛ الترمذي، الفتن، ٣٥/ ٢٢٠٦.

٣٦١ ابن ماجه، الفتن، ٢٢/ ٤٠١٩؛ الحاكم، ٤، ٣٨٥/ ٨٦٢٣.

٣٦٢ البخاري، المغازي، ٨٢/ ٤٤٢٥.

٣٦٣ الترمذي، الفتن، ٧٨/ ٢٢٦٦.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء»

فقيل: وما هن يا رسول الله؟ قال:

«إذا كان المغنم دُولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرًما، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وبرَّ صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرِمَ الرجلُ مخافةَ شره، وشُرِبَت الخمور، ولُبِسَ الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا ومسخًا[٣٦٤] وقذفًا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع».[٣٦٥]

وقال رسول الله ﷺ:

«يوشك أن تظهر فتنة لا ينجي منها إلا الله ﷻ أو دعاء كدعاء الغرقى».[٣٦٦]

وعن حذيفة ﷺ قال:

«ليأتين على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من دعا بدعاء كدعاء الغرق».[٣٦٧]

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«يتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العواف- يريد عوافي السباع والطير- وآخر من يحشر راعيان من مزينة، يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع، خرَّا على وجوههما».[٣٦٨]

---

٣٦٤ الترمذي، الفتن، ٣٨/ ٢٢١٠.

٣٦٥ الترمذي، الفتن، ٣٨/ ٢٢١١.

٣٦٦ البيهقي، شعب الإيمان، ٢، ٣٦٧/ ١٠٧٧.

٣٦٧ ابن أبي شيبة، مصنف، ٦، ٢٢/ ٢٩١٧٣؛ الحاكم، ٤، ٤٧١/ ٨٣٠٨.

٣٦٨ البخاري، فضائل المدينة، ٥/ ١٨٧٤؛ مسلم، الحج، ٤٩٨، ٤٩٩/ ١٣٨٩؛ موطأ، الجامع، ٨.

وقال رسول الله ﷺ:

«المهدي من عترتي، من ولد فاطمة».[٣٦٩]

«المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا، كما ملئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين».[٣٧٠]

لقد تحقق أغلب ما ورد في هذه الأحاديث الشريفة، ولربما تظهر علامات أكبر مع مرور الأيام لأن وقت قيام الساعة مجهول، لذلك ينبغي لنا نحن المؤمنين أن نكون حذرين متيقِّظين دائمًا ونسعى للاستعداد للآخرة على أفضل صورة.

ب) العلامات الكبرى

عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال:

«ما تذاكرون؟»

قالوا: نذكر الساعة، قال:

«إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات- فذكر- الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».[٣٧١]

يرى علماء الإسلام في هذه العلامات المذكورة في الحديث الشريف علامات الساعة الكبرى. وثمة أحاديث شريفة كثيرة عن كل علامة من هذه العلامات العشرة.

٣٦٩ أبو داود، المهدي، ١/ ٤٢٨٤؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٤.

٣٧٠ أبو داود، المهدي، ١/ ٤٢٨٥.

٣٧١ مسلم، الفتن، ٣٩-٤٠/ ٢٩٠١؛ أبو داود، الملاحم، ١١؛ ابن ماجه، الفتن، ٢٨.

إن العلم المتعلق بالقيامة يدخل في مجال "الغيب". ولا يمكن لأحد أن يعلم الأمور المتعلقة بالغيب إلا ما أخبرنا به ربنا سبحانه وتعالى ونبيه الكريم محمد ﷺ. وقد ذُكِرَ موضوع الغيب في القرآن الكريم في ٦٠ آية لأهميته، وورَدَ في هذه الآيات أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى باستثناء آية واحدة قال الله تعالى فيها:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ...﴾[٣٧٢]

فقد أخبر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ عن القيامة والآخرة والجنة والنار وأمور أخرى، وأخبر النبي ﷺ أمته ببعضها، ولا ريب أن ذلك مما أراده الله تعالى. فالنبي ﷺ بما أخبره به ربه تعالى اطلعَ على الحقائق التي تتجاوز حدود الإدراك البشري والتي لا تُدرَك إلا بنور النبوة. ولم يخبِر النبي ﷺ أمته بالعلم الخاص الذي وهبه الله تعالى له. وقد قال في حديث شريف:

«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّتِ السماء، وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، لوددت أني كنت شجرة تعضد».[٣٧٣]

ولنا هنا أن نذكر أن من رحمة الله تعالى بنا أنه لم يخبرنا بما يجاوز حدود عقولنا من الأمور المتعلقة بالموت والقبر والقيامة والآخرة حتى لا يفسد نظام حياتنا البشري. ذلك أنه لو أُعطيَ الإنسان علمًا يتجاوز إدراكه، لما استطاع أن يحتملها ولأصابه الجنون، فصارت حياته حياة لا تُطاق. وما العلم الذي أخبرنا به الله ورسوله عن الموت وما وراءه إلا لتنظيم حياتنا لا لإفسادها.

---

٣٧٢ الجن: ٢٦-٢٧.

٣٧٣ الترمذي، الزهد، ٩/ ٢٣١٢؛ ابن ماجه، الزهد، ١٩؛ أحمد، مسند، ١، ٤٠٥/ ٢١٥١٦.

وعلى الرغم من ذلك نرى الإنسان "الظلوم الجهول" يرغب في معرفة ما يضره بدلًا من السعي وراء الحقائق التي يحتاج إليها. فجهل الإنسان ببعض الأمور كرمٌ ورحمةٌ من ربه، فلو علِم امرؤ مثلًا أنه سيموت بعد عام، لاضطرب عقلًا وقلبًا، وعاف الحياة، ولذاق الموت ألف مرة. أما الذي يعيش حياته جاهلًا موته بعد ثلاثة أيام، فنراه سعيدًا ساكنًا مطمئنًا.

فالجهل بالرحلة المرعبة التي تنتظر الإنسان من موت وقبر وبعث وحساب وصراط سببٌ لقلق الإنسان وخشيته. ولو أن الإنسان تفكر بقلبه بهذا الأمر دائمًا، لما استطاع الأكل ولا الشرب، ولَكَرِهَ حياته من كثرة بكائه وتوسله.

لكننا برحمة الله نعيش حياتنا بشيء من الغفلة والنسيان، وهذا يعني أن الغفلة في حدود معينة نعمة ضرورية من أجل نظام حياتنا البشرية. والخطأُ تجاوزُ الحد في هذه الغفلة، أي إن المرء إذا عاش الحياة الدنيا كأنها بلا آخرة وبغفلة عن الموت وبعد عن التفكر والتدبر وجهل بالحساب والعذاب، فإن النتيجة خسران أبدي وطامة كبرى لا محالة.

لذلك يأمرنا ديننا الحنيف بأن نؤدي واجب العبودية لله تعالى بقلب يعيش بين الخوف والرجاء، ويأمل بنيل رحمته سبحانه.

١ . الدخان

الدخان من علامات الساعة الكبرى، واسمُ سورة في القرآن الكريم. واختلف العلماء في ما إذا كان الدخان الذي ذكره النبي ﷺ على أنه علامة من علامات القيامة هو الدخان المذكور في القرآن الكريم. يقول الله تعالى في سورة الدخان:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ. أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾[٣٧٤]

٣٧٤ الدخان: ١٠-١٣.

وثمة رأيان في هذه الآيات:

الرأي الأول:

عن ابن مسعود ﷺ قال: إن قريشًا أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبي ﷺ، فأخذتهم سَنَة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبو سفيان، فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وإن قومك هلكوا، فادع الله، فقرأ:

﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ**﴾ (٣٧٥)

ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى:

﴿**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ**﴾ (٣٧٦) يوم بدر قال أبو عبد الله: وزاد أسباط، عن منصور، فدعا رسول الله ﷺ، فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعًا، وشكا الناس كثرة المطر، قال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانحدرت السحابة عن رأسه، فسقوا الناس حولهم.(٣٧٧)

وهنا لا بد أن ننبِّه أن رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين لم يدعُ على المشركين لأنهم آذوه بل لأنهم حالوا دون نشر الإسلام. فقد دعا ﷺ ربه أن يزيل عنهم البلاء أملًا بأن يؤمنوا؛ أي إن غاية النبي ﷺ لم تكن إلا نجاتهم في الآخرة.

الرأي الآخر:

وهو رأي عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وبعض الصحابة الكرام ﷺ أجمعين، فقد رأوا أن الدخان سيعم الأرض قبل قيام الساعة. وقد رجَّح بعض المفسرين مثل ابن كثير هذا الرأي.

---

٣٧٥ الدخان: ١٠.

٣٧٦ الدخان: ١٦.

٣٧٧ البخاري، الاستسقاء، ١٢، التفسير ٣٠، ٤٤/ ٢. قارن: مسلم، المنافقين، ٣٩، ٤٠؛ أحمد، مسند، ١، ٤٣١، ٤٤١.

٢. الدجال

تُطلَق كلمة "دجال" على الكذاب المحتال الذي يخلط بين الحق والباطل والخير والشر، ولم يأتِ ذكر الدجال في القرآن الكريم. وحينما ننظر في الأحاديث الشريفة، نفهم أن الدجال سيخرج في آخر الزمان، وسيأتي بخوارق للعادة يهبها الله تعالى له، فيُضِّل بها بعضًا من الخلق.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:

ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «**ما شأنكم؟**» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال:

«**غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قَطَطٌ،**[٣٧٨] **عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق، فعاث يمينًا وعاث شمالًا، يا عباد الله فاثبتوا**»

قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال:

«**أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**».

قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال:

«**لا، اقدروا له قدر**»

قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال:

«**كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت**

٣٧٨ قطط: أي شديد جعودة الشعر.

ذرًّا، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين[٣٧٩] ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل،[٣٨٠] ثم يدعو رجلًا ممتلئا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه، يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين،[٣٨١] واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة...»[٣٨٢]

ولا شك أن فتنة الدجال أشد فتنة سيراها الناس على الأرض، فقد قال رسول الله ﷺ:

«**ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال**»[٣٨٣] أي أكبر فتنة وأعظم شوكة.

لذلك أخبر الأنبياء كلهم أممهم عن هذه الفتنة وحذروهم منها.[٣٨٤] وقد استعاذ النبي ﷺ بالله تعالى من فتنة الدجال، ووصَّانا أن نستعيذ بالله تعالى منه.

---

٣٧٩ ممحلين: أصابهم المحل من قلة المطر ويبس الأرض من الكلأ.

٣٨٠ أي ذكور النحل.

٣٨١ المهرودتين: لابس مهرودتين أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران وقيل هما شقتان والشقة نصف الملاءة.

٣٨٢ مسلم، الفتن، ١١٠/ ٢٩٣٧؛ الترمذي، الفتن، ٥٩؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٧٥.

٣٨٣ مسلم، الفتن، ١٢٦/ ٢٩٤٦. انظر أيضًا: أحمد، مسند، ٤، ١٩-٢١.

٣٨٤ الترمذي، الزهد، ٣؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣.

وأخبرنا النبي ﷺ عن خروج **«قريب من ثلاثين»**[٣٨٥] دجالًا كلهم يزعم أنه رسول الله قبل خروج الدجال الكبير. وقد ظهر في التاريخ كثير من هؤلاء الدجالين فمحقهم الله تعالى جميعًا، وكذلك ستكون عاقبة الدجال الأكبر.

عن ربعي بن حراش قال: قال عقبة بن عمرو، لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: إني سمعته يقول:

«إن مع الدجال إذا خرج ماء ونارًا، فأما الذي يرى الناس أنها النار فماء بارد، وأما الذي يرى الناس أنه ماء بارد فنار تحرق، فمن أدرك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار، فإنه عذب بارد».[٣٨٦]

وفي رواية أخرى:

«لأنا بما مع الدجال أعلم منه، إن معه نهرًا من ماء ونهرًا من نار، فأما الذي ترون أنه نار ماء، وأما الذي ترون أنه ماء نار، فمن أدرك ذلك منكم فأراد الماء فليشرب من الذي يراه أنه نار، فإنه سيجده ماء».[٣٨٧]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«ألا أخبركم عن الدجال حديثًا ما حدثه نبي قومه إنه أعور، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنها الجنة هي النار».[٣٨٨]

إن الله تعالى الذي جعل من النار التي أشعلها نمرود بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام سيجعل من النار التي تجيء مع الدجال بردًا وسلامًا على المؤمنين الذين لا يتبعونه.

---

٣٨٥ البخاري، الفتن، ٢٥؛ مسلم، الفتن، ٨٤.

٣٨٦ البخاري، الأنبياء، ٥٠/ ٣٤٥٠، الفتن، ٢٦/ ٧١٣٠؛ مسلم، الفتن، ١٠٥/ ٢٩٣٤.

٣٨٧ مسلم، الفتن، ١٠٨/ ٢٩٣٥.

٣٨٨ مسلم، الفتن، ١٠٩/ ٢٩٣٦.

وقد يكون الدجال فتنة كبيرة يُعطى قدرات عظيمة حتى يخضع الناس لامتحان ويمتاز المؤمنون من غيرهم. فعلى المؤمنين أن يكذِّبوا الدجال ولا يخشوا مما يجيء معه من نار، فتلك النار في الأصل رحمة للمؤمنين وجنة.[٣٨٩]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها، فينزل بالسبخة، فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق».[٣٩٠]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنظرون إلا إلى فقر منس، أو غنى مطغ، أو مرض مفسد، أو هرم مفند، أو موت مجهز، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر».[٣٩١]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخرج الدجال فيتوجه قِبَلَه رجل من المؤمنين، فتلقاه المسالح[٣٩٢]- مسالح الدجال- فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون

---

٣٨٩ علينا هنا أن نشير إلى الأمر الآتي: إن يوم القيامة واقعة غير عادية، فمن الطبيعي أن تكون علاماتها وقائع استثنائية. فلا يحار المسلم مما ستكون من أحداث لا يمكن تخيلها أو تصورها اليوم. فها نحن نرى اليوم أمورًا تحققت بتقدم العلم والتكنولوجيا وما كانت تخطر على بال قبل أربعين أو خمسين سنة. والعلامات التي وردت في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ستتحقق بلا شك في وقتها، ذلك أن الله تعالى قادرٌ على كل شيء.

٣٩٠ مسلم، الفتنة، ١٢٣/ ٢٩٤٣. انظر أيضًا: البخاري، فضائل المدينة ٩، ٢٦، ٢٧/ ١٨٨١، التوحيد ٣١؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣.

٣٩١ الترمذي، الزهد، ٣/ ٢٣٠٦.

٣٩٢ المسالح قوم معهم سلاح يرقبون في المراكز كالخفراء سموا بذلك لحملهم السلاح.

له: أوما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا دونه، قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن، قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، قال: فيأمر الدجال به فيُشبَّح[٣٩٣]، فيقول: خذوه وشجوه، فيوسع ظهره وبطنه ضربًا، قال: فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب،[٣٩٤] قال: فيؤمر به فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائمًا، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلًا، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة»

فقال رسول الله ﷺ:

«**هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين**».[٣٩٥]

ويُروى أن المؤمن المذكور في هذا الحديث الشريف إنما هو الخضر عليه السلام.

---

٣٩٣ أي يمد على بطنه.

٣٩٤ يُقال عن سيدنا عيسى عليه السلام "المسيح" وعن الدجال "المسيح الدجال". والمسيح من المسح. والسبب في إطلاق هذا الاسم على الدجال لأن الخير مُسِحَ منه أو لأن عينه مُسِحَت، فهو أعور العين اليمنى. [انظر: البخاري، التعبير، ١١، ٣٣] ويُقال إنه سُمِّي بالمسيح لأنه كثير الأسفار وقد مسح المسافات.

أما السبب في إطلاق كلمة "المسيح" على سيدنا عيسى عليه السلام فلأنه كان يمسح بيده على المريض فيبرأ. وما أعظم العِبر في أن المسيح عيسى سيقتل المسيح الدجال.

وقد ذكر الله تعالى عاقبة أهل الباطل بما فيهم الدجال إذ قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء، ١٧]

٣٩٥ مسلم، الفتن، ١١٣/ ٢٩٣٨. انظر أيضًا: البخاري، الفتن، ٢٧.

وقول هذا الرجل من المؤمنين: «ما بربنا خفاء» أمام الدجال ورجاله المسلَّحين إشارةٌ إلى أن المؤمنين يعرفون الله تعالى بكل صفاته، وأن ليس لديهم شك في وجوده ووحدانيته وقدرته، وتعبيرٌ عن إيمانهم بأنه منزَّه عن العيوب والنقائص.

ويبيِّن لنا هذا الحديث أهمية تحلي القلوب بـ"معرفة الله" وما جاء في الكتاب والسنة عن فتن آخر الزمان وعلامات الساعة في مواجهة الفتن والمهالك.

ويذكر هذا الحديث أن بلاء الدجال سيزول تمامًا بعد مدة من ظهوره، لذلك فإن واجب المؤمن الذي يُمتحَن بهذه الفتنة أن يتمسك بدينه ولا يتراخى قيد أنملة، ويقف أمام الدجال بقوة الإيمان من غير خوف ولا وجل.

صفات الدجال

قال رسول الله ﷺ:

«**ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر**».[٣٩٦]

والدجال «**أعور عين اليمنى، كأنها عنبة طافية**».[٣٩٧]

ونستطيع أن نلخص بعضًا من صفات الدجال المذكورة في الأحاديث الشريفة فنقول:

✓ خلقَ الله تعالى الدجال بصفات يستطيع المؤمنون أن يعرفوه بها بيسر، وذلك من رحمة الله تعالى وفضله، لكن الذين سينالون هذا الفضل في ذلك الامتحان العسير ما هم إلا المؤمنون الصادقون الذين لديهم إيمان راسخ.

---

٣٩٦ البخاري، الفتن ٢٤/ ٧١٣١، التوحيد ١٧؛ مسلم، الفتن ١٠١، ١٠٢/ ٢٩٣٣. انظر أيضًا: أبو داود، الملاحم، ١٤، السنة ٢٥-٢٦؛ الترمذي، الفتن ٥٦، ٦٢؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣.

٣٩٧ البخاري، الفتن ٢٤/ ٧١٢٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٧٤/ ١٦٩. انظر أيضًا: الترمذي، الفتن، ٦٠.

- ✓ بين عينَي الدجال مكتوب "ك ف ر" أو "كافر" وسيرى كل مؤمن هذه الكلمة بإلهام في قلبه وإنْ لم يكن يعرف اللغة العربية، أما الذين حُرِموا من رحمة الله تعالى فلن يروا تلك الكلمة حتى لو كانوا يعرفون القراءة.
- ✓ الدجال جعد الشعر في سن شبابه.
- ✓ جسيم قصير القامة.[٣٩٨]
- ✓ سيخرج من جهة الشرق من خراسان أو أصفهان أو من مكان بين الشام والعراق.[٣٩٩]
- ✓ لن يدخل مكة والمدينة لأن الله تعالى حمى هاتَين البلدتَين المباركتَين.
- ✓ سيكون الدجال فتنة كبيرة في آخر الزمان للمؤمنين، لذلك سيُعطى قدرة عظيمة كإمطار السماء وإخراج كنوز الأرض.
- ✓ الدجال من أصل يهودي[٤٠٠] لذلك ستؤازره اليهود.
- ✓ سيقتل سيدنا عيسى عليه السلام الدجالَ وبذلك تنتهي فتنته.

سبيل الوقاية من الدجال

أوصى النبي ﷺ أمته بالعياذ بالله من فتنة الدجال إذ قال:

«إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال».[٤٠١]

---

٣٩٨ انظر: البخاري، الفتن، ٢٤؛ أبو داود، الملاحم، ١٤.

٣٩٩ انظر: مسلم، الفتن، ١١٠.

٤٠٠ انظر: مسلم، الفتن، ٩٠.

٤٠١ مسلم، المساجد، ١٢٨/ ٥٨٨.

وقال رسول الله ﷺ:

«**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال**».[٤٠٢]

وفي رويات أخرى أوصى ﷺ بقراءة الآيات العشرة الأخيرة من سورة الكهف.

تذكر الآيات العشر الأولى من سورة الكهف معرفة ذات الله تعالى وصفاته وكيف نجّى أصحاب الكهف من الظلم، وقد يكون هذا السبب وراء توصية النبي ﷺ بقراءة هذه الآيات.

إن قول رسول الله ﷺ:

«**غيرُ الدجال أخوفني عليكم**...»[٤٠٣] يشير إلى أن الدجال لن يكون خطرًا كبيرًا على مَن لديهم إيمان قوي.

لذلك لا بد أن يكون المسلم من أهل التقوى، ولا بد من تربية علماء مخلصين يعملون بعلمهم، والعيش على ضوء الكتاب والسنة من أجل الوقاية من فتنة الدجال.

ولا ريب أن المقياس الذي لا يخطئ في معرفة الدجال إنما هو "الكتاب والسنة"، فينبغي قياس كل مَن يدَّعي شيئًا في الدين بهذا المقياس.

ويشير قول رسول الله ﷺ:

«..**وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه**..»[٤٠٤] إلى ضرورة أن يتعلم كل مسلم دينه، فإن عَلِمَ الإسلامَ جيدًا وعاش كما يأمر هذا الدين المبين، فلن يضيره صغار الدجالين وكبارهم.

---

٤٠٢ مسلم، المسافرين، ٢٥٧/ ٨٠٩؛ أبو داود، الملاحم، ١٤/ ٤٣٢٣.

٤٠٣ مسلم، الفتن، ١١٠/ ٢٩٣٧؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٧٥.

٤٠٤ مسلم، الفتن، ١١٠/ ٢٩٣٧؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٧٥.

٣. دابة الأرض

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[٤٠٥]

وقال رسول الله ﷺ:

«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».[٤٠٦]

«تخرج الدابة معها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى إن أهل الخُوان ليجتمعون فيقول: هاها يا مؤمن، ويقال: هاها يا كافر، ويقول: هذا يا كافر وهذا يا مؤمن».[٤٠٧]

«إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا».[٤٠٨]

إن دابة الأرض كائن حي لم يرد وصفه في الأحاديث الصحيحة، ولكن من المفهوم أنها ستكلِّم الناس وتحذرهم. وتشير روايات إلى أنها ستظهر في زمَن يُترَك فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنها ستبيِّن أن جميع الأديان ما عدا الإسلام باطلة.

---

٤٠٥ النمل: ٨٢.

٤٠٦ مسلم، الإيمان، ٢٤٩/ ١٥٨ أحمد، مسند، جـ٢، ص٤٤٥.

٤٠٧ الترمذي، التفسير، ٢٧/ ٣١٨٧؛ ابن ماجه، الفتن، ٣١.

٤٠٨ مسلم، الفتن، ١١٨/ ٢٩٤١؛ أبو داود، الملاحم، ١٢.

٤ . شروق الشمس من المشرق

يقول الله تعالى مبينًا دقة النظام الذي وضعه في هذا الكون:

﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾(٤٠٩)

إن الشمس والقمر آيتان واضحتان في السماء تُظهِرَان تجليات عظمة الله تعالى وقدرته. والناس منذ القديم ينظمون أوقاتهم بناءً عليهما، فالتقويم القائم على كل منهما تقويم دقيق لا يتقدم ثانية ولا يتأخر.

أما الآلات التي جاءت بها التكنولوجيا اليوم فإنها تتعطل بعد مدة من استعمالها. فما أعظم قدرة الله تعالى الظاهرة في الشمس والقمر اللتَين تدوران في مدارهما منذ خلقهما ولا تنحرفان قدْر شعرة.

وهذا النظام الدقيق لا ينحصر في الشمس والقمر فحسب، يقول الله تعالى:

﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾(٤١٠)

حينما يقضي الله تعالى خالق هذا الكون بنهاية هذه الحياة الدنيا، سيفسد هذا النظام الدقيق الذي وضعه بإرادته وحسابه، وستشرق الشمس حينئذ من الغرب، وسيفهم الناس الذين يرون هذه الحادثة أن نهاية الدنيا قد آن أوانها، لكن إدراكهم ذلك لن ينفعهم بشيء لأن باب التوبة حينئذ سيُغلَق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

---

٤٠٩ الرحمن: ٥.

٤١٠ الملك: ٣-٤.

«**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين:**

﴿**لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾[٤١١]». [٤١٢]

وقال رسول الله ﷺ:

«**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه**». [٤١٣]

«**إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**». [٤١٤]

فنفهم من هذه الأحاديث أن قيامة كل شيء تكون في وقتها. ويوم القيامة آت لا محالة وسيُحاسَب كل إنسان على ما فعله في الدنيا، من أجل ذلك علينا أن نبتعد عن ارتكاب الذنوب ونتوب توبة نصوح، ونعتصم بحبل الله ونقوي إيماننا بعمل الصالحات والإكثار من الحسنات.

---

٤١١ الأنعام، ١٥٨.

٤١٢ البخاري، الرقاق، ٤٠/ ٦٥٠٦؛ مسلم، الإيمان ٢٤٨/ ١٥٧.

٤١٣ مسلم، الذكر، ٤٣/ ٢٧٠٣.

٤١٤ مسلم، التوبة، ٣١/ ٢٧٥٩.

٥. نزول سيدنا عيسى عليه السلام

أرسل الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام إلى قوم بني إسرائيل، وكانت ولادته من غير أب معجزة لهم، وآتاه الله تعالى معجزات كثيرة، غير أن بني إسرائيل لم يصدِّقوه وأرادوا صلبه، فنجَّاه الله تعالى ورفعه.

يقول الله سبحانه وتعالى في عيسى عليه السلام:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٤١٥]

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٤١٦]

واتفق علماء الإسلام على ضوء هذه الآيات على أن سيدنا عيسى عليه السلام قد رُفِعَ إلى السماء. وثمة في القرآن الكريم آيات تشير إلى أن سيدنا عيسى سينزل إلى الأرض، فالله تعالى يقول:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٤١٧]

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٤١٨]

---

٤١٥ النساء: ١٥٧-١٥٨.

٤١٦ آل عمران: ٥٥.

٤١٧ النساء: ١٥٩.

٤١٨ الزخرف، ٦١.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير،[419] ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».[420]

وقال رسول الله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم ﵇، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة».[421]

وثمة أحاديث شريفة كثيرة أخرى عن نزول سيدنا عيسى ﵇ إلى الأرض وتطبيقه لأحكام الإسلام.[422]

وليس هناك تناقض بين كون النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء ونزول عيسى ﵇، لأن نزوله لن يكون نزول نبي لتبليغ أوامر جديدة من الله تعالى، بل نزول "حاكم عادل" يطبِّق أحكام الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ.

---

٤١٩ يمنع سيدنا عيسى ﵇ أكل لحم الخنزير، ويأمر بقتل الخنازير بغية إظهار أهمية هذا الأمر. وفي هذا الأمر توبيخ للنصارى الذين يدعون أنهم يتبعون عيسى ﵇ لكنهم يحلِّلون لحم الخنزير ويكثرون من أكله. وفي أمره ﵇ إشارة إلى إلغاء النصرانية المحرَّفة بالقضاء على الرموز التي تعظِّمها.

٤٢٠ البخاري، البيوع ١٠٢/ ٢٢٢٢، المظالم ٣١، الأنبياء ٤٩/ ٣٤٤٨؛ مسلم، الإيمان ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، الحج ٢١٦، الفتن ٣٤، ٣٩، ١١٠. انظر أيضًا: أبو داود، الملاحم ١٢، ١٤ (٤٣٢٤)؛ الترمذي، الفتن ٢١، ٥٤، ٥٩، ٦٢.

٤٢١ مسلم، الإيمان، ٢٤٧/ ١٥٦.

٤٢٢ جمع محمد أنور شاه الكشميري (المتوفى سنة: ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) في كتابه (التصريح بما تواتر في نزول المسيح) [حلب، ١٣٨٥/ ١٩٦٥] ١٠١ رواية في هذا الموضوع منها خمسة وسبعون حديثًا مرفوعًا.

٦. يأجوج ومأجوج

لعل فتنة يأجوج ومأجوج من أعظم الفتن بعد فتنة الدجال. وقد ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج:

فذكرهم أولًا في قصة ذي القرنَين، إذ شكوا إليه يأجوج ومأجوج الذين عاثوا فسادًا في الأرض، فبنى ذو القرنين سدًّا يمنعهم من الخروج من أرضهم.[٤٢٣]

وجاء ذكرهم أيضًا في الآيتَين التاليتَين:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[٤٢٤]

عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول:

«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»

وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**».[٤٢٥]

وإذا اطلعنا على شروح هذا الحديث الشريف، نجد أن الهلاك الواقع في وقت كثرة الخبث لا ينحصر في زمان يأجوج ومأجوج، بل هو حُكم عام يشمل كل زمن يكثر فيه الخبث والفساد.

---

٤٢٣ انظر: الكهف، ٩٤-٩٨.

٤٢٤ الأنبياء: ٩٦-٩٧.

٤٢٥ البخاري، الفتن ٤/ ٧٠٥٩، ٢٦/ ٧١٣٥؛ مسلم، الفتن، ١-٢/ ٢٨٨٠. انظر أيضًا: البخاري، الأنبياء ٧، المناقب ٢٥/ ٣٥٩٨؛ أبو داود، الفتن، ١؛ الترمذي، الفتن، ٢٣؛ ابن ماجه، الفتن، ٩.

وقال رسول الله ﷺ في حديث طويل عن علامات الساعة:

«فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لي، لا يَدَان لأحد بقتالهم، فحرِّز[٤٢٦] عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف[٤٢٧] في رقابهم، فيصبحون فرسى[٤٢٨] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[٤٢٩] ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت[٤٣٠] فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يَكُنُّ[٤٣١] منه بيت مدر[٤٣٢] ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[٤٣٣]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرُّمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى أن اللِّقحة[٤٣٤] من الإبل لتكفي الفئام[٤٣٥] من الناس، واللِّقحة من البقر لتكفي القبيلة

٤٢٦ أي ضمهم.

٤٢٧ دود يكون في أنوف الإبل والغنم الواحدة نغفة.

٤٢٨ أي قتلى واحدهم فريس كقتيل وقتلى.

٤٢٩ دسمهم.

٤٣٠ وهي الإبل الخراسانية تنتج من عربية وفالج وهي جمال طوال الأعناق.

٤٣١ لا يمنع من نزول الماء.

٤٣٢ الطين الصلب.

٤٣٣ كالمرآة.

٤٣٤ القريبة العهد بالولادة.

٤٣٥ الجماعة الكثيرة.

من الناس واللِّقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس.[436] **فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة».**[437]

٧. خسف بالمشرق

٨. وخسف بالمغرب

٩. وخسف بجزيرة العرب[438]

لا شك أنه حدثت خسوف كثيرة في الأرض إلى يومنا هذا، لكن الخسوف التي ذكرها النبي ﷺ علامةً من علامات الساعة الكبرى ستكون خسوفًا أكبر وأشد.

١٠. نار تخرج من اليمن أو الحجاز

قال رسول الله ﷺ:

«**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، تضيء أعناق الإبل ببصرى**».[439]

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«**ستخرج نار من حضرموت أو من نحو بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس**»

قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «**عليكم بالشام**».[440]

---

٤٣٦ من آيات عظمة الخالق وقدرته أنه يقضي على هؤلاء الهمج المتوحشين بتسليط دود عليهم، ثم يحيي الأرض بعدهم مرة أخرى ويجعلها صالحة للحياة.

٤٣٧ مسلم، الفتن، ١١٠/ ٢٩٣٧. انظر أيضًا: الترمذي، الفتن، ٥٩؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣.

٤٣٨ للاطلاع على كامل الحديث انظر: ص١٦٢.

٤٣٩ البخاري، الفتن، ٢٤/ ٧١١٨؛ مسلم، الفتن، ٤٢/ ٢٩٠٢.

٤٤٠ الترمذي، الفتن، ٤٢/ ٢٢١٧.

قيام الساعة

حينما تظهر علامات الساعة الصغرى والكبرى ويجيء أجل هذه الحياة الفانية، سيتحقق ذلك الوعد الإلهي. فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط[٤٤١] **حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**.[٤٤٢]

النفخ في الصور

ستقوم الساعة بالنفخ في الصور، والصور قرنٌ سينفخ فيه إسرافيل عليه السلام إيذانًا بقيام الساعة ثم ينفخ فيه مرة أخرى فيُبعَث الناس جميعًا ويُحشَرون في المحشر.

قال رسول الله ﷺ في الصور الذي نجهل ماهيته: «**الصور قرن يُنفَخ فيه**».[٤٤٣]

وقد ذُكِرَ في القرآن الكريم أن الصور سيُنفَخ فيه مرتَين، في الأولى تقوم الساعة، وفي الأخرى يُبعَث الخلق.

ذكرت الآيات الكريمة بعضًا من الأحداث التي ستكون في الكون لدى النفخة الأولى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[٤٤٤]

---

٤٤١ يصلح ويطينّ.

٤٤٢ البخاري، الرقاق، ٤٠/ ٦٥٠٦؛ انظر أيضًا: مسلم، الفتن ١٤٠/ ٢٩٥٤، الإيمان ٢٤٨.

٤٤٣ أبو داود، السنة، ٢٤/ ٤٧٤٢.

٤٤٤ الحاقة: ١٣-١٦.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾(٤٤٥)

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾(٤٤٦)

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(٤٤٧)

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(٤٤٨)

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾(٤٤٩)

أما حال الناس في النفختَين فقال الله ﷻ فيها:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾(٤٥٠)

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾(٤٥١)

---

٤٤٥ المزمل: ١٤.

٤٤٦ المرسلات: ٨-١١.

٤٤٧ إبراهيم: ٤٨.

٤٤٨ الأنبياء: ١٠٤.

٤٤٩ طه: ١٠٥-١٠٧.

٤٥٠ الزمر: ٦٨.

٤٥١ النازعات: ٦-٩.

ولا ريب أن يوم النفخة في الصور سيكون أشد أيام الحياة فزعًا ودهشة، ففي ذلك اليوم العصيب سيبيض شعر الولدان فزعًا:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا. السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾[٤٥٢]

وفي ذلك اليوم مَن يأمن من الفزع الحزن والكدر، وهم الذين اصطفاهم الله تعالى من خلقه:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[٤٥٣]

عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ**» فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: قولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا**».[٤٥٤]



٤٥٢ المزمل: ١٧-١٨.

٤٥٣ النمل: ٨٧.

٤٥٤ الترمذي، القيامة، ٨/ ٢٤٣١؛ أحمد، مسند، ١، ٣٢٦.

الفصل السادس



أحوال الآخرة

ترى الكافرين والفاسقين والغافلين يعيشون في الحياة الدنيا كأنهم لن ينتقلوا إلى الآخرة ولن يُحاسبوا على أعمالهم، غير أنهم حينما يرون المشهد المهيب يوم الآخرة، فسيرضون بأن يفدوا بكل ما يملكون لا بل بأضعافه في سبيل النجاة من عذاب ذلك اليوم العصيب، لكن هيهات هيهات لهم ذلك، فقد سبق السيف العذل وفَاتَهُم ما كانوا يرجون.

أحوال الآخرة

١. البعث

سيكون البعث يوم القيامة بالنفخة الثانية التي ينفخها إسرافيل ﷺ، فبهذه النفخة سيُبعَث جميع الخلق الذين عاشوا على هذه البسيطة، وهذا البعث هو "البعث بعد الموت".

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما بين النفختين أربعون»

قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: أبيتُ،[٤٥٥] قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ، قال:

«ثم يُنزِل الله من السماء ماءً فينبتون، كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَب،[٤٥٦] ومنه يركب الخلق يوم القيامة».[٤٥٧]

---

٤٥٥ معناه أبيت أن أجزم.

٤٥٦ عظم أسفل الصلب وهو رأس العصعص.

٤٥٧ البخاري، تفسير، ٣٩/ ٣/ ٤٩٣٥؛ مسلم، الفتن، ١٤١/ ٢٩٥٥؛ الموطأ، الجنائز، ٤٨؛ أبو داود، السنة، ٢٤؛ النسائي، الجنائز، ١١٧.

وثمة روايات تشير إلى أن المدة بين النفختَين أربعون سنة[٤٥٨] وهذا ما عليه أكثر أهل العلم.[٤٥٩]

يقول المفسر الفراء:

إن الناس يموتون وجميع الخلق في النفخة الأولى. وبينها وبين الآخرة أربعون سنة. ويبعث الله المطرَ فيُمطر أربعين يومًا كمني الرجال، فينبتونَ في قبورهم كما ينبتونَ في بطون أمهاتهم. فذلك قوله: ﴿**كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى**﴾[٤٦٠] كما أخرجنا الثمار من الأرض الميتة.[٤٦١]

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى مَن يشك في موضوع البعث فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا

---

٤٥٨ ابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى العبدي (المتوفى سنة: ٣٩٥هـ)، الإيمان (١-٢)، تحقيق: علي بن محمد الناصر الفقيهي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦، ٢، ٧٩٤؛ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٥٤١.

٤٥٩ الغزالي أبو حامد محمد بن محمد (المتوفى سنة: ٥٠٥هـ)، الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة (ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي)، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩، ص١١٨؛ البغوي، ٧، ١٣٢؛ القرطبي، التذكرة، ١، ٢٨٧؛ السيوطي، البدور السافرة، ص٨٦-٨٨.

٤٦٠ الأعراف، ٥٧.

٤٦١ الفراء، ـ١، ٣٨٢. وقد ذكر الطبري الرواية نفسها من غير سند، فذكر أن المطر كماء الحيوان. (الطبري، ٧، ٤٩٣-٤٩٤). قارن: ابن أبي حاتم، ٨، ٢٧٨٤؛ البيهقي، شعب، ١، ٥٤١؛ أبو حيان، ٥، ٧٩.
وثمة روايات صحيحة عن أن الله تعالى سينزل ماء من السماء فيحيي به الموتى كما يحيي الزرع. (البخاري، تفسير، ٧٨/ ١)

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(٤٦٢)

وذكرَ سبحانه وتعالى في سورة "المؤمنون" المراحل التي يمر بها الإنسان في رحم أمه والحياة الدنيا والموت والبعث، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٤٦٣)

وعن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال:

يا رسول الله كيف يُحيِي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال:

«أما مررت بوادي أهلك مَحْلًا؟»

قال: بلى قال:

«أما مررت به يهتز خضرًا؟»

قال: قلت: بلى، قال:

«ثم مررت به مَحْلًا؟»

قال: بلى، قال:

«فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه».(٤٦٤)

---

٤٦٢ الحج: ٥-٧.

٤٦٣ المؤمنون: ١٢-١٦.

٤٦٤ أحمد، مسند، ٤، ١١.

ويبيِّن الله تعالى حال الدهشة والندامة التي سيكون عليها المنكرون حين يُبعثون فيقول:

﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ. وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ. هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾(٤٦٥)

﴿**خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ**﴾(٤٦٦)

ذلك بأنهم كذَّبوا بالآخرة وظنوا أنما الحياة الحياة الدنيا ولا حياة بعدها. يقول الله تعالى:

﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(٤٦٧)

أتى أُبَي بن خلف النبيَ ﷺ بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رَمَّ! فقال النبي ﷺ:

«**نعم ويبعثك الله ويدخلك النار**».(٤٦٨)

ثم نزل قوله تعالى:

---

٤٦٥ الصافات: ١٩-٢١.

٤٦٦ القمر: ٧-٨.

٤٦٧ الجاثية: ٢٤-٢٦.

٤٦٨ القرطبي، الجامع، ١٥، ٥٨؛ الواحدي، ص٣٧٩.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[469]

ويبيِّن الله تعالى يُسر بعث الأموات في بداية سورة القيامة إذ يقول:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[470]

يقول الله تعالى في سورة لقمان:

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[471]

ولا ريب أن الخلق أول مرة دليل على الخلق مرة ثانية، فالخلق من عدم أصعب من البعث، ومن الحماقة قبول الأمر الصعب وإنكار السهل. ولا ننسى أن الله تعالى العليم القدير لم يعجز في الخلق الأول، بل خلق مخلوقات لا تُحصى وكل واحد من هذه المخلوقات إبداع في الخلق. وهو سبحانه وتعالى الذي سأل عباده فقال:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[472]

ووصف سبحانه وتعالى حال بعث الإنسان من القبر بقوله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[473]

---

٤٦٩ يس: ٧٧-٧٩.

٤٧٠ القيامة: ١-٤.

٤٧١ لقمان: ٢٨.

٤٧٢ ق: ١٥.

٤٧٣ يس: ٥١-٥٢.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(٤٧٤)

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾(٤٧٥)

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ. وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ. إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾(٤٧٦)

ويبيِّن الله تعالى شدة ذلك اليوم ومشقته بقوله:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾(٤٧٧)

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(٤٧٨)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«**تُحشَرون حفاة عراة غُرلًا**(٤٧٩)»

قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «**الأمر أشد من أن يهمهم ذاك**».(٤٨٠)

---

٤٧٤ المعارج: ٤٣-٤٤.

٤٧٥ ق: ٤٤.

٤٧٦ العاديات: ٩-١١.

٤٧٧ المؤمنون: ١٠١.

٤٧٨ عبس: ٣٣-٣٧.

٤٧٩ جمع أغرل وهو الذي لم تقطع منه قلفة الذكر وهي الجلدة التي تقطع عند الختان.

٤٨٠ البخاري، الرقاق، ٤٥/ ٦٥٢٧؛ مسلم، الجنة، ٥٦/ ٢٨٥٩.

وأول مَن يُكسى بعد البعث سيدنا إبراهيم عليه السلام،[481] ثم يُكسى النبي محمد ﷺ، ويقف بالجانب الأيمن من العرش وحده، فيغبطه الأولون والآخرون.

إن الله سبحانه وتعالى سيجمع عظام الإنسان ويُرجِع روحه إلى بدنه، فتبدأ الحياة الخالدة.

وأول من يُبعَث ويخرج من القبر سيدنا محمد ﷺ.[482]

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم ودخل المسجد وأبو بكر وعمر، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهو آخذ بأيديهما، وقال:

«هكذا نُبعَث يوم القيامة».[483]

أمثلة للبعث في القرآن الكريم

اختلف العلماء في موضوع البعث إنْ كان سيكون بالجسد أم بالروح، لكن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم أمثلة للبعث بالجسد تَطْمئِنُّ بها قلوب العباد في موضوع البعث بعد الموت وأن ذلك ليس على الله بعزيز، فمنها:

أ) إحياء الطيور المقطَّعة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[484]

---

٤٨١ انظر: البخاري، الأنبياء، ١٠.

٤٨٢ انظر: الدارمي، المقدمة، ٨. انظر أيضًا: الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦.

٤٨٣ الترمذي، المناقب، ١٦/ ٣٦٦٩.

٤٨٤ البقرة: ٢٦٠.

ويُروَى أن إبراهيم ﷺ أخذَ الأطيار الأربعة، ثم قطَّع كل طير بأربعة أجزاء، ثم عمد إلى أربعة أجبال، فجعل على كل جبل ربعًا من كل طائر، فكان على كل جبل ربع من الطاووس، وربع من الديك، وربع من الغراب، وربع من الحمام. ثم دعاهن فقال: «تعالين بإذن الله كما كنتُن»، فوثب كل ربع منها إلى صاحبه حتى اجتمعن، فكان كل طائر كما كان قبل أن يقطعه. ثم أقبلن إليه سعيًا، كما قال الله».(٤٨٥)

ويشير وضعُ إبراهيم ﷺ الطير في الجبال إلى وجود حشد كبير من الناس حوله، أي إنه أُمِرَ أن يضع الطير في مكان عال حتى يراها الناس بيسر. فهذا يعني أن سيدنا إبراهيم ﷺ طلبَ معجزة من ربه ليثبت لمنكري البعث هذه الحقيقة.

ولا يخفى على أحد عِظَم مكانة سيدنا إبراهيم ﷺ بين الأنبياء، فلا يحسبنَّ أحد أنه كان في شك من إحياء ربه الموتى.

ولا ريب أن الله تعالى يعلم أن نبيه إبراهيم ﷺ من أهل الإيمان، فسأله: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟**﴾ حتى يعلم الجميع الغاية من قوله: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى**﴾. وذكرَ سيدنا إبراهيم ﷺ أنه ما طلبَ ذلك إلا ليطمئن قلبه برؤية الحقيقة بعينه، وليكون إيمانه في درجة "حق اليقين" بمشاهدة تجليات عظمة ربه وقدرته، فعقيدة الإنسان تغدو راسخة حين يرى ما يعتقد به بعينَيه.

ويُروَى أن سيدنا إبراهيم ﷺ طلبَ طلبه هذا ليطمئن قلبه في موضوع كونه "خليلًا لله".

وتبيِّن هذه الآية الكريمة حقيقة أن المرء مهما بلغ من مقامات معنوية، فستبقى هناك درجات يرتقيها كي يصل إلى كمال الإيمان وطمأنينة القلب، وهذا ما نراه في إبراهيم ﷺ حين يتوسل إلى الله تعالى كي يطمئن قلبه وهو من "أولي العزم" و"خليل الله" وهو الذي أثنى الله عليه تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم.

---

٤٨٥ الطبري، جامع البيان، ٥، ٥٠٦-٥٠٧.

ولا ريب أن العبد كلما ازداد قربه من ربه تعالى، اتسعت آفاق بصيرته، فصار يرى بوضوح عجزه وقلة حيلته أمام ربه وحاجته إليه، والدليل على ذلك أن سيدنا إبراهيم عليه السلام دعا ربه فقال:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٤٨٦)

وقد قال القشيري رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«إنما طلب حياة قلبه فأشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور، وفي الطيور الأربعة طاووس، والإشارة إلى ذبحه تعني زينة الدنيا، وزهرتها، والغراب لحرصه، والديك لمشيته، والبط لطلبه لرزقه... والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعني النفس فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يحي قلبه بالله».(٤٨٧)

ب) بعث الذين ماتوا بالصاعقة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤٨٨)

فهذه الحادثة دليل لمنكري البعث أن الله تعالى لا يُعجِزه إحياؤهم، وكذلك لا يخفى على أحد أن الله تعالى أعطى سيدنا عيسى عليه السلام معجزة إحياء الموتى وجعل أصحاب الكهف ينامون لنحو من ثلاثة قرون ثم أيقظهم كي يبيِّن قدرته تعالى لمنكري البعث في الآخرة.

---

٤٨٦ الشعراء: ٨٧-٨٩.

٤٨٧ القشيري، لطائف الإشارات، ١، ٢٠٢-٢٠٣.

٤٨٨ البقرة: ٥٥-٥٦.

ج) بعث مَن مات مئة عام

كان بعث الموتى من أشد ما أنكره مشركو قريش، لأن قبول هذا الأمر ما وافق أهواء نفوسهم، وما استطاعوا أن يفهموا كيف يمكن إحياء الأبدان المتفسخة التي لم يبقَ لها أثر. وقد أوحى الله تعالى لنبيه بكثير من الآيات الكريمة التي تزيل حيرة المشركين وتساؤلهم، وبيَّن بأمثلة كثيرة حقيقة البعث، منها أنه سبحانه وتعالى أماتَ رجلًا في عهد عزير عليه السلام مئة عام ثم أحياه، إذ قال:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤٨٩]

ويُروَى في بعض التفاسير أن هذا الرجل عزير عليه السلام، وقد ظن أنه نام ليوم أو بضعة أيام لأن طعامه وشرابه كانا كما نام، لكنه حينما رأى حماره، وجد أنه قد مات من وقت طويل، إذ لم يجد منه إلا عظامًا. فأحيى الله تعالى الحمار أمام عينيه، فشاهدَ كيف يميت الله تعالى خلقَه ويحييهم من جديد.

الحوض

حينما يخرج الناس من قبورهم عطشى، سيركضون نحو الحوض في ميدان الحشر، لكن لن يَرِدَ الجميع ذلك الحوض.

فقد وردَ أن الذين أعرضوا عن الإيمان في الدنيا وضلوا سيُحرَمون من الشرب من ذلك الحوض.

---

٤٨٩ البقرة: ٢٥٩.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا»

قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال:

«أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»

فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال:

«أرأيت لو أن رجلًا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم[٤٩٠] بهم ألا يعرف خيله؟»

قالوا: بلى يا رسول الله قال:

«فإنهم يأتون غرًّا مُحجَّلين من الوضوء، وأنا فرطهم[٤٩١] على الحوض. ألا ليُذَادَنَّ رجال عن حوضي كما يُذادُ البعير الضال أناديهم ألا هلُمَّ فيُقَال: إنهم قد بدلوا بعدك،[٤٩٢] فأقول سحقًا سحقًا[٤٩٣]».[٤٩٤]

---

٤٩٠ سوداء لم يخالط لونها لون آخر.

٤٩١ متقدمهم إليه.

٤٩٢ يُروَى أنهم بعض من الأعراب الذين رجعوا عن الدين بعد بيعتهم للنبي ﷺ. وقال ﷺ في حديث آخر: «**فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم**». [مسلم، الجنة، ٥٨]
وثمة آراء مختلفة حول الناس الذين لن يبلغوا الحوض، ونستطيع أن نسردهم على الشكل الآتي:
١. المنافقون والمرتدون. ٢. الذين عاشوا في زمن النبي ﷺ ثم ارتدوا. ٣. مرتكبو الكبائر.
٤. الذين اعتقدوا مذاهب ضالة في العقيدة وأهل البدع. [السيوطي، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، دار ابن عفان، ١٤١٦، جـ٢، ص٣٤].
٥. العصاة أي الذين لم يخرجوا من الإسلام بل خرجوا من سبيل الاستقامة، فتركوا الأعمال الصالحة وأتوا الأعمال السيئة. [النووي، شرح صحيح مسلم، ١٥، ٦٤]

٤٩٣ بُعدًا بُعدًا.

٤٩٤ مسلم، الطهارة ٣٩/ ٢٤٩، الفضائل ٢٦. انظر أيضًا: النسائي، الطهارة، ١١٠/ ١٥٠؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٦؛ موطأ، الطهارة، ٢٨؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٠٠، ٤٠٨.

وقد وصف النبي ﷺ حوضه فقال:

«حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه[٤٩٥] كنجوم السماء، مَن شرب منها فلا يظمأ أبدًا».[٤٩٦]

فمَن لم يشرب من الحوض، فسيبقى ظمآنًا أبدًا.

ووردَ في الأحاديث أن النبي ﷺ أولُ مَن يصل الحوض حتى يهيِّئه لأمته.[٤٩٧] وأول من يأتي بعده ﷺ هم فقراء المهاجرين.

وقال رسول الله ﷺ:

«إن لكل نبي حوضًا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة».[٤٩٨]

فعلينا أن نتبع سنة نبيِّنا الكريم حتى لا نخيِّب أمله بنا، ونسعى ليعيش كل مَن حولنا بدءًا من أقرب الناس إلينا على نهج النبي ﷺ.

الحشر والمحشر

سيجمع الله تعالى الخلق جميعًا بعد أن يبعثهم من قبورهم في ميدان الحشر من أجل الحساب والميزان، وقد بيَّن الله تعالى هذه الحقيقة بقوله:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٤٩٩]

---

٤٩٥ جمع كوز.

٤٩٦ البخاري، الرقاق، ٥٣/ ٦٥٧٩؛ مسلم، الفضائل، ٢٧/ ٢٢٩٢.

٤٩٧ مسلم، الفضائل، ٢٥-٤٥؛ الترمذي، القيامة، ١٥/ ٢٤٤٤؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٦؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٧٥؛ الهيثمي، ١٠، ٣٦٠-٣٦٧.

٤٩٨ الترمذي، القيامة، ١٤/ ٢٤٤٣.

٤٩٩ آل عمران: ٩؛ انظر أيضًا: الكهف: ٩٩.

﴿**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**﴾[٥٠٠]

﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**﴾[٥٠١]

﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾[٥٠٢]

وقال رسول الله ﷺ:

«**يُحشَر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء**[٥٠٣]**، كقرصة نقي**[٥٠٤] **ليس فيها مَعْلَم لأحد**».[٥٠٥]

وقال الله تعالى واصفًا مشهد الجبال يومئذ:

﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**﴾[٥٠٦]

وسيجتمع الناس في ميدان الحشر في أحوال مختلفة وفقًا لأحوالهم المعنوية في الدنيا، وقد قال رسول الله ﷺ في هذا الشأن:

«**إنكم تحشرون رجالًا ورُكبانًا، وتُجَرُّون على وجوهكم**».[٥٠٧]

والذين سيُجرُّون على وجوههم هم الغافلون البعيدون عن نور الهداية، وقد بيَّن الله تعالى هذه الحقيقة بقوله:

---

٥٠٠ طه: ١٠٢.

٥٠١ مريم: ٦٨.

٥٠٢ الزلزلة: ٦.

٥٠٣ بيضاء مشوبة بحمرة.

٥٠٤ كرغيف مصنوع من دقيق خالص من الغش والنخالة.

٥٠٥ البخاري، الرقاق، ٤٤/ ٦٥٢١؛ مسلم، صفة القيامة، ٢٨/ ٢٧٩٠.

٥٠٦ طه: ١٠٥-١٠٧.

٥٠٧ الترمذي، القيامة، ٣/ ٢٤٢٤. قارن: مسلم، الجنة، ٥٧.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾(٥٠٨)

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾(٥٠٩)

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا قال: يا نبي الله، كيف يُحشَر الكافر على وجهه؟ قال:

«**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**» قال قتادة: بلى وعزة ربنا.(٥١٠)

ومن الأحداث التي ستقع في المحشر اقتراب الشمس من الناس.

فعن المقداد بن الأسود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«**تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل**»

- قال سليم بن عامر[من رواة الحديث]: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين- قال:

«**فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقوَيه**(٥١١)**، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا**» قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه.(٥١٢)

---

٥٠٨ الإسراء: ٩٧.

٥٠٩ الفرقان: ٣٤.

٥١٠ البخاري، الرقاق، ٤٥/ ٦٥٢٣؛ مسلم، القيامة، ٥٤/ ٢٨٠٦.

٥١١ الحقو: الخصر.

٥١٢ مسلم، الجنة، ٦٢/ ٢٨٦٤؛ الترمذي، القيامة، ٢/ ٢٤٢١.

«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم».[٥١٣]

وعن ابن عمر ﵄، عن النبي ﷺ:

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥١٤] قال: **«يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».**[٥١٥]

ولنا هنا أن نذكر أن ظروف عالَم البرزخ والآخرة تختلف كثيرًا عن ظروف الحياة في الدنيا، فلو اقتربت الشمس من الأرض في الدنيا، لأحرقت كل ما عليها وجعلتها رمادًا، ولو حدث طوفان عظيم لغرق الناس جميعًا. إلا أن هذه الأمور في الآخرة ستتجلى وفقًا لحال كل إنسان، فيجد الكافر يومئذ عذابًا شديدًا في قرب الشمس منه ولكنه لا يموت، لأنه لا موت في الآخرة.

وحينما يعرق الناس في المحشر من حرارة الشمس، سيغرق كل واحد بعرقه ولن يضر عرقه مَن حوله.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[٥١٦]

---

٥١٣ البخاري، الرقاق، ٤٧/ ٦٥٣٢.

٥١٤ المطففين، ٦.

٥١٥ البخاري، الرقاق، ٤٧/ ٦٥٣١؛ مسلم، الجنة، ٦٠/ ٢٨٦٢.

٥١٦ الحديد: ١٢-١٣.

فنور كل إنسان في ذلك اليوم سيكون على قدر ما يكفيه ولن ينفع غيره، فهذا من أحوال يوم القيامة التي ستكون مختلفة عن أحوال الدنيا.

وإذا أردنا أن نضرب مثلًا لهذا الأمر في الدنيا، نذكر أن المؤمن يمشي بنور إيمانه، ويبقى الكافر الذي يكون بجانبه في ظلمات كفره ولا يستفيد من نور الإيمان. وكذلك يسير الأعمى والمبصر جنبًا إلى جنب، فلا ينتفع الأعمى من عينَي المبصر.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في موضوع تعرق الناس يوم المحشر: «واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب».[٥١٧]

والخلاصةُ أنه ثمة أهوال يوم القيامة تُنسِي حتى المبشَّرين بالجنة في قبورهم ما وعدهم الله به من مغفرة.[٥١٨] فنعوذ بالله تعالى من تلك الأهوال...

شفاعة النبي ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ يومًا بلحم، فرُفِعَ إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نهسةً فقال:

«أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون:

٥١٧ القرطبي، التذكرة، ص٥٩٢.

٥١٨ انظر: ابن الجوزي، بستان الواعظين ورياض الصائمين، بيروت ١٤١٩، ص٣٦.

يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام:

إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا، فيقولون:

يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسمَّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم:

إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون:

أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم عليه السلام:

إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى عليه السلام**، فيقولون:**

يا موسى، أنت رسول الله فضَّلَكَ الله برسالاته، وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى عليه السلام:

إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون:

يا عيسى أنت رسول الله، وكلَّمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى عليه السلام:

إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبًا، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتوني فيقولون:

يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر،[٥١٩] اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

---

٥١٩ في هذه الجملة إشارة لقول الله تعالى في الآية الثانية من سورة الفتح: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾، وهذه العبارة استُعمِلَت للتأكيد؛ أي إن الله تعالى بهذه العبارة يشير إلى عصمة النبي ﷺ وحفظه من الذنوب.

وفيما يلي إيضاحات لكلمة "ذنب" الواردة في الآية:

* المقصود من الذنب اختيار النبي ﷺ الصحيح في اجتهاده لا الأفضل والأحسن، فسُمِّي اختياره "ذنبًا" والأصل أنه ليس بذنب، وذلك لرفعة شأن النبي وعظم مقامه لدى ربه. وقد قيل: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

* وقال بعض العلماء إن المقصود هنا ليس ارتكاب الذنب، بل التركيب كناية عن عدم المؤاخذة. والقصد من ما تأخر من الذنوب بعض ذنوب أمة النبي الذين ستُغفَر بدعاء النبي وشفاعته.

* المقصود من الذنب هنا الزلَّات، والزلَّة كل خطأ من غير قصد. وهذه الأخطاء أكانت سهوًا أو قصدًا قد تصدر عن الأنبياء فتقيهم من العُجب. وارتكاب الأنبياء أخطاء من حيث إنهم بشر يمنع أقوامهم من إضافة الإلوهية إليهم والمغالاة في تقديسهم.

* يحث هذا التعبير أمة محمد على الاستغفار.

* إذا نظرنا إلى زمان نزول هذه الآية ومكانها، نفهم بوضوح أن المقصود من الذنوب التي غفرها الله أخطاءُ المسلمين في حروبهم ومساعيهم من أجل نشر الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ في ١٩ سنة الماضية. ولا يعلم أحد بهذه الأخطاء، ويعجز العقل البشري عن البحث عن عيب أو قصور في هذه المساعي الصادقة، لكن الله تعالى يرى العيوب في هذه المساعي بمقياس الأفضل والأحسن، ولهذا لم يكن هناك نصر دائم للمسلمين على المشركين.

فالمقصود من قول الله تعالى: «لو أنكم بقيتم على جهادكم وأعمالكم بهذه الأخطاء، لما استطعتم هزيمة المشركين، ولمكثتم مدة أطول في سبيل ذلك. لكن غُفِرَت ذنوبكم وأخطاؤكم بلطف من الله وكرم منه، وفتحنا لكم فتحًا مبينًا في الحديبية، وإلا لما كان هذا الفتح بجهدكم».

فأنطلِق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي "قدر جمعة"[٥٢٠]، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يُقال:

يا محمد، ارفع رأسك، سل تُعطَه، اشفعْ تُشفَّع، فأرفع رأسي، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَرٍ[٥٢١]، أو كما بين مكة وبصرى»[٥٢٢].

ولا بد هنا من إدراك الأمر الآتي: إذا كان المجتمع يسعى لبلوغ أي غاية، فإن العيوب والأخطاء في هذا السعي تكون على قائد المجتمع. ولا يعني ذلك أن هذه العيوب والأخطاء عيوب القائد وأخطائه. فهذه الأخطاء أخطاء أفراد المجتمع جميعًا، ولكن القائد يتحمل الأخطاء لأنه مسؤول.

ونشير هنا إلى أن سورة النصر قد نزلت في أواخر حياة النبي ﷺ إشارةً إلى قرب وفاته. ويدعو الله تعالى في هذه السورة أمة محمد في شخصه إلى الحمد والتسبيح في وقت النصر بمقتضى العبودية، وإلى الاستغفار من الذنوب التي اقترفوها من غير أن يدركوها.

عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه**» قالت: فقلت يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه؟» فقال: «**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ﴾** [النصر، ١]، **فتح مكة،﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** [النصر، ٣]». [مسلم، الصلاة، ٢٢٠/ ٤٨٤]

٥٢٠ انظر: أحمد، مسند، ١، ٤؛ ابن حبان، صحيح، ١٤، ٣٩٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٣٧٤.

٥٢١ مدينة عظيمة هي قاعدة بلاد البحرين.

٥٢٢ انظر: البخاري، الأنبياء ٣، ٩، التفسير ١٧/ ٥؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٧، ٣٢٨؛ الترمذي، القيامة، ١٠.

وقال عليه الصلاة والسلام في رواية أخرى:

«فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يلهمنيه الله، ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل: يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان، فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل».[٥٢٣]

فنفهم من هذا الحديث الشريف أن الناس سيبحثون عن شفيع لهم كي ينجو من شدة يوم القيامة وأهوالها، فيكون شفيعهم النبي محمد ﷺ في نهاية المطاف.

فالنبي محمد ﷺ النبي الوحيد الذي سيفكِّر بأمته في وقت يبحث فيه حتى الأنبياء عن سبيل للنجاة، وهو الذي سيُعظَّم شأنه ويُستجَاب دعاؤه.

وللنبي ﷺ شفاعات خاصة بأمته، فهو القائل:

«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».[٥٢٤]

---

٥٢٣ مسلم، الإيمان، ٣٢٦/ ١٩٣.

٥٢٤ أبو داود، السنة، ٢٠-٢١/ ٤٧٣٩؛ الترمذي، القيامة، ١١/ ٢٤٣٥-٦؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٧؛ أحمد، مسند، ٣، ٢١٣/ ١٣٢٢٢.

لكن ينبغي ألا يجعلنا هذا الحديث الشريف نتراخى أو يكون سببًا لإهمال عبوديتنا لله ﷻ، فالذنب الصغير الذي نستحقره ونظن أنه سيُغفَر قد يكون ذنبًا عظيمًا عند الله ﷻ القائل في كتابه الكريم:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[٥٢٥]

وقد ذكر لنا النبي ﷺ حديث المرأة التي دخلت النار في هرة حبستها.[٥٢٦]

والعكس في هذا الموضوع صحيح، فقد يكون عمل الخير الصغير وسيلة لنيلنا رحمة الله تعالى ورضاه. قال رسول الله ﷺ:

«**بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: «**في كل كبد رطبة**[٥٢٧] **أجر**».[٥٢٨]

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«**مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأُدخِلَ الجنة**».[٥٢٩]

فعلينا الحذر من الذنوب جميعًا على قدر استطاعتنا، ونسعى لعمل الصالحات الصغيرة منها والكبيرة.

---

٥٢٥ النور: ١٥.

٥٢٦ انظر: البخاري، الأنبياء، ٥٤.

٥٢٧ في الإحسان إلى كل ذي كبد حية.

٥٢٨ البخاري، المساقاة، ١٠/ ٢٣٦٣؛ مسلم، السلام، ١٥٣/ ٢٢٤٤.

٥٢٩ مسلم، البر، ١٢٨/ ١٩١٤.

إن المقام المحمود المذكور في قوله تعالى:

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾(٥٣٠) هو الشفاعة.

وهذا المقام مخصوص لرسول الله محمد ﷺ كما ورد في الحديث الشريف، فهو عليه الصلاة والسلام سيكون في يده لواء الحمد، وسيجتمع الأنبياء جميعًا تحت لوائه.(٥٣١)

ولا بد هنا أن نذكر أن الأنبياء الذين يُستشفَع بهم قبل النبي ﷺ حينما لا يرون أنفسهم أهلًا للشفاعة بذكر زلاتهم الشخصية، فإنما ذلك دليل على أدبهم الرفيع وتواضعهم الشديد، ودلالة على أن الشفاعة درجات وأعلى درجاتها أنعم الله بها لنبيه محمد ﷺ. فالأنبياء بعد ذلك سيشفعون بإذن الله تعالى.

ولمَّا أُعطي النبي ﷺ ثلاث دعوات مُستجابات، قال:

«**اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم، حتى إبراهيم** عليه السلام». (٥٣٢)

وثمة أناس لا يقبلون أحاديث الشفاعة هذه وإنْ كانت صحيحة، ويرون أن لا أحد يشفع إلا الله تعالى، مع أنه سبحانه وتعالى قد أنزل آيات واضحات تبيِّن شفاعة مَن يؤذَن لهم بذلك، منها قوله تعالى:

﴿...مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾(٥٣٣)

﴿...مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ...﴾(٥٣٤)

---

٥٣٠ الإسراء: ٧٩.

٥٣١ انظر: الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٥، التفسير، ١٨؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٧.

٥٣٢ مسلم، المسافرين، ٢٧٣/ ٨٢٠.

٥٣٣ البقرة: ٢٥٥.

٥٣٤ يونس: ٣.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[٥٣٥]

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾[٥٣٦]

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٥٣٧]

نزول أهل السماء إلى الأرض

سينتهي الانتظار المليء بالخوف والقلق في ساحة المحشر بشفاعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ويبدأ الحساب، فينزل أهل السماء إلى الأرض، وينزلون في رواية مع دفاتر أعمال العباد.[٥٣٨]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قرأ:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾[٥٣٩] قال:

« تشقق سماء الدنيا وتنزل الملائكة على كل سماء، فينزل أهل السماء الدنيا وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، ثم ينزل أهل السماء الثانية وهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا.[٥٤٠] ويكون هكذا مع كل سماء حتى ينزل أهل السماء السابعة.[٥٤١]

---

٥٣٥ مريم: ٨٧.

٥٣٦ سبأ: ٢٣.

٥٣٧ طه: ١٠٩.

٥٣٨ انظر: روح البيان، جـ١٠، ص١٣٨.

٥٣٩ الفرقان: ٢٥.

٥٤٠ الحاكم، المستدرك، ٤، ٦١٣/ ٨٦٩٩.

٥٤١ انظر: النبأ، ٣٨؛ الفجر، ٢٢. قارن: الزمر، ٧٥.

تجلي الله سبحانه وتعالى

يتجلى الله سبحانه وتعالى بعد نزول أهل السماء، ويكون الناس والملائكة جميعًا صفًّا.

يقول الله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ[٥٤٢] اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[٥٤٣]

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥٤٤]

ويصف الله تعالى في كتابه الكريم مشهدًا رهيبًا يوم القيامة، فيقول:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٥٤٥]

ويخبرنا رسول الله ﷺ أن الناس سيُصعَقون يوم القيامة أمام عظمة الله تعالى وجبروته، حين يتجلى.[٥٤٦]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله- ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك».

---

٥٤٢ إن "الإتيان" الوراد في هذه الآية الكريمة يعني تجلي الله تعالى كما يشاء بصورة نجهلها في يوم المحشر، وبدء محاسبة العباد. ويرى بعض المفسرين أن المقصود من الكلمة "إتيان أمر الله تعالى وعذابه الشديد".

٥٤٣ البقرة: ٢١٠.

٥٤٤ الزمر: ٦٩.

٥٤٥ الفجر: ٢١-٢٢.

٥٤٦ انظر: البخاري، الخصومات، ١.

قال عبد الله: حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟.[٥٤٧]

ويبيِّن الله تعالى كيف سيُعرض الناس على الله تعالى صفًّا فيقول:

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾[٥٤٨]

دخول الجنة بغير حساب

ذكر رسول الله ﷺ الذين سيدخلون الجنة بغير حساب، فقال:

«وعدني ربي أن يُدخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات من حثياته».[٥٤٩]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان».[٥٥٠]

قال رجل: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال:

«كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة».[٥٥١]

أي يكفيه دليلًا على إيمانه ثباته أمام السيوف وبذله نفسه في سبيل الله تعالى.

---

٥٤٧ مسلم، القيامة، ٢٥/ ٢٧٨٨.

٥٤٨ الكهف: ٤٨.

٥٤٩ الترمذي، القيامة، ١٢/ ٢٤٣٧؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٤؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٥٠.

٥٥٠ مسلم، الإمارة، ١٦٣/ ١٩١٣. انظر أيضًا: الترمذي، فضائل الجهاد، ٢؛ النسائي، الجهاد، ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد، ٧.

٥٥١ النسائي، الجنائز، ١١٢/ ٢٠٥٣.

والشرط الأهم للشهادة عند الله تعالى "الإخلاص". فإذا كانت الشهادة في سبيل الله تعالى وحده من غير غاية دنيوية، فهي مفتاح لدخول الجنة. أما الموت في سبيل الملك أو المال أو الشهرة، فهو بعيد عن الشهادة كما ورد في الحديث الشريف.(٥٥٢)

فهذا يعني أن الشهداء الذين سيدخلون الجنة من غير حساب ليسوا مَن يأملون بإصابة نفع أو ثناء من الناس، بل هم المؤمنون المخلصون الذين لا ينتظرون أجرهم إلا من الله تعالى.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إذا وقف العباد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم، تقطر دمًا، فازدحموا على باب الجنة، فقيل: من هؤلاء؟ قيل: الشهداء، كانوا أحياء مرزوقين. ثم نادى مناد: ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية: ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة قال: ومن ذا الذي أجره على الله عز وجل؟ قال: العافين عن الناس، ثم نادى الثالثة: ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة، فقام كذا وكذا ألفًا، فدخلوها بغير حساب».(٥٥٣)

يقول الله تعالى في أمثال هؤلاء:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٥٥٤)

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد

٥٥٢ انظر: مسلم، الإمارة، ١٥٢/ ١٩٠٥.

٥٥٣ الطبراني، الأوسط، ٢، ٢٨٥/ ١٩٩٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٤١١/ ٤١٧٨١

٥٥٤ الشورى: ٤٠.

كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قُدَّامَهُم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولِمَ؟ قال: كانوا لا يكتوون[٥٥٥]، ولا يسترقون[٥٥٦]، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»

فقام إليه عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**اللهم اجعله منهم**» ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**سبقك بها عكاشة**».[٥٥٧]

وقال رسول الله ﷺ مبينًا صنفًا آخر من الناس سيدخلون الجنة بغير حساب:

«يُجمَع الناس في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، فينادي مناد: سيعلم أهل الجمع لمن الكرم اليوم» ثلاث مرات، ثم يقول: «أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع»[٥٥٨]، ثم يقول: «أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» [٥٥٩] إلى آخر الآية، ثم ينادي مناد: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم، ثم يقول: «أين الحمادون الذين كانوا يحمدون ربهم».[٥٦٠]

---

٥٥٥ الاكتواء استعمال الكي في البدن وهو إحراق الجلد بحديدة محماة.

٥٥٦ الاسترقاء طلب الرقية. والرقية أي طلب شفاء مريض من الله تعالى بقراءة بعض من الآيات والأحاديث جائزة. وثمة أحاديث تبين أن النبي ﷺ قد فعل هذا الأمر. لكن المذموم في الحديث هنا إنما هو توقع الشفاء من المخلوق ونسيان الخالق الشافي. ومثل ذلك مثل مَن يطلب الشفاء من الطبيب أو العلاج وينسى أن الله تعالى هو المشافي. والمؤمن يستطيع أن يتعالج بالوسائل التي سخرها له سبحانه وتعالى، لكنه لا يرى الشفاء من الأمور الفانية، بل يعلم أن الله تعالى هو الذي يشفي، كما جاء في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشورى، ٨٠]

٥٥٧ البخاري، الرقاق، ٥٠/ ٦٥٤١؛ مسلم، الإيمان، ٣٦٧-٣٧٤.

٥٥٨ انظر: السجدة، ١٦.

٥٥٩ انظر: النور، ٣٧.

٥٦٠ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٣٣/ ٣٥٠٨؛ البيهقي، شعب، ٤، ٥٣٩.

ونستطيع أن نسرد فيما يلي الأصناف الذين سيدخلون الجنة بغير حساب وفقًا لما جاء في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة:

- ✓ المتوكلون على الله تعالى توكلًا تامًّا.
- ✓ الذين لا يتطيَّرون.
- ✓ الذين لا يكتوون.
- ✓ الذين لا يسترقون.
- ✓ الشهداء.
- ✓ الذين يعفون عن الناس.
- ✓ الذين يقومون الليل.
- ✓ المنفقون في سبيل الله.
- ✓ الذاكرون الله والحامدون.

دخول النار بغير حساب

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إني وُكِّلتُ بثلاثة، بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصوِّرين[561]».[562]

---

٥٦١ يرى أهل العلم جواز رسم ما ليس له روح مثل مشهد طبيعي أو جبل أو غابة أو شجرة، لأن رسول الله ﷺ قد حرَّم تصوير ما له روح في كثير من الأحاديث الشريفة، ذلك أن المبالغة في الاهتمام بالصورة أو الهيكل تسوق الإنسان إلى الوثنية.
والمقصود هنا تصوير ما له روح بصناعة هيكل له، لأن في ذلك تشبيهًا بالخلق المقتصِر على الخالق ﷻ. أما الصورة فهي انعكاس لما هو موجود، فلا بأس في استعمالها للضرورة. وثمة تحريم في لبس الثياب التي تحمل صورًا لما له روح أو تعليق شيء من ذلك على الجدران. وقد رأى الأحناف كراهة الصور على الأقمشة التي تُمد على الأرض.

٥٦٢ الترمذي، جهنم، ١/ ٢٥٧٤؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٣٦؛ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ٥١/ ٣٤١٤١.

وفي رواية أخرى:

«**فيلقطهم من الصفوف لقط الطير حب السِّمسم، فيُحبَس بهم في جهنم**».[٥٦٣]

يقول الله تعالى في ذلك اليوم المهيب:

﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾[٥٦٤]

والمقصود من المجرمين هنا المتكبرون والمنكرون والمنافقون والمشركون، فهؤلاء الأصناف الأربعة لن يخرجوا من النار.

يقول المفسر إسماعيل حقي البورصوي:

«يشير الامتياز هنا إلى امتياز المؤمن والكافر في المحشر والمنشر بابيضاض وجه المؤمن واسوداد وجه الكافر، وبايتاء كتاب المؤمن بيمينه وبايتاء كتاب الكافر بشماله، وبثقل الميزان وبخفته، وبالنور وبالظلمة، وثبات القدم على الصراط وزلة القدم عن الصراط، وغير ذلك».[٥٦٥]

ويقول الله تعالى عن هذه الحقيقة في آية أخرى:

﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ**﴾[٥٦٦]

قال الحسن البصري رحمه الله:

«لئن كانوا اجتمعوا في الدنيا ليتفرقن يوم القيامة هؤلاء في أعلى عليين وهؤلاء في أسفل سافلين».[٥٦٧]

وقال رسول الله ﷺ في بيان عدد الذين يُرمون في النار:

---

٥٦٣ ابن المبارك، الزهد، ٢، ١٠١.

٥٦٤ يس: ٥٩.

٥٦٥ البورصوي، روح البيان، ٧، ٤٢٠.

٥٦٦ الروم: ١٤.

٥٦٧ روح البيان، ٧، ١٣.

«أول من يُدعَى يوم القيامة آدم، فتراءى ذُرِّيَّتُهُ، فيقال: هذا أبوكم آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: أَخرِجْ بَعْثَ جهنم[٥٦٨] **من ذريتك، فيقول: يا رب كم أُخرِج، فيقول: أَخرِج من كل مئة تسعة وتسعين»**

فقالوا: يا رسول الله، إذا أخذ منا من كل مئة تسعة وتسعون، فماذا يبقى منا؟ قال:

«إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود».[٥٦٩]

وعن أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرجْ بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٥٧٠]**»**.

فاشتد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله، أَيُّنا ذلك الرجل؟ قال:

«أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم رجل» ثم قال: **«والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة»**

قال: فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال:

«والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو الرَّقْمَة[٥٧١] **في ذراع الحمار»**.[٥٧٢]

---

٥٦٨ الذين استحقوا أن يبعثوا إلى النار.

٥٦٩ البخاري، الرقاق، ٤٥/ ٦٥٢٩.

٥٧٠ الحج: ٢.

٥٧١ الرقمة: الخط والرقمتان في الحمار هما الأثران اللذان في باطن عضديه والغاية بيان قلة عدد المؤمنين بالنسبة إلى الكافرين وأنهم غاية في القلة.

٥٧٢ البخاري، الرقاق، ٤٦/ ٦٥٣٠؛ مسلم، الإيمان، ٣٧٩/ ٢٢٢..

وضع الكتب

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[٥٧٣]

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥٧٤]

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾[٥٧٥]

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥٧٦]

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٥٧٧]

لا أحد يعلم هيئة كتاب الأعمال إلا الله تعالى، لكننا نعلم أنه كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الأعمال، وذلك من قوله تعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٥٧٨]

---

٥٧٣ الإسراء: ٧١.

٥٧٤ الجاثية: ٢٨.

٥٧٥ الإسراء: ١٣.

٥٧٦ الزمر: ٦٩.

٥٧٧ الإسراء: ١٤.

٥٧٨ الكهف: ٤٩.

فنجد في هذه الآية أن الناس يشْكُون من كتابة أصغر الذنوب في هذا الكتاب، لا من ظلم يقع عليهم.

وحذَّر النبي ﷺ أمتَه في هذا الشأن إذ قال لعائشة رضي الله عنها:

«**يا عائشة إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالبًا**».(٥٧٩)

وقال في رواية أخرى:

«**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**».

وضرب رسول الله ﷺ لهن مثلًا كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سوادًا فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها.(٥٨٠)

فعلى المرء إذا أذنب ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا، أن يدرك أمام مَن أذنب، وإذا وقع في أي ذنب، فعليه أن يسارع إلى التوبة والندامة.

وفي يوم القيامة سيفرح مَن يؤتَى كتابه بيمينه فرحًا عظيمًا خالدًا، وسيشعر مَن يؤتَى كتابه بشماله أو وراء ظهره بعذاب الوقوع في الخسران الأبدي شعورًا يضربه في صميمه. وقد أخبرنا الله تعالى عن أحوالهم في كتابه العزيز في قوله:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾(٥٨١)

---

٥٧٩ ابن ماجه، الزهد، ٢٩/ ٤٢٤٣؛ الدارمي، الرقاق، ١٧؛ أحمد، مسند، ٦، ٧٠، ١٥١.

٥٨٠ أحمد، مسند، ١، ٤٠٢-٤٠٣؛ ٥، ٣٣١/ ٣٨١٨.

٥٨١ الحاقة: ١٩-٢٦.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا. إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا. إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾[٥٨٢]

فمَن اغتر بأهواء النفس والشيطان في هذه الحياة الفانية وظنَّ الرذالة سعادة فسعى لنيل اللذات، فسوف يلقى عذابًا أليمًا في الآخرة، وأما مَن سعى لعيش حياته في تقوى وكان في عبودية لله تعالى تليق به، فسوف يعيش في طمأنينة وسعادة في الحياة الحقيقية في دار القرار.

وفي ذلك اليوم العصيب لن يفكر أحد بغيره، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: ذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ:

«ما لك يا عائشة؟»

قالت: ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أما في ثلاث مواطن فلا يذكر أحد أحدًا حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند الكتب حتى يقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[٥٨٣] حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أو من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافتاه كلاليب كثيرة وحسك كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا».[٥٨٤]

---

٥٨٢ الانشقاق: ٧-١٤.

٥٨٣ الحاقة: ١٩.

٥٨٤ الحاكم، المستدرك، ٤، ٦٢٢/ ٨٧٢٢؛ قارن: أحمد، مسند، ٦، ١٠١، ١١٠.

الحساب

حساب الحيوانات

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال:

«**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء،**[٥٨٥] **من الشاة القرناء**».[٥٨٦]

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان جالسًا وشاتان تقترنان فنطحت إحداهما الأخرى فأجهضتها، قال: فضحك رسول الله ﷺ فقيل له: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال:

«**عجبت لها والذي نفسي بيده ليقادن لها يوم القيامة**».[٥٨٧]

فحديث النبي ﷺ دليلٌ على حساب الحيوانات، وموعظةٌ بليغة لنا. وشمول الحساب حتى الحيوانات يجعلنا نتفكر بدقة الحساب الذي ينتظرنا.

فينبغي لنا أن نتعظ بما ورد في هذا الحديث، ونتجنب- ما استطعنا- أكل حقوق العباد والحيوانات، ونرأف بالمخلوقات كلها ونحسن معاملتها.

ولا ننسى أن المخلوقات قد سُخِّرَت لخدمة الإنسان وليعتبرَ بها، وهي أمانة لديه؛ فالرحمة بها وحماية حقوقها دَينٌ على كاهل الإنسان، والإساءة إليها سيكون لها وبال عظيم يوم القيامة.

ركبت عائشة رضي الله عنها بعيرًا، فكانت فيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال لها النبي ﷺ:

«**عليك بالرفق، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزَع من شيء إلا شانه**».[٥٨٨]

---

٥٨٥ التي لا قرن لها.

٥٨٦ مسلم، البر، ٦٠/ ٢٥٨٢؛ الترمذي، القيامة، ٢/ ٢٤٢٠.

٥٨٧ أحمد، مسند، مسند، ٥، ١٧٢/ ٢١٥١١.

٥٨٨ مسلم، البر، ٧٨، ٧٩/ ٢٥٩٤.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[٥٨٩] يُحشَر كل شيء حتى الذباب.[٥٩٠]

ستُحاسَب المخلوقات كلها بعد أن تُجمَع في ميدان الحشر، لكن حساب الحيوانات سيكون قبل حساب الناس، ثم تكون ترابًا بعد حسابها.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٥٩١]

وقال أبو هريرة رضي الله عنه في هذه الآية:

«يُحشَر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم، والدواب، والطير، وكل شيء فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا فذلك: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[٥٩٢]».[٥٩٣]

حساب الناس

لا شك أن من أشد مراحل الآخرة على الإنسان مرحلة الحساب، ففي تلك المرحلة سيُحاسَب على كل شيء فعله في مدرسة الدنيا الفانية وبذلك تُحدَّد وجهته، لذلك يكون في أعلى درجات اضطرابه وقلقه وفزعه ساعتئذ.

وتذكر الروايات أن الحساب الجماعي سيكون قبل الحساب الفردي، أي يُنادَى يوم المحشر: «يا أهل خطيئة كذا» فيقوم مرتكبوه فيُذلون أمام الخلق جميعًا.

٥٨٩ التكوير: ٥.

٥٩٠ ابن كثير، تفسير، (التكوير، ٥).

٥٩١ الأنعام: ٣٨.

٥٩٢ النبأ: ٤٠.

٥٩٣ الحاكم، المستدرك، ٢، ٣٤٥/ ٣٢٣١. قارن: الحاكم، ٤، ٦١٩/ ٨٧١٦.

لذلك كان التابعي الزاهد أبو حازم الأعرج يقول:

«يا أعرج، يُنادَى يوم القيامة يا أهل خطيئة كذا وكذا، فتقوم معهم، ثم يُنادَى يا أهل خطيئة أخرى فيقوم معهم، فأراك يا أعرج تريد أن تقوم مع أهل كل خطيئة». (٥٩٤)

عن ابن أبي مُليكَة ﵁ أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال:

«من حوسب عُذِّب»

قالت عائشة: فقلت أوليس يقول الله تعالى: **﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾**(٥٩٥) قالت: فقال:

«إنما ذلك العرض، ولكن: من نوقش الحساب يَهلِك». (٥٩٦)

والمقصود من "العرض" في الحديث الشريف عرض الناس على الميزان أو عرض الأعمال على أصحابها. وقد ذكر القرآن الكريم أن الحساب يوم العرض سيكون يسيرًا للمؤمنين الصالحين "أصحاب اليمين". (٥٩٧) وحينما يُبشَّر أهل اليمين بالعفو وتُعرَض عليهم أعمالهم، سيرون إلى جانب خطايهم النعم الكبيرة التي سينالونها، لذلك سيكون حسابهم حسابًا يسيرًا، أما الذين لا يُبشَّرون فسيكون حسابهم عسيرًا، ويرون أن كثيرًا من أعمالهم التي ظنوها حسنات قد رُدَّت، فيدركون أن هذا النقاش سيحملهم إلى العذاب، أو سيكون النقاش عينه عذابًا لهم. (٥٩٨)

---

٥٩٤ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٣، ٢٣٠.

٥٩٥ الانشقاق: ٨.

٥٩٦ البخاري، العلم ٣٦، الرقاق ٤٩؛ مسلم، الجنة، ٧٩، ٨٠؛ أبو داود، الجنائز، ١/ ٣٠٩٣.

٥٩٧ انظر: الواقعة، ٢٧-٤٠، ٩٠-٩١؛ المدثر، ٣٩-٤٠.

٥٩٨ Ahmed Naîm Efendi,Tecrîd-i Sarîh Tercemesi, I,100-101

ثمة كثير من الأعمال يظن صاحبها أنها حسنات لكنها عند الله تعالى لا تُقبَل لأنها كانت بمال حرام أو كان الدافع لها الرياء، فستكون مثل هذه الأعمال لصاحبها حسرة وندامة يوم القيامة. يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿**عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً**﴾[٥٩٩]

﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[٦٠٠]

لذلك لا يُستحَسن إطلاق المرء اسمه على مسجد أو معهد لتعليم القرآن أو مؤسسة خيرية يبنيها، لأن في ذلك فتحًا لباب الرياء والكبر والشهرة، والرياء كما جاء في الحديث «**الشرك الأصغر**»[٦٠١]. وعقيدة التوحيد لا تقبل أي نوع من الشرك قطعًا. لكن لا بأس في إطلاق اسم الميت على عمل خير حتى يكون ذلك وسيلة لدعاء الناسِ له، لأن خطر الرياء في هذه الحالة زائل.

الشهود

عندما يُحاسَب العبد يوم القيامة، سيكون لديه شهود، ذلك أن الكافرين والفاجرين سيبقون على إنكارهم واعتراضهم كما كانوا في الدنيا حتى حين عرضهم على الله تعالى، فيختم الله تعالى على أفواههم حينئذ، ويأمر أعضاءهم الأخرى بالنطق.

يقول الله تعالى:

﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٦٠٢]

---

٥٩٩ الغاشية: ٣-٤.

٦٠٠ الكهف: ١٠٣-١٠٤.

٦٠١ انظر: أحمد، مسند، ٥، ٤٢٨، ٤٢٩.

٦٠٢ النور: ٢٤.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٦٠٣)

﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٦٠٤). (٦٠٥)

وقال رسول الله ﷺ:

«... يقول الله تعالى لعبده: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع، فيقول: بلى، أي رب فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه».(٦٠٦)

ويقول في رواية أخرى:

«يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا،

٦٠٣ يس: ٦٥.

٦٠٤ فصلت: ٢٠-٢١.

٦٠٥ انظر: البخاري، تفسير ٤١/ ١، ٢، التوحيد ٤١؛ مسلم، صفات المنافقين، ٥؛ الترمذي، تفسير، ٤١/ ٣٢٤٨.

٦٠٦ مسلم، الزهد، ١٦/ ٢٩٦٨.

وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بُعدًا لكنَّ وسُحقًا، فعنكن كنت أناضل».[٦٠٧]

ويخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم أن الأرض أيضًا ستشهد على الإنسان إلى جانب أعضائه، إذ يقول:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[٦٠٨]

عن أبي هريرة ﵁ قال:

قرأ رسول الله ﷺ: **﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾** قال: «**أتدرون ما أخبارها؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

«**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها**».[٦٠٩]

وقال رسول الله ﷺ:

«**...تَحَفَّظُوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيرًا أو شرًّا إلا وهي مخبرة**».[٦١٠]

ولا شك أنه ثمة شهود من الملائكة والناس في ذلك اليوم، غير أن أعظم الشاهدين هو الله تعالى القائل في كتابه العزيز:

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٦١١]

---

٦٠٧ مسلم، الزهد، ١٧/ ٢٩٦٩.

٦٠٨ الزلزلة: ٤-٥.

٦٠٩ الترمذي، القيامة، ٧/ ٢٤٢٩؛ تفسير ٩٩/ ٣٣٥٣؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٧٤/ ٨٨٦٧.

٦١٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٢٤١/ ١٢٤٢.

٦١١ الزمر: ٧٠.

فإذا أدركنا هذه الحقيقة، وتركنا الذنوب والآثام حياءً منه سبحانه وتعالى كما ينبغي، فلا حاجة لنا للشهود غيره سبحانه الرؤوف بعباده.

كان أحد الواعظين واقفًا على المنبر يوضِّح للناس أحوال الآخرة، وكان بين الجالسين الشيخ شبلي رحمه الله، فتكلم الواعظ عن الأسئلة التي سيسأل المولى ﷻ عباده عنها في الآخرة قائلًا:

«يُسأل المرء عن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن عمره فيمَ أفناه، وعن عباداته كيف أدَّاها، وعن مراعاته للحلال والحرام...»

ثم قال: «وسيُسأل عن كذا وعن وكذا...» وعدَّ أمورًا كثيرة. ولكن مع كل هذه الإيضاحات والتفصيلات، لم ينبِّه الناس إلى جوهر المسألة كلها، فقال له الشيخ شبلي بأسلوب لين:

«يا شيخي الواعظ، لقد نسيت السؤال الأهم؛ إن الله تعالى سيسأل عبده: يا عبدي، لقد كنتُ معك، وكنتُ أقرب إليك من حبل الوريد، فمعَ من كنت؟»

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾[٦١٢]

﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٦١٣]

﴿...وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ...﴾[٦١٤]

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾[٦١٥]

---

٦١٢ الحديد: ٤.

٦١٣ ق: ١٦.

٦١٤ الأنفال: ٢٤.

٦١٥ البقرة: ١٨٦.

فالله سبحانه وتعالى المنزه عن الزمان والمكان معنا نحن عباده، مطلع على جميع أحوالنا، شاهد على كل أعمالنا... فعلينا - نحن المؤمنين- أن نحذر من أي قول أو فعل لا يليق بأدب العبودية مدركين هذه الحقيقة إدراكًا تامًّا.

وفي يوم الحساب الرهيب سيُنادَى على سيد الثقلَين رسولنا الكريم محمد ﷺ ليكون شاهدًا على أمته، فالله تعالى يقول:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٦١٦)

وإذا كان المرء يستثقل في هذه الدنيا أن يُحاسَب أمام محبِّيه على ذنب ارتكبه، فلا بد لنا أن نتفكر في حالنا إذا حُوسِبنا في ذلك اليوم العظيم أمام الأنبياء والصالحين والشاهدين! فالذنوب التي اقترفناها في هذه الدنيا سِرًّا ستُعرَض هناك أمام كثير من الشهود.

لذلك خاطب نبينا الكريم المبعوث رحمة للعالمين أمته في خطبة الوداع فقال:

«**...إن الأنبياء مكاثرون فلا تخزوني فإني جالس لكم على باب الحوض**». (٦١٧)

ويقول الله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (٦١٨)

---

٦١٦ النساء: ٤١.

٦١٧ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٢٧١.

٦١٨ النساء: ٤٢.

شدة الحساب

ترى الكافرين والفاسقين والغافلين يعيشون في الحياة الدنيا كأنهم لن ينتقلوا إلى الآخرة ولن يُحاسبوا على أعمالهم، غير أنهم حينما يرون المشهد المهيب يوم الآخرة، فسيرضون بأن يفدوا بكل ما يملكون لا بل بأضعافه في سبيل النجاة من عذاب ذلك اليوم العصيب، لكن هيهات هيهات لهم ذلك، فقد سبق السيف العذل وفَاتَهُم ما كانوا يرجون. وقد وصف الله تعالى حالهم إذ قال:

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾[٦١٩]

وقد بيَّن رسول الله ﷺ شدة الحساب الإلهي في قوله:

«**يُجَاء بالكافر يوم القيامة، فيُقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا، أكنت تفتدي به؟**[٦٢٠] **فيقول: نعم، فيقال له: قد كنتَ سُئِلتَ ما هو أيسر من ذلك** -أي التوحيد-».[٦٢١]

وبيَّن في رواية أخرى أن المخاطَب: «**أهون أهل النار عذابًا**».[٦٢٢]

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«**اتقوا النار**» ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «**اتقوا النار**» ثم أعرض وأشاح ثلاثًا، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال:

«**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**».[٦٢٣]

---

٦١٩ المعارج: ١١-١٤.

٦٢٠ انظر: المائدة، ٣٦؛ يونس، ٥٤؛ الرعد، ١٨؛ الزمر، ٤٧.

٦٢١ البخاري، الرقاق، ٤٩/ ٦٥٣٨؛ مسلم، المنافقين، ٥٢-٥٣/ ٢٨٠٥.

٦٢٢ انظر: البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٦١؛ مسلم، المنافقين، ٥١.

٦٢٣ البخاري، الرقاق، ٤٩/ ٦٥٤٠؛ مسلم، الزكاة، ٦٨/ ١٠١٦.

وقال عليه الصلاة واسلام في حديث آخر:

«ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالًا؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن ألم أرسل إليك رسولًا؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة».[٦٢٤]

إن المُلكَ في الإسلام لله تعالى، وقد أمر الله تعالى عبادَه الأغنياء أن يُزكُّوا كل سنة بواحد من أربعين من أموالهم التي أكرمهم الله تعالى بها. ووضعُ صاحب الزكاة زكاته في محلها فرض.

وطلبَ الله تعالى من عباده أيضًا «الصدقة والإنفاق» إذ قال:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٦٢٥]

وهذا دليل على أن الإنفاق من الوسائل العظيمة التي تقرِّبنا من الله تعالى.

و"شق التمرة" المذكور في الحديث السابق هو لمَن لا يجد شيئًا يعطيه إلا تمرة، فلا يظنن الغني أنه ينجو من مسؤولية الإنفاق بتوزيع قليل من التمر. وهذا التعبير يبيِّن لنا عِظم قيمة الإنفاق في موضوع النجاة من النار، وأن الإنفاق عبادة ضرورية لكل مسلم. فإذا كان هناك أمر بإنفاق نصف التمرة لمَن يملك تمرة، فمن اليسير فهم المطلوب من ذي السعة واليُسر.

عن أبي ذر ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك».[٦٢٦]

---

٦٢٤ البخاري، الزكاة، ٩/ ١٤١٣.

٦٢٥ آل عمران: ٩٢.

٦٢٦ مسلم، البر، ١٤٢/ ٢٦٢٥.

ولما نزلت آية الأمر بالإنفاق، خرج حتى فقراء الصحابة كي يحتطبوا ويبيعوا الحطب في السوق وينفقوا ما يجنونه في سبيل الله.

وقد وضع الله تعالى قسطاسًا في هذا الشأن إذ قال:

﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ...**﴾[٦٢٧]

﴿**...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...**﴾[٦٢٨] و"العفو" هنا الفاضل عن الحاجة.

ومن الأحاديث الشريفة التي توضِّح شدة العذاب:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«**يُجَاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج**[٦٢٩] **فيوقف بين يدي الله فيقول الله له: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان فارجعني آتك به كله، فيقول له: أرني ما قدمت، فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتك به كله، فإذا عبد لم يقدم خيرًا، فيمضى به إلى النار**».[٦٣٠]

ويبيِّن الله تعالى حال الغافلين الذين يُحاسَبون في قوله:

﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**﴾[٦٣١]

فهذه الآية الكريمة من الآيات المليئة بالعِبر التي ينبغي لنا أن نتدبرها ونتفكر فيها. وهذه الحياة الدنيا التي لا تُقَاس بأبدية الآخرة مرحلةٌ زمنيةٌ كافيةٌ لنتفكر فيها

---

٦٢٧ آل عمران: ١٣٤.

٦٢٨ البقرة: ٢١٩.

٦٢٩ حَمل.

٦٣٠ الترمذي، القيامة، ٦/ ٢٤٢٧. قارن: مسلم، الزهد، ١٦.

٦٣١ فاطر: ٣٧.

ونعتبر، أي إن كلَّ واحد منا لديه الوقت الكافي للتدبر والتفكر، وقد جاءنا نبي يحذرنا من عذاب الآخرة، ووُضِعَت مؤلفات كثيرة في تفسير القرآن وسيرة النبي ﷺ، فما بقي لنا عذر أمام الله تعالى.

إذن علينا أن نترك الذنوب والمعاصي ونأتي الأعمال الصالحة، وعلينا أن نحاسب أنفسنا كثيرًا قبل أن نُحاسَب في الميزان الإلهي، حتى يكون حسابنا يسيرًا في ذلك اليوم...

تجلي الرحمة على المؤمنين

من صفات الله تعالى أنه "ستَّار العيوب"، لذلك سيُحاسِب سِرًّا قسمًا من عباده المؤمنين الذين يعفو عنهم، حتى لا تُعرَض ذنوبهم أمام الملأ فيستحوا منها.

عن صفوان بن محرز المازني رضي الله عنه قال:

بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده، إذ عرض رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى[٦٣٢]؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه**[٦٣٣] **ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأشهاد:**

﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٦٣٤]». [٦٣٥]

---

٦٣٢ هي التكالم سرًّا والمراد ما يقع بين الله تعالى وبين عبده المؤمن يوم القيامة من إطلاعه على معاصيه سرًّا فضلًا منه سبحانه.

٦٣٣ ستره وحفظه.

٦٣٤ هود: ١٨.

٦٣٥ البخاري، المظالم، ٢، تفسير، ١١/ ٤/ ٢٤٤١؛ أحمد، مسند، مسند، ٢، ٧٤.

والنجوى بين العبد وربه لطف ورحمة منه سبحانه، لذلك كانت نظرة أولياء الله إلى الحساب نظرة مختلفة، إذ يُروَى أن أبا يزيد البسطامي قال:

«الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله أن يحاسبني!»،

فقيل: لَمَ؟، قال:

«لعله يقول لي، فيما بين ذلك: يا عبدي! فأقول: لَّبيك! فقوله لي: يا عبدي! أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ ثم يفعل بي ما يشاء».[٦٣٦]

عمَّ يُسأل العبد؟

أخبرنا رسول الله ﷺ أن أول ما يُسأل عنه العبد من العبادات الصلاة عماد الدين، إذ قال:

«**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب ﷻ: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك**».[٦٣٧]

وأول ما يُسأَل العبد عنه في حقوق العباد "سفك الدماء". قال رسول الله ﷺ:

«**أول ما يُقضَى بين الناس في الدماء**».[٦٣٨]

فالمحاسبة على الدماء أولًا تبيِّن شدة غضب الله تعالى على قتل الإنسان ظلمًا.

---

٦٣٦ ابن الملقن، طبقات الأولياء، القاهرة ١٤١٥، ص٣٩٩-٤٠٠؛ الخاني، حدائق، ص٣٢٠.

٦٣٧ الترمذي، الصلاة، ١٨٨/ ٤١٣؛ النسائي، الصلاة، ٩/ ٤٦٢.

٦٣٨ البخاري، الديات، ١/ ٦٨٦٤؛ مسلم، القسامة، ٢٨/ ١٦٧٨.

إن قتل إنسان لأمر دنيوي ذنب عظيم، لكن الأعظم منه قتل مَن عُرِف بإيمانه، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٦٣٩)

وقد أخبرنا النبي ﷺ عن الأمور الأخرى التي سيُسأَل عنها العبد، إذ قال:

«**إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة**- يعني العبد- **من النعيم، أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد**».(٦٤٠)

«**لا تزول قدمَا عبد يوم القيامة حتى يُسأَل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**».(٦٤١)

إننا نعيش اليوم في "عصر المعرفة"، في عصر يسهل على المرء فيه أن يصل إلى أي معلومة يبتغيها، فلا يصح التذرع بالجهل. ومن اليسير على المسلم الذي يريد أن يتعلم دينه أن يقرأ ويبحث ويسأل، فينبغي ألا ننسى أننا سنُحاسَب يومًا على هذه النعمة العظيمة وأداء شكرها، وسنُحاسَب على ما نملأ به خزان عقولنا وعلى ما نزيِّن به قلوبنا. وعلينا أن نذكر دائمًا أن العلم الأساسي أن نعلم ديننا ونعيش حياتنا بتقوى.

ونرى اليوم كثيرًا من الشباب المثقفين المتعلمين المتخرجين في الجامعات، غير أنهم- مع الأسف- لا يعلمون شيئًا عن القرآن والسنة، لا بل يظنون أن علمهم العلمُ الممدوح في القرآن والسنة، مع أن العلم الذي لا يحمل قلب صاحبه وعقله

---

٦٣٩ النساء: ٩٣.

٦٤٠ الترمذي، التفسير، ١٠٢/ ٣٣٥٨.

٦٤١ الترمذي، القيامة، ١/ ٢٤١٧. انظر أيضًا: الدارمي، المقدمة، ٤٥/ ٥٤٣-٥٤٥؛ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ١٢٥/ ٣٤٦٩٤؛ البيهقي، شعب، ٣، ٢٧٨/ ١٦٤٨.

إلى الله تعالى، ولا يجعله يدرك عظمة الله تعالى وقدرته قد يرفعه درجة في هذه الحياة الدنيا، لكنه لا ينجيه من الوقوع في الخسران المبين يوم العرض على رب العالمين.

إن أفضل العلم علم الله تعالى ومعرفة الإنسان ربه وأن يكون له عبدًا كما يليق به سبحانه، فعلينا أن نحاسب أنفسنا كثيرًا، ونرى كم يشغل العلم بالكتاب والسنة حيزًا في حياتنا، ذلك أننا محاسبون غدًا على هذا الأمر أيضًا.

عن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال:

لما نزلت ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾[٦٤٢]

قال الزبير: يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: «**نعم**»، فقال: إن الأمر إذًا لشديد.[٦٤٣]

كان الصحابة الكرام يحذرون من أي عمل يُحاسَبون عليه، ويُحذِّرون الناس في هذا الشأن. يُروَى أن أبا هريرة مرَّ بإنسان يحمل لبنًا قد خلطه بالماء يبيعه، فقال له أبو هريرة رضي الله عنه:

«كيف لك إذا قيل لك يوم القيامة: خَلِّص الماء من اللبن».[٦٤٤]

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم على راحلته وأصحابه معه بين يديه، فقال معاذ بن جبل:

يا نبي الله أتأذن لي في أن أتقدم إليك على طيبة نفس؟ قال: «**نعم**» فاقترب معاذ إليه فسارا جميعًا، فقال معاذ: بأبي أنت يا رسول الله، أن يجعل يومنا قبل يومك أرأيت إن كان شيء ولا نرى شيئًا إن شاء الله تعالى فأي الأعمال نعملها

---

٦٤٢ الزمر: ٣١.

٦٤٣ الترمذي، تفسير، ٣٩/ ٣٢٣٦.

٦٤٤ البيهقي، شعب، ٧، ٢٣١/ ٤٩٢٧.

بعدك؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال: «**الجهاد في سبيل الله**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ الشيء الجهاد، والذي بالناس أملك من ذلك فالصيام والصدقة**» قال: «**نِعمَ الشيء الصيام والصدقة**» فذكر معاذ كل خير يعمله ابن آدم فقال رسول الله ﷺ: «**وعاد بالناس خير من ذلك**» قال: فماذا بأبي أنت وأمي عاد بالناس خير من ذلك؟ قال: فأشار رسول الله ﷺ إلى فيه قال: «**الصمت إلا من خير**» قال: وهل نؤاخذ بما تكلمت به ألسنتنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ فخذ معاذ، ثم قال:

«**يا معاذ ثكلتك أمك- أو ما شاء الله أن يقول له من ذلك- وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا ما نطقت به ألسنتهم فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت عن شر، قولوا خيرًا تغنموا واسكتوا عن شر تسلموا**».[٦٤٥]

فهذا يعني أننا سنُحاسَب حتى على الكلمات التي تخرج من أفواهنا في الدنيا، أما الاستثناء في هذا الشأن فبيَّنه رسول الله ﷺ في قوله:

«**كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله**».[٦٤٦]

وسيُحاسَب المرء على الكلام الذي لا ينطق به وقت الضرورة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه فيقول له ما لك إلي وما بيني وبينك معرفة فيقول كنت تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني.[٦٤٧]

وكان أبو علي الدقاق رحمه الله يقول:

«من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس».[٦٤٨]

---

٦٤٥ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣١٩/ ٧٧٧٤.

٦٤٦ الترمذي، الزهد، ٦٣/ ٢٤١٢.

٦٤٧ المنذري، الترغيب والترهيب، ٣، ١٦٤/ ٣٥٠٦؛ الردواني، جمع الفوائد، ٥، ٣٨٤.

٦٤٨ القشيري، الرسالة، ١، ٢٤٥؛ النووي، الأذكار، ص٣٣٥/ ١٠٣٠.

وقال رسول الله ﷺ:

«من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».(٦٤٩)

وصفوة الكلام أنه على الإنسان أن يذكر دائمًا أنه سيُحاسَب على كل شيء في يوم لا يغيب فيه مثقال ذرة من خير أو شر.

تخفيف الحساب

لا بد من رد الحقوق إلى أهلها من أجل الخروج بسلامة من الحساب في ذلك اليوم العصيب، وقد أوصى رسول الله ﷺ أمتَه كثيرًا في هذا الشأن، إذ قال:

«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه».(٦٥٠)

وقال في حديث آخر:

«أيها الناس من كان عنده شيء فليرده ولا يقول فضوح الدنيا، وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة».(٦٥١)

وقد دعا رسول الله ﷺ بدعاء:

«رحم الله عبدًا كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فجاءه فاستحله»(٦٥٢)

إيضاحًا منه لضرورة التحلل في الدنيا من أجل تخفيف الحساب في الآخرة.

---

٦٤٩ مسلم، الإيمان، ٧٨/ ٤٩.

٦٥٠ البخاري، المظالم ١٠/ ٢٤٤٩، الرقاق ٤٨.

٦٥١ الطبراني، المعجم الكبير، ١٨، ٢٨٠/ ٧١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ٢، ٣١٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٢٦/ ١٤٢٥٢.

٦٥٢ الترمذي، القيامة، ٢/ ٢٤١٩.

ولا ننسى أن حق العباد أمر مهم جلل يبقى في يوم القيامة، فمَن جاء في يوم القيامة وعليه حقوق للعباد فقد أفلس كما ورد في الحديث الشريف.

فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ، قال: «

أتدرون ما المفلس؟»

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال:

«إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار».[٦٥٣]

وقال سفيان الثوري:

«إنك أن تلقى الله ﷯ بسبعين ذنبًا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد».

قال الإمام القرطبي في هذا القول:

«هذا صحيح لأن الله غني كريم وابن آدم فقير مسكين محتاج في ذلك اليوم إلى حسنة يدفع بها سيئة إن كانت عليه، حتى ترجح ميزانه فيكثر خيره وثوابه».[٦٥٤]

وعن محمد بن جحش ﵁ قال:

كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فرفع رأسه إلى السماء، ثم وضع راحته على جبهته، ثم قال: «**سبحان الله، ماذا نزل من التشديد**»

فسكتنا وفزعنا، فلما كان من الغد، سألته: يا رسول الله، ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال:

---

٦٥٣ مسلم، البر، ٥٩/ ٢٥٨١؛ الترمذي، القيامة، ٢/ ٢٤١٨.

٦٥٤ القرطبي، التذكرة، ص٧٢٦.

«**والذي نفسي بيده، لو أن رجلًا قُتِلَ في سبيل الله ثم أُحييَ، ثم قُتِلَ ثم أُحييَ، ثم قُتِلَ وعليه دين، ما دخل الجنة حتى يُقضَى عنه دينه**».(٦٥٥)

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين**».(٦٥٦)

فإذا كان حال الشهداء في موضوع حقوق العباد هكذا، فلا بد أن نتفكر في أحوالنا.

ومن أعظم الحقوق حق الوالدَين الذي لا يُمكن أن يُعوَّض بأي معروف، وطاعتهما تأتي بعد طاعة الله ورسوله. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾(٦٥٧)

لأن الوالدَين وسيلة مجيئنا إلى هذه الدنيا وهما المسؤولان عنا. وقد جعل الله تعالى رضاه مرتبطًا برضاهما، إذ قال رسول الله ﷺ:

«**رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**».(٦٥٨)

فحقوق والدينا علينا كثيرة لا تُعَد ولا تُحصَى، وهل يمكن أداء حق الوالدَين وقد استنفرا كل ما لديهما من أجل حمايتنا ورعايتنا؟ يقول رسول الله ﷺ في بيان هذه الحقيقة:

«**لا يجزي ولد والدًا، إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه**».(٦٥٩)

---

٦٥٥ النسائي، البيوع، ٩٨/ ٤٦٨٤.

٦٥٦ مسلم، الإمارة، ١١٩/ ١٨٨٦.

٦٥٧ الإسراء: ٢٣.

٦٥٨ الترمذي، البر، ٣/ ١٨٩٩؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ١٦٨/ ٧٢٤٩.

٦٥٩ مسلم، العتق، ٢٥/ ١٥١٠؛ أبو داود، الأدب، ١١٩-١٢٠؛ الترمذي، البر، ٨/ ١٩٠٦.

وقد أمر الله تعالى بحسن معاشرة الوالدَين وإطاعتهما من غير معصية الله[660] وإنْ كانا غير مسلمَين، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فالطريق إلى الجنة يمر من رضا الوالدَين، وقد جعل الله تعالى الجنة تحت أقدام الأمهات الصالحات، وجعل الأب أوسط أبواب الجنة،[661] فمَن برَّ بوالديه أفلح، ومَن عقَّهما خاب وخسر...

وهنا لا بد أن ننبه إلى موضوع مهم في هذا الشأن، فالوالدَان إذا أهملا تربية ولدهما التربية المعنوية السليمة، أو ربَّياه بصورة لا يرضى الله تعالى عنها، فكانا سببًا في جعله عبدًا عاصيًا، فإن ذلك الولد سيقاضيهما يوم القيامة، ويشكو بقول:

«يا رب، إن والدَيَّ لم يعلِّماني ولم يرشداني إلى الحق والحقيقة، ولم يكونا قدوة حسنة لي، ولم يؤديا واجبهما كما ينبغي...» فعندئذ يبحث الوالدان عن مهرب من ولدهما.

الميزان

سيُوضَع الميزان الذي لا نعلم ماهيته يوم الحساب، وسيُحاسَب الجميع على أعمالهم في الدنيا حسابًا عادلًا لا ذرة ظلم فيه.يقول الله ﷻ في هذا الشأن:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[662]

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[663]

---

٦٦٠ انظر: لقمان، ١٥.

٦٦١ انظر: الترمذي، البر، ٣؛ انظر أيضًا: ابن ماجه، الطلاق، ٣٦.

٦٦٢ الأنبياء: ٤٧.

٦٦٣ الأعراف: ٨-٩. قارن: المؤمنون، ١٠٢-١٠٣.

تذكر هذه الآيات الكريمة أحوال المؤمنين الصالحين، والمشركين الذين كذبوا بآيات الله، فأعمال الكافرين والمشركين ليست لها أي قيمة يوم القيامة وإنْ كان فيها أعمال خير، ذلك لأنهم من غير إيمان، فالإيمان الصحيح هو مَن يجعل للأعمال قيمة عند الله تعالى.

أما المذنبون الذين هم بين المؤمنين والكافرين، فيقول الله تعالى فيهم:

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٦٦٤)

ولا يرحم الله تعالى الذين لم يتوبوا أو لم تُقبَل توبتهم، فتغدو حسناتهم خفيفة في الميزان ثم يُلقَون في النار.

يقول الله تعالى في موضع آخر في بيان وزن الأعمال:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ. نَارٌ حَامِيَةٌ﴾(٦٦٥)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «**أنا فاعل**» قال: قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: «**اطلبني أول ما تطلبني على الصراط**». قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**». قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن**».(٦٦٦)

فهذا يعني أن رسول الله ﷺ سيشفع لأمته على الصراط وعند الميزان، وسيكرمهم عند الحوض.

---

٦٦٤ التوبة: ١٠٢.

٦٦٥ القارعة: ٦-١١.

٦٦٦ الترمذي، القيامة، ٩/ ٢٤٣٣؛ أحمد، مسند، جـ٣، ص١٧٨.

وقد ذكرنا في بحث الشفاعة أن الشفاعة حق وستكون بإذن الله تعالى، لكن الإذن بالشفاعة في عهدة الله تعالى، يأذن لمَن يشاء من عباده بالشفاعة. ولن يأذن الله تعالى لنبيه الكريم بالشفاعة لبعض من عباده أو سيأذن له بعد حين. فلا بد ألا نسيء فهم الشفاعة ونذكر أن كل شيء بيد الله تعالى.

ويعرض لنا النبي ﷺ مشهدًا من مشاهد يوم القيامة عند الميزان، فيقول:

«إن الله سيُخَلِّص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضُرْ وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء».[٦٦٧]

فيبيِّن هذا الحديث عظم فضل الإيمان بالله تعالى بمعناه الحقيقي، وأهميةَ كلمة التوحيد في ساعة خروج الأنفاس الأخيرة. لذلك أمرَ الله تعالى المؤمنين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٦٦٨]

ومما يُسعِد المرء عند الميزان «الأخلاق الحسنة» التي تعدُّ انعكاسًا للإيمان الحقيقي على الأحوال والأفعال.فقد قال رسول الله ﷺ:

«أثقل شيء في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن».[٦٦٩]

٦٦٧ الترمذي، الإيمان، ١٧/ ٢٦٣٩؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٥؛ أحمد، مسند، ٢، ٢١٣.

٦٦٨ آل عمران: ١٠٢.

٦٦٩ أحمد، مسند، ٦، ٤٤٢، ٤٥١/ ٢٧٤٩٦؛ ابن حبان، صحيح، ٢، ٢٣٠. قارن: أبو داود، الأدب، ٧/ ٤٧٩٩؛ الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢.

شفاعة المؤمنين والأعمال والقرآن

مما يُذكَر من أمور الآخرة شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض إضافةً إلى "الشفاعة العظمى" لنبي الله ﷺ. فقد قال عليه الصلاة والسلام:

«**يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم**»، قيل: يا رسول الله سواك؟ قال: «**سواي**».(٦٧٠)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يَصُفُّ الناسُ يوم القيامة صفوفًا**- وقال ابن نمير: أهلُ الجنة- **فيمر الرجل من أهل النار على الرجل فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربة؟ قال: فيشفع له، ويمر الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهورًا؟ فيشفع له، ويقول: يا فلان أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك، فيشفع له**».(٦٧١)

فنفهم من هذا الحديث عِظم أهمية قضاء حاجة عباد الله أكانت صغيرة أم كبيرة.

وقال عليه الصلاة والسلام في شفاعة القرآن الكريم لصاحبه:

«**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه...**».(٦٧٢)

«**إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك**».(٦٧٣)

إن القرآن الكريم كتاب مُعجِز يجعل المسلم يعيش في سعادة وطمأنينة في الدنيا والآخرة. والعيش في الدنيا كما يأمر القرآن الكريم واجب على كل مسلم،

---

٦٧٠ الترمذي، القيامة، ١٢/ ٢٤٣٨؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٧؛ الدارمي، الرقاق، ٨٦.

٦٧١ ابن ماجه، الأدب، ٨/ ٣٦٨٥.

٦٧٢ مسلم، المسافرين، ٢٥٢/ ٨٠٤.

٦٧٣ الترمذي، فضائل القرآن، ٩/ ٢٨٩١.

وإلا ستكون العاقبة وخيمة في الآخرة في وقت يأمل فيه المرء أن ينال الشفاعة العظمى أو شهادة القرآن الكريم له. وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن النبي ﷺ سيشكو إلى ربه الذين هجروا القرآن الكريم ولم يعملوا به، إذ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٦٧٤]

وأي شرف أعظم من أن يكون المؤمن مُخاطَبًا بالقرآن الكريم الذي يعد معجزة إلى قيام الساعة. فارتباط القلب بمحبة بهذا الكتاب الإلهي وصفة سعادة لنا جميعًا، لكن علينا أن نعلم أنه لا يكفي أن يقول الواحد منا: «أنا أحب القرآن». فإذا كنا نحب القرآن، فكم نعمل به؟ وكم نتخلق بأخلاقه؟ وكم نطبق أحكامه؟ وهل نرسل أولادنا ليتعلموه ويطبقوه؟

فعلينا دائمًا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة، ونسعى جاهدين لنتجنب التقصير في هذا الشأن.

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أما بعد فإن هذا القرآن كائن لكم أجرًا وكائن لكم شرفًا وذخرًا، فاتبعوه ولا يتبعنكم، فإنه من اتبعَه القرآن زخ[٦٧٥] في قفاه حتى يقذفه في النار، ومن تبعَ القرآن ورد به القرآن جنات الفردوس، فليكونن لكم شافعًا إن استطعتم، ولا يكونن بكم ماحلًا فإنه من شفع له القرآن دخل الجنة، ومن محل به القرآن دخل النار، واعلموا أن هذا القرآن ينابيع الهدى، وزهرة العلم، وهو أحدث الكتب عهدًا بالرحمن به يفتح الله أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا».[٦٧٦]

وصفوة الكلام أنه علينا أن نذكر دائمًا أبدًا أن القرآن الكريم يوم القيامة إما سيكون لنا شافعًا أو منًّا شاكيًا، والعياذ بالله.

---

٦٧٤ الفرقان: ٣٠.

٦٧٥ دفع ورمى.

٦٧٦ علي المتقي، كنز العمال، ٢، ٢٨٥-٢٨٦/ ٤٠١٩.

الصراط

وهو جسر يُقام فوق نار جهنم يوم القيامة يعبره الناس جميعًا بلا استثناء. ويكون عبور المرء وفقًا لدرجة إيمانه وأعماله في الدنيا، لذلك سيكون الصراط لبعض من الناس أدق من الشعرة وأحدَّ من السيف، ويتسع لآخرين فيعبرونه بيسر ليبلغوا الجنة التي أعدها الله تعالى لهم.[٦٧٧]

عن أبي هريرة ﵁ قال:

قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال:

«**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب**»

قالوا: لا يا رسول الله، قال:

«**هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب**»

قالوا: لا يا رسول الله، قال:

«**فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم**».

قال رسول الله ﷺ:

«**فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم. وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟**»

قالوا: بلى يا رسول الله، قال:

---

٦٧٧ انظر: البيهقي، شعب، ١، ٥٦٥/ ٣٦١.

«فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المُخَرْدَلُ...».(٦٧٨)

وقال رسول الله ﷺ عند حفصة يومًا:

«لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها»

قالت: بلى، يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾(٦٧٩)

فقال النبي ﷺ: قد قال الله ﷻ:

﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾(٦٨٠).(٦٨١)

فالمفهوم من ورود جهنم لأهل الجنة يعني مروروهم من الصراط فوق جهنم، ولا يعني دخولهم النار.

ويَعبُر أهلُ الجنة الصراطَ المستقيمَ وفقًا لأعمالهم، وقد قال النبي ﷺ في ذلك:

«يرد الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشد(٦٨٢) الرجل، ثم كمشيه».(٦٨٣)

وكلما بقي المرء على الصراط، تعرض للعذاب بحرارة نار جهنم ودخانها ورائحتها ومشاهدها، والأسوء من ذلك كله أنه يعيش لحظات مرعبة خوفًا من الوقوع في النار، لذلك كلما كان مرور المرء سريعًا، كان أسلمَ له.

---

٦٧٨ البخاري، الرقاق، ٥٢/ ٦٥٧٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٩٩/ ١٨٢.

٦٧٩ مريم: ٧١.

٦٨٠ مريم: ٧٢.

٦٨١ مسلم، فضائل الصحابة، ١٦٣/ ٢٤٩٦.

٦٨٢ الشد: العدو البالغ والجري.

٦٨٣ الترمذي، تفسير، ١٩/ ٣١٥٩.

قال عليه الصلاة والسلام:

«**فيمر أولكم كالبرق... ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلِّم سلِّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا**»، قال: «**وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمِرَت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار**».[٦٨٤]

فكل ذنب يرتكبه المرء في الدنيا يغدو كُلَّابًا معلقًا على الصراط، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الأمانة والرحم يقومان جانبَي الصراط يمينًا وشمالًا.[٦٨٥] وإنما ذكرَ رسول الله ﷺ الأمانة والرحم لِعِظَم أمرهما وكثرة المهملين لهما.

وقال رسول الله ﷺ:

«**شعار المؤمن على الصراط: رب سلِّم سلِّم**».[٦٨٦]

أما وقوف رسول الله ﷺ على الصراط فمن أجل الشفاعة، إذ قال عليه الصلاة والسلام:

«**يُضرَب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة**».[٦٨٧]

الانتظار بعد الصراط

يُحاسَب المؤمنون الذين يعبرون الصراط وعليهم جروح من الكلاليب، على الحقوق الصغيرة التي بقيت عليهم، وهؤلاء المؤمنون لن تنفد حسناتهم في القصاص ولن يُحرَموا من الجنة.

---

٦٨٤ مسلم، الإيمان، ٣٢٩/ ١٩٥.

٦٨٥ انظر: مسلم، الإيمان، ٣٢٩.

٦٨٦ الترمذي، القيامة، ٩/ ٢٤٣٢.

٦٨٧ مسلم، الإيمان، ٣٠٢/ ١٨٣.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عنهم إذ قال:

«يخلص المؤمنون من النار، فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا».(٦٨٨)

ويشير الحديث التالي أيضًا إلى موضوع الانتظار هذا:

«قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أُمِرَ بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء».(٦٨٩)

إن يوم القيامة يوم طويل عصيب، إلا أن الله سبحانه وتعالى سيسهِّل على عباده المؤمنين ذلك اليوم ويجعله يومًا يسيرًا.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

قيل لرسول الله ﷺ يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا».(٦٩٠)

٦٨٨ البخاري، الرقاق، ٤٨/ ٦٥٣٥.

٦٨٩ البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٤٧؛ مسلم، الزهد، ٩٣/ ٢٧٣٦.

٦٩٠ أحمد، مسند، ٣، ٧٥/ ١١٧١٧؛ البيهقي، شعب، ١، ٥٥٦/ ٣٥٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٣٣٧/ ١٨٣٤٧.

الذين لا خوف عليه ولا هم يحزنون

ثمة جماعة من الناس يكرمهم الله تعالى بالأمن والطمأنينة في يوم القيامة العصيب الذي يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦٩١]

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٦٩٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦٩٣]

ومن عباد الله الذين لا خوف عليه ولا هم يحزنون المذكورين في آيات أخرى:

✓ الذين يتبعون هدى الله تعالى ويتقون ويصلحون.[٦٩٤]

✓ الذين يؤمنون بالله تعالى ويوم الآخرة وأركان الإيمان الأخرى ويقيمون الصلاة ويعملون الصالحات ويعطون الزكاة.[٦٩٥]

✓ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ولا يمنون.[٦٩٦]

---

٦٩١ البقرة: ١١٢.

٦٩٢ يونس: ٦٢- ٦٣.

٦٩٣ فصلت: ٣٠. انظر أيضًا: الأحقاف، ١٣.

٦٩٤ انظر: البقرة، ٣٨؛ الأعراف، ٣٥؛ الجن، ١٣.

٦٩٥ انظر: البقرة، ٦٢، ٢٧٧؛ المائدة، ٦٩؛ الأنعام، ٤٨؛ طه، ١١٢؛ النور، ٥٥.

٦٩٦ انظر: البقرة، ٢٦٢.

✔ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية.[٦٩٧]

✔ الذين يقتلون في سبيل الله تعالى.[٦٩٨]

✔ الذين استحقرهم الكافرون وقالوا عنهم: لا ينالهم الله برحمة.[٦٩٩]

✔ الذين يتمسكون بكتاب الله ويرثونه ويسارعون إلى الخيرات.[٧٠٠]

✔ الذين اتقوا.[٧٠١]

✔ الذين آمنوا بآيات الله وكانوا مسلمين.[٧٠٢]

ولا بد لنا هنا أن نذكر عباد الله تعالى الذين يكرمهم بظله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقَا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».[٧٠٣]

«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».[٧٠٤]

---

٦٩٧ انظر: البقرة، ٢٧٤.

٦٩٨ انظر: آل عمران، ١٦٩-١٧٠.

٦٩٩ انظر: الأعراف، ٤٩.

٧٠٠ انظر: فاطر، ٣٢، ٣٤.

٧٠١ انظر: الزمر، ٦١.

٧٠٢ انظر: الزخرف، ٦٨-٦٩.

٧٠٣ البخاري، الأذان ٣٦/ ٦٦٠، الزكاة ١٦/ ١٤٢٣؛ مسلم، الزكاة، ٩١/ ١٠٣١.

٧٠٤ مسلم، البر، ٣٧/ ٢٥٦٦.

وعن أمير المؤمنين عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»

وقرأ هذه الآية:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٧٠٥). (٧٠٦)

وبيَّن رسول الله ﷺ قيمة الأخوة في الدين عند الله تعالى، إذ قال:

«إن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته مَلَكًا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها(٧٠٧)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه». (٧٠٨)

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال:

«من أنظر معسرًا أو وضع عنه، أظله الله في ظله». (٧٠٩)

«من أنظر معسرًا، أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله». (٧١٠)

---

٧٠٥ يونس: ٦٢.

٧٠٦ أبو داود، البيوع، ٧٦/ ٣٥٢٧؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ١٨٨/ ٧٣١٨.

٧٠٧ أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك.

٧٠٨ مسلم، البر، ٣٨/ ٢٥٦٧؛ أحمد، مسند، ٢، ٢٩٢/ ٩٩٥٨.

٧٠٩ مسلم، الزهد، ٧٤/ ٣٠٠٦.

٧١٠ الترمذي، البيوع، ٦٧/ ١٣٠٦؛ ابن ماجه، الصدقات، ١٤.

ولا بد هنا من إيضاح مسألة قبل الدخول في بحث الجنة وجهنم، آخر منازل الآخرة:

وهي أن الإنسان خُلِقَ ضعيفًا عاجزًا من نواح كثيرة، فالمسافة التي يراها بعينه مثلًا والأصوات التي يستطيع سماعها بأذنيه محدودة، والحقائق التي يستطيع أن يستوعبها بعقله معيَّنة. وهو في نهاية المطاف سيترك هذا البدن الذي يحكمه لحظةَ خروج أنفاسه الأخيرة فيوضَع في التراب.

وقد خلقه الله تعالى على هيئة تجعله يدرك الحقائق بصورة مشخصة إدراكًا أفضل، وجعلَ هذه الدنيا الفانية معرضًا للعِبر، فمَن أطاع أوامر الله تعالى في حياته كانت له الجنة، ومَن عصاها وغفلَ عن دين الإسلام دين الله الوحيد كانت له النار.

ولا بد لنا قبل أي شيء أن نبيِّن أن الجنة أو جهنم الموصوفة في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لا يمكن لنا أن ندركها بمعناها الحقيقي بعقولنا المحدودة بحدود الدنيا، فالمحدود لا يستطيع أن يحيط بغير المحدود، والفاني لا يستطيع أن يحيط بالخالد. فما ورَدَنا من أحوال الآخرة حقائق تستوعبها عقولنا كي لا نغفل عن الإعداد لعالم الخلود.

وقد خلقَ الله تعالى عوالم كثيرة لها صفات متباينة، وكأنه بذلك يعرض لنا تجليات علمه وقدرته المطلقة، وجعلَ الإنسانَ رحَّالةً في هذه العوالم.

إذ لما كان الإنسان في رحم أمه، كان في حياة مختلفة، كان يعيش على جسم أمه، ثم كان عليه أن يترك هذه الحياة ويدخل في حياة مختلفة، أي إلى هذه الدنيا الفانية. وهي حياة مختلفة لأنه لن يعيش في الماء بلا تنفس أو يتغذى على دم أمه كما كان، بل يعيش بالأوكسجين والطعام الذي يأكله.

وقد بيَّن مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة بقوله:



«لو قيلَ لأحدهم في رحم أمه: ثمة في الخارج عالَم جميل رائع، وأرض واسعة مليئة بالخير والبركات. هنالك نعم كثيرة وأطعمة لذيذة. جبال وبحار وصحارى وبساتين وحقول وحدائق وسهول ومروج.

هنالك سماء صافية تزيِّنها الشمس والقمر والنجوم.

هنالك رياح تهب من الشرق والغرب والجنوب والشمال.

تتزين البساتين كأنها عروس في حفل زفافها. ويعجز اللسان عن وصف جمال الدنيا وعجائبها.

إنك في رحم أمك تعاني من مِحَن ومشقات في ظلام دامس. أيها الولد، إنك مصلوب في ذلك المكان الضيق، لا تتغذى إلا على الدم. إنك في سجن وقذارة وأذى.

لكن الجنين ينظر إلى حاله، فلا يشكو ولا يتذمر مع أنه سمع هذه الكلمات، لا بل ينكر كل ما قيل، ولا يؤمن بهذه الأخبار الصادقة، فيقول: إن هذا الذي قيل محال. أتظنون أنكم تخدعون صغيرًا؟ هل تغرون طفلًا؟

وهكذا حال الناس في الدنيا، ينكرون أقوال أولياء الله وأخبار روحانياتهم. يقول لهم أولياء الله: إن هذه الدنيا كبئر ضيقة مظلمة. وثمة وراء هذه الدنيا عالَم لا مثيل له، ليس فيه ما تجدون هنا من روائح وألوان.

لكن كلماتهم هذه لا تجد أذنًا واعية».

وكذلك سيمر الإنسان إلى عالم آخر بعد موته، وستكون الظروف هناك مختلفة عن ظروف الدنيا اختلافًا تامًّا.

فالحياة هناك بلا موت، والنعم كثيرة لا تُحصى ولا تخطر على بال. والعذاب الذي يقع فيه أهله عذاب شديد لا مثيل له في الدنيا، أي إن النعم والعذاب هناك لا يُقاس بنعم الدنيا وعذابها، فالزمان والمكان هناك غير الزمان والمكان هنا. لذلك

يستطيع الإنسان إدراك فتات العلم بالآخرة بما بيَّنته الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وبالقياس على أساس انطباعاته في الدنيا.

وصفوة الكلام أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر عباده عبر أنبيائه كيف ستكون الحياة الأبدية وما ينبغي لهم أن يُعدُّوا، وبيَّن لهم الثواب والعقاب فيها، فمَن أعملَ عقله واتبع الهدى، نال ما لا يُحصَى من النعم، ومَن عصاه، استحق العذاب الشديد. وهذه حقائق واقعة لا محالة، لأن الله تعالى قادر على كل شيء.







جهنم

لا يخفى على أحد أن ليلة دنيوية مظلمة يعيشها المرء محرومًا من محبة الله ولذة العبودية له، وغارقًا في أهواء النفس وغوائلها، لن تجلب له صباح موت منير.

ولا ننسى أن سوء المُنقَلَب ولذاذات النفس وقهقهات الغفلة ما هي إلا نُذُرٌ للعاقبة الوخيمة في جهنم.

جهنم

لقد خلق الله تعالى الجنةَ التي هي موطن السعادة الأبدية، وجهنمَ التي سيدخلها مَن يستحق عذاب الله تعالى لعصيانهم إياه، وهما موجودتان الآن. وسيُؤتَى بجنهم إلى أرض المحشر بعد قيام الساعة، فيُعاقَب فيها مَن هربَ من شمس الهداية ورجَّح عليها ظلمة الكفر والعصيان.

فقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾(٧١١)

وقال رسول الله ﷺ مذكِّرًا بهذه الحقيقة ومنبهًا إلى عِظم جهنم:

«**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها**».(٧١٢)

ويخرج المذنبون من جهنم بعد أن يذوقوا العذاب فيها، غير أن الذين لم يؤمنوا بالله يبقون هناك في العذاب خالدين.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال:

«**يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، خلود**».(٧١٣)

---

٧١١ الفجر: ٢٣.

٧١٢ مسلم، الجنة، ٢٩/ ٢٨٤٢؛ الترمذي، جهنم، ١/ ٢٥٧٣.

٧١٣ البخاري، الرقاق، ٥٠/ ٦٥٤٤.

عظمة جهنم

روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثًا عن النبي ﷺ يبيِّن عظمة جهنم وكبرها وعمقها إذ قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجبة[٧١٤]، فقال النبي ﷺ: «**تدرون ما هذا؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال:

«**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرها**».[٧١٥]

لقد أسمعَ الله تعالى نبيَّه والصحابة الكرام بجانبه ذلك الصوت الذي لا يسمعه الإنسان عادةً كي يعتبروا به.

وهنا لا بد أن نذكِّر مرة أخرى أن مفهوم المكان لدينا قائم على ظروف الدنيا، أما مفهوم المكان والزمان في الآخرة فشيء مختلف. فظروف الدنيا تختلف عن ظروف عالَم البرزخ والآخرة. وعندما يموت الإنسان، سيدخل عالَمًا آخر، لذلك علينا حينما نقرأ عن أخبار البرزخ والآخرة أن نعلم أن العالَم بعد الحياة الدنيا مختلف في ظروفه عما نعيش فيه الآن، ولا نقيس تلك الأخبار على ظروفنا التي اعتدناها في الدنيا. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ**﴾[٧١٦]

وقد قال رسول الله ﷺ في هذه الآية:

«**لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا، فيسكنهم فضل الجنة**».[٧١٧]

---

٧١٤ أي سقطة.

٧١٥ مسلم، الجنة، ٣١/ ٢٨٤٤؛ أحمد، مسند، جـ٢، ص٣٧١.

٧١٦ ق: ٣٠.

٧١٧ مسلم، الجنة، ٣٨/ ٢٨٤٨.

فخلقُ الله تعالى خلقًا ليسكنهم في ما في الجنة من أماكن فارغة، وإغلاقُ الأماكن الفارغة في جهنم دليلٌ على أن الله تعالى لا يظلم أحدًا[718] وأن رحمته تفوق غضبه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال:

«**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم**»،

قيل يا رسول الله إن كانت لكافية قال:

«**فُضِّلَت عليهن بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرِّها**».[719]

وقد قال الإمام القرطبي في هذا الحديث:

«إنه لو جمع حطب الدنيا فأوقد كله حتى صار نارًا، لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم الذي هو من سبعين جزءًا أشد من حر نار الدنيا».[720]

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر مبينًا شدة حر جهنم:

«**اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضًا، فأذِنَ لها بنفسَين: نَفَسٍ في الشتاء ونَفَسٍ في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير**».[721]

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة يصدع العظام بردها فيسألون الحر».[722]

---

٧١٨ انظر: مسلم، الجنة، ٣٥-٣٩.

٧١٩ البخاري، بدء الخلق، ١٠/ ٣٢٦٥؛ مسلم، الجنة، ٣٠/ ٢٨٤٣.

٧٢٠ القرطبي، التذكرة، ص٨٦١.

٧٢١ البخاري، بدء الخلق، ١٠/ ٣٢٦٠.

٧٢٢ ابن رجب، لطائف المعارف، دار ابن الحزم، ١٤٢٤، ص٣٣٣.

إن النار في ظروف الدنيا تمحي مَا تحرقه من الوجود، غير أن الكافرين في النار لا يموتون بل يبقون في عذاب خالد لأنه لا موت في الآخرة. وتذكر بعض الأحاديث أن أجسام الكافرين تغدو أعظم حتى يذوقوا شدة العذاب أكثر.

وقد حذَّرنا ربنا سبحانه وتعالى الرحيم بعباده من الوقوع في هذا العذاب الشديد. وعلينا أن نذكر دائمًا أن الأخبار الواردة عن الآخرة في الكتاب والسنة ليست بأساطير، بل هي مثل الموت حقائق سيعيشها الإنسان، لذلك ينبغي أن ندرك جديَّة هذه الأخبار ونعمل بمقتضى ما فيها، ونستعد للحياة الأبدية ما دامت الفرصة بين أيدينا.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾[٧٢٣] قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم، فأوحى الله إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول:

﴿**أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى. ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى**﴾[٧٢٤].[٧٢٥]

عذاب جهنم

لن تكون شدة عذاب جهنم متساوية، بل سيذوق أهلها فيها صنوفًا من العذاب، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[٧٢٦]

---

٧٢٣ المدثر: ٣٠.

٧٢٤ القيامة: ٣٤-٣٥.

٧٢٥ السيوطي، لباب النقول، ص٢٠٧.

٧٢٦ النساء: ٥٦.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[٧٢٧]

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[٧٢٨]

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٧٢٩]

فيا لها من مظاهر عذاب مرعبة!

وقال الله تعالى في بيان عذاب جهنم:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٧٣٠]

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾[٧٣١]

وقال رسول الله ﷺ:

«**إن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت، ثم يعود كما كان، ثم تستقبله أيضًا، فتطلع على فؤادهم، فهو كذلك أبدًا**»، فذلك قوله:

---

٧٢٧ الأعراف: ٤١.

٧٢٨ الزمر: ١٦. قارن: العنكبوت، ٥٥.

٧٢٩ الأحزاب: ٦٦-٦٨.

٧٣٠ الحج: ١٩-٢٢. قارن: السجدة، ٢٠؛ المائدة، ٣٧.

٧٣١ الإنسان: ٤.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[٧٣٢]. [٧٣٣]

وقال الله تعالى واصفًا شجرة الزقوم التي هي طعام أهل النار:

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾[٧٣٤]

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾[٧٣٥]

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾[٧٣٦]

وقد وصف الله تعالى طعامًا آخر بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً. تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ. لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾[٧٣٧]

ونفهم من هذه الآيات أن الجوع الشديد نوع آخر من العذاب في جهنم.

---

٧٣٢ الهمزة: ٦-٧.

٧٣٣ ابن المبارك، الزهد والرقائق، جـ٢، ص٨٧؛ ابن أبي الدنيا، صفة النار، ص٩٤/ ١٣٨؛ ابن كثير، النهاية، جـ٢، ص١٤٧.

٧٣٤ الصافات: ٦٢-٦٨.

٧٣٥ الدخان: ٤٣-٤٨.

٧٣٦ الواقعة: ٥١-٥٥.

٧٣٧ الغاشية: ٢-٧.

عن جابر ﷺ أن رجلًا قدم من جيشان، وجيشان من اليمن، فسأل النَّبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة، يقال له: المِزْر، فقال النبي ﷺ:

«**أو مسكر هو؟**» قال: نعم، قال رسول الله ﷺ:

«**كل مسكر حرام، إن على الله ﷻ عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال**»

قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال:

«**عرق أهل النار**» أو «**عصارة أهل النار**».[٧٣٨]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بُولَس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**».[٧٣٩]

وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: كنا نغازي ومعنا عطاء الخراساني، وكان يحيي الليل صلاة، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثه، أقبل علينا ونحن في فساطيطنا، فنادى:

«يا زيد، ويا عبد الرحمن، ويا هشام بن الغاز قوموا فتوضؤوا، فصلوا صلاة هذا الليل، وصيام هذا النهار أهون من مقطعات الحديد، ومن شراب الصديد، الوحا الوحا، النجاء النجاء»، ثم يقبل على صلاته.[٧٤٠]

وقد خبَّرنا رسول الله ﷺ أن الأعضاء تكبر في جهنم إذ قال:

٧٣٨ مسلم، الأشربة، ٧٢/ ٢٠٠٢؛ أبو داود، الأشربة، ٥. انظر: إبراهيم، ١٦؛ الكهف، ٢٩؛ ص، ٢٧؛ الحاقة، ٣٥-٣٧؛ النبا، ٢٥.

٧٣٩ الترمذي، القيامة، ٤٧/ ٢٤٩٢؛ أحمد، ٢، ١٧٩/ ٦٦٧٧؛ البخاري، الأدب المفرد، رقم: ٥٥٧.

٧٤٠ البيهقي، شعب، ٤، ٥٢٨، ٥، ٤١٧؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٥، ص١٩٣؛ أحمد، الزهد، ٣٠٩.

«ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أُحُد وغلظ جلده مسيرة ثلاث».[٧٤١]

«ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع».[٧٤٢]

ولا شك أن الغاية من كبر أجسام أهل النار أن يذوقوا العذاب بالتمام.

وهنا علينا أن نذكر أن الله تعالى قد خلق النملة وخلق الفيل، وهو لو شاء، خلقَ النملة بحجم الفيل، أو الفيلَ بحجم النملة.

فالله تعالى قادر على أن يكبِّر حجم الناس يوم القيامة، فلا مبالغة في هذه الأحاديث، بل هي حقائق. فعلينا أن نقبل هذه الأحاديث التي جاءت إلينا بسند صحيح، وعلينا- كما ذكرنا من قبل- ألا نحاول أن نفهم أحوال الآخرة قياسًا على ظروف الدنيا، فالعالَم هناك عالَم مختلف.

قال رسول الله ﷺ في وصف أهل النار:

«إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته[٧٤٣]**، ومنهم من تأخذه إلى عنقه»**.[٧٤٤]

«إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان[٧٤٥] **من نار، يغلي منهما دماغه كما يغل المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا»**.[٧٤٦]

أما أشد عذاب أهل جهنم فهو حرمانهم من رؤية جمال الله تعالى ونيل رحمته.

---

٧٤١ مسلم، الجنة، ٤٤/ ٢٨٥١.

٧٤٢ مسلم، الجنة، ٤٥/ ٢٨٥٢.

٧٤٣ مقعد الإزار والسراويل.

٧٤٤ مسلم، الجنة، ٣٢/ ٢٨٤٥.

٧٤٥ الشراك أحد سيور النعل وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم.

٧٤٦ مسلم، الإيمان، ٣٦٤/ ٢١٣.

يقول الله تعالى في بيان هذه الحقيقة:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[٧٤٧]

عن أبي عمران الجوني، قال:

«لم ينظر الله تعالى إلى إنسان قط إلا رحمه، ولو نظر إلى أهل النار لرحمهم، ولكنه قضى أنه لا ينظر إليهم».[٧٤٨]

وقد وصف رسول الله ﷺ أحوال بعض من أهل النار. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا».[٧٤٩]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[٧٥٠]

فعلى مَن وقع في الذنوب التي تُبعِد عن رحمة الله وتجلب غضبه تعالى أن يلجأ إلى التوبة بدموع الندامة، ولا يطلب العفو من الله عز وجل القائل في كتابه العزيز:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٧٥١]

---

٧٤٧ المطففين: ١٥.

٧٤٨ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٢، ٣١٤.

٧٤٩ ابن ماجه، التجارات، ٥٨/ ٢٢٧٣.

٧٥٠ أبو داود، الأدب، ٣٥/ ٤٨٧٨؛ أحمد، مسند، ٣، ٢٢٤.

٧٥١ الزمر: ٥٣.

لكن هناك شرط وردَ في الآية التي تلتها:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾(٧٥٢)

أي لا بد من التوبة مباشرةً قبل فوات الأوان، والحذر من الموت على الذنوب.

وقد طلبَ الله تعالى من عبادة "توبة نصوحًا"، ووظيفة العبد أن يتجنب الذنوب ويعزم على عدم الرجعة إليها ويتوب نادمًا، ثم يلجأ إلى الله تعالى دائمًا كي يقبل توبته. فإنْ شاء الله تعالى، قبلَ توبة عبده وعفا عنه.

ولا بد من الحذر من ارتكاب الذنوب انطلاقًا من فكرة "أتوب لاحقًا"، لأنها من مكائد الشيطان التي يقع الإنسان فيها.

وقد قال الله تعالى منبهًا عباده من هذه المكيدة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(٧٥٣)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(٧٥٤)

فينبغي ألا ننسى أبدًا أن رحمة الله تعالى واسعة وعذابه شديد، فهو جلَّ شأنه "رحمن" و"قهار" في وقت واحد، وقد وصفَ ذاته بقوله:

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ...﴾(٧٥٥)

---

٧٥٢ الزمر: ٥٤.

٧٥٣ فاطر: ٥.

٧٥٤ لقمان: ٣٣.

٧٥٥ غافر: ٣.

يطلبون الهلاك

سيطلب الكافرون الذين يذوقون شدة العذاب في النار أن يهلكوا ويموتوا ولا يكونوا شيئًا، غير أن ذلك سيكون من المحال، بل سيمكثون في عذاب لا يُحيي ولا يُميت، فلا يموتون هناك حتى ينجوا، ولا يُخفَّف عنهم العذاب حتى يحيوا.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى. ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾(٧٥٦)

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ. وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾(٧٥٧)

إن مشهد العذاب هذا الذي يصوِّر نداء الاستغاثة مشهدُ الأرواح التي تتعذب والأجساد التي تهلك في ألم شديد، ويبيِّن الجواب على استغاثتهم أنهم مُستحقَرون لا قيمة لهم حتى بمقدار ذرة.

ومن الآيات التي تصوِّر استغاثة أهل النار:

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾(٧٥٨)

أي إن الكافرين حينما يذوقون العذاب الشديد في جهنم، سيتمنون من صميم قلوبهم الهلاكَ والفناء، غير أنه لا مناص لهم يومئذ.

يقول الله تعالى مبينًا هذه الحقيقة:

---

٧٥٦ الأعلى: ١١-١٣. انظر أيضًا: طه، ٧٤.

٧٥٧ الزخرف: ٧٤-٧٧. انظر أيضًا: فاطر، ٣٦.

٧٥٨ فرقان: ١٢- ١٤.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[٧٥٩]

عن شداد بن أوس الأنصاري، ﵁، أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول:

«اللهم إن النار أذهبت مني النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح».[٧٦٠]

وكان من دعاء التابعي صلة بن أشيم رحمه الله:

«اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، أوَمثلي يجترئ أن يسألك الجنة؟».[٧٦١]

الباب المفتوح على النار: الحرام الظاهر والباطن

إن كل شيء في امتحان الدنيا هذا له وجهان متضادان:

الإيمان والكفر، والحق والباطل، والخير والشر، والجمال والقبح، والحلال والحرام...

ويختار الإنسان بإرادته أحدهما، فيكون إما: مؤمنًا أو كافرًا، صالحًا أو فاسقًا، عادلًا أو ظالمًا، كريمًا أو بخيلًا، وبذلك يحدِّد في أي من هذَين التيَّارَين سيكون.

ويمر هذان التياران من مضيق الموت إلى القيامة ليصبا في ميدان الحشر، ثم يسيلا إلى جهتَين مختلفتَين.

إن الله تعالى يرزق جميع مخلوقاته في هذه الدنيا الفانية، وإذا بدا ظاهرًا التساوي في هذا الشأن بين المؤمن والكافر والمتقي والفاسق، فإن أهل الخير والشر سيتمايزان يوم القيامة بصورة واضحة.

---

٧٥٩ إبراهيم: ١٦-١٧.

٧٦٠ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٢٦٤.

٧٦١ أبو نعيم، حلية الأولياء، ٢، ٢٤٠.

فالله تعالى سينادي يوم القيامة:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾(٧٦٢) ثم يُسَاق المؤمنون والمتقون إلى الجنة، ويُساق الكافرون والفاسقون إلى جهنم.

ويصف الله تعالى حال المجرمين الذين يُساقون إلى النار فيقول:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ. فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾(٧٦٣)

وإذا أردنا أن تكون لحظة أنفاسنا الأخيرة لحظة لقاء بالله تعالى وهو راض عنا، فعلينا أن نعيش حياتنا شوقًا لتلك اللحظة ونعمل بمتقضاها. وإذا أردنا أن تكون عاقبتنا الجنة ورؤية جمال الله تعالى، فينبغي أن تكون أعمالنا موافقة لهذه الغاية، ذلك أن عاقبتنا في الآخرة منوطة بأعمالنا وأحوالنا في الدنيا.

والإنسان يُعِدُّ بيدَيه المصائب التي ستحل عليه، كما قال الله تعالى:

﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٧٦٤)

فعذاب جهنم ليس بتعذيب الله عبده، بل بظلم نفسه لأنه لم يعبأ بتحذير الله تعالى حين كان في الدنيا.

وإننا نخاف أحيانًا من الكوارث كالزلازل والسيول، ونخاف من الإفلاس، وخوفنا هذا طبيعي لأننا بشر، إلا أن الذي ينبغي لنا أن نخاف منه ذنوبُنا التي تبعدنا عن الله تعالى وتفسد قلوبنا.

---

٧٦٢ يس: ٥٩.

٧٦٣ المدثر: ٤١-٤٨.

٧٦٤ آل عمران: ١١٧.

فعلينا أن نخاف من ذنوبنا، علينا أن نخاف من الكلمات التي تخرج من أفواهنا، من أن نُحرَم من الرحمة والرأفة، وألا نمثِّل الإسلام التمثيل الصحيح.

علينا أن نخاف من جميع الذنوب كبيرها وصغيرها حتى نكون من العباد الذين «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿...**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾[٧٦٥]

فالآثام تسوق العبد إلى جهنم، غير أنها قد تكون ظاهرة أو باطنة، واضحة أو خفية.

وقد أمرنا الله تعالى في آية أخرى بترك الآثام بنوعَيها فقال:

﴿**وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ**﴾[٧٦٦]

فهذا يعني أنه على الإنسان أن يتجنب المحرمات الباطنة التي تفسد قلبه مثلما يتجنب المحرمات الظاهرة كالخمر والزنا والسرقة والظلم.

والآثام الظاهرة في الأصل نتيجة الباطنة منها. ويرتكب المرء الآثام الباطنة أكثر لأنه لا ينتبه إليها، وكثيرًا ما يستخف بها ولا يحذر من الوقوع فيها، مع أن تخلية القلب من الخصال القبيحة كالكِبر والحسد والبخل أمرٌ مهمٌ أهمية الحذر من الآثام الظاهرة.

ومن الآثام الباطنة التي ينبغي للعبد المؤمن الطالب مرضاة الله تعالى أن يحذرها:

---

٧٦٥ البقرة: ٢٧٦.

٧٦٦ الأنعام: ١٢٠.

الغرور والكبر

إن هاتَين الصفتَين القبيحتَين تجعلان صاحبهما في قلق واضطراب في الدنيا وترميانه في العذاب في الآخرة. وقد قال الله تعالى فيهما:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧٦٧)

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(٧٦٨)

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٧٦٩)

وقال رسول الله ﷺ:

«**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**».(٧٧٠)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق**(٧٧١)**، وغمط**(٧٧٢) **الناس**».(٧٧٣)

«**لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خُيلَاء**».(٧٧٤)

---

٧٦٧ القصص: ٨٣.

٧٦٨ لقمان: ١٨.

٧٦٩ الزمر: ٧٢.

٧٧٠ مسلم، البر، ٣٢/ ٢٥٦٤.

٧٧١ دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبّرًا.

٧٧٢ احتقارهم.

٧٧٣ مسلم، الإيمان، ١٤٧/ ٩١.

٧٧٤ مسلم، اللباس، ٤٢/ ٢٠٨٥.

الحسد

من المعاني التي تحملها كلمة «الحسد» الاعتراض بالقلب على تقسيم الله تعالى الأرزاق بين عباده. وأولى علامات وجود الحسد في قلب العبد أن يتمنى زوال النعمة عن المحسود، ويفرح بزوالها.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ أمته من هذه العِلَّة فقال:

«**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**».[٧٧٥]

«**دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».[٧٧٦]

«**ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**».[٧٧٧]

الغضب

إن الغضب الذي يعد من أهم العوامل التي تفسد الاعتدال والتوازن دلالةٌ على ضعف الإنسان وعجز في كفاءته، وخلل في التوازن العقلي، لأن الإنسان إذا غضب، غاب عقله. لذلك نجد أن كثيرًا من الجرائم تكون نتيجة الغضب.

والحق أن الغضب من نقاط ضعف الإنسان التي تسهِّل عمل الشيطان. فإذا غضب الإنسان، صار الشيطان يلعب به كما يلعب الصغير بكرته.

والعاقل مَن استطاع أن يضبط نفسه حين الغضب، فهذا يعني أن الغضب أشد أعداء الإنسان.

---

٧٧٥ أبو داود، الأدب، ٤٤/ ٤٩٠٣.

٧٧٦ الترمذي، صفة القيامة، ٥٦/ ٢٥١٠.

٧٧٧ البخاري، الأدب، ٥٧/ ٦٠٦٤.

عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ قال:

«**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».[٧٧٨]

وعنه ﵁، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال:

«**لا تغضب**» فردد مرارًا، قال: «**لا تغضب**».[٧٧٩]

وهنا لا بد أن نذكِّر أن الغضب إذا كان لأهواء النفس وأمور الدنيا، فهو صفة مذمومة، وأما إن كان في سبيل الله، ففضيلة، فالغضب من أجل الله تعالى واجب مهم أهميةَ كظم الغضب من أجل نيل رضا الله تعالى.

الرياء

إن دين الإسلام يأمر المسلمين بالابتعاد عن الرياء في الأعمال، فقد قال الله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٧٨٠]

وبيَّن الله تعالى في آية أخرى أن العمل الصالح الذي يؤديه المرء بنية الرياء لن يؤجَر عليه بل سيكون هباءً، إذ قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٧٨١]

---

٧٧٨ البخاري، الأدب، ٧٦/ ٦١١٤؛ مسلم، البر، ١٠٧/ ٢٦٠٩.

٧٧٩ البخاري، الأدب، ٧٦/ ٦١١٦.

٧٨٠ البينة: ٥.

٧٨١ البقرة: ٢٦٤.

ولا ننسى أن عقيدة التوحيد لا تحتمل أي نوع من أنواع الشرك. فقد قال رسول الله ﷺ:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»

قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال:

«الرياء، يقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء». (٧٨٢)

فهذا يعني أن الرياء في الأعمال التي ينبغي أن تكون لله تعالى قد تحمل الإنسان إلى الشرك. والحديث الآتي الذي رواه أبو هريرة ؓ يخبرنا عن عاقبة أهل الرياء، قال رسول الله ﷺ:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمَه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه، ثم ألقي في النار». (٧٨٣)

---

٧٨٢ أحمد، مسند، ٥، ٤٢٨، ٤٢٩/ ٢٣٦٣٠/ ٢٣٦٣٦.

٧٨٣ مسلم، الإمارة، ١٥٢/ ١٩٠٥.

البخل

وهو أن يحصر المرء النِّعَم التي أكرمه الله تعالى بها بنفسه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق**».(٧٨٤)

وقال رسول الله ﷺ:

«**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**».(٧٨٥)

«**ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**».(٧٨٦)

وقد بيَّن الله تعالى سوءَ عاقبة البخيل الذي لا ينفق ماله في سبيل رضا الله تعالى، فقال:

﴿**الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾(٧٨٧)

والبخل لجوء المرء إلى ماله وثقته بما يملك لا بلطف الله تعالى، وظنه أن ماله باق له إلى الأبد. والذي يقضي أيام الدنيا الفانية في سعي لجمع المال لن يجد شيئًا في يده حين يدخل القبر إلا حفنة من تراب، فمال الدنيا يبقى فيها، ولا يجد في الآخرة إلا الحساب الشديد على ما صنع بماله في الدنيا.

---

٧٨٤ الترمذي، البر، ٤١/ ١٩٦٢.

٧٨٥ مسلم، البر، ٥٦/ ٢٥٧٨.

٧٨٦ البخاري، الزكاة، ٢٧/ ١٤٤٢؛ مسلم، الزكاة، ٥٧/ ١٠١٠.

٧٨٧ الهمزة: ٢-٧.

وقال رسول الله ﷺ في خطبته:

«وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال، قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر[٧٨٨] له، الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك [وذكرَ] البخل أو الكذب والشنظير[٧٨٩] الفحاش».

وقال عليه الصلاة والسلام في دوام خطبته:

«وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد».[٧٩٠]

والعاقل مَن يجعل نِعَم الدنيا وسيلة للفوز بالآخرة بالكرم والتضحية والإيثار، لذلك خير المالِ المالُ الذي يبعثه صاحبه إلى الآخرة قبله.

الإسراف

وهو إظهار القوة من أجل كبت شعور الدونيَّة.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿...وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٧٩١]

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...﴾[٧٩٢]

---

٧٨٨ أي لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي وقيل هو الذي لا مال له وقيل الذي ليس عنده ما يعتمده.

٧٨٩ السيئ الخلق.

٧٩٠ مسلم، الجنة، ٦٣-٦٤/ ٢٨٦٥.

٧٩١ الأعراف: ٣١.

٧٩٢ الإسراء: ٢٧.

وقال رسول الله ﷺ:

«**إن الله حرم عليكم: عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**».[٧٩٣]

وإسراف المال يعني إنفاقه في ما لا يرضى عنه الله تعالى. والمال وسيلة كي يلبي الإنسان حاجاته الضرورية ويعيش في طمأنينة من غير أن يفتح يده سائلًا الناس. لكن الذين يبذرون المال يقعون في الحاجة إلى الآخرين بعد حين، أي إن إنفاق المال في سبيل الله تعالى وجعله زادًا للآخرة عمل صالح مقبول. ويستطيع المرء أن ينفق ماله على أقاربه المحتاجين أولًا، وهذا إنفاق حلال، أما الحرام فهو إنفاق المال في ما حرَّمه الدين.

وقد أوضحَت الآية الكريمة التالية أسلم مقياس في موضوع إنفاق المال:

﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[٧٩٤]

فالإسراف والبخل خلَّتان سيئتان من خلال أهل النار.

التجسس

وهو تتبع عيوب الناس، وأساسه سوء الظن فيهم.

والله تعالى "ستَّار العيوب" يغضب على تتبع معايب الناس الشخصية التي لا تؤثر في مصالح الناس العامة، فهو القائل:

﴿**لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**﴾[٧٩٥]

---

٧٩٣ البخاري، الاستقراض ١٩/ ٢٤٠٨، الأدب ٦/ ٥٩٧٥.

٧٩٤ الفرقان: ٦٧.

٧٩٥ النساء: ١٤٨.

فتتبع المساوئ والقبائح الخفية وكشفها سبب في رواجها في المجتمع كالوباء المعدي. لذلك قيل: شيوع مثل هذه الأحوال أشد من وقوعها، أي سماع الناس بها خطر كبير على أخلاق المجتمع.

قال رسول الله ﷺ:

«...**من استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون، أو يفرون منه، صُبَّ في أذنه الآنُك**[٧٩٦] **يوم القيامة...**».[٧٩٧]

الكذب

وهو على رأس الصفات التي تحمل صاحبها إلى النار.

قال رسول الله ﷺ:

«**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**»

فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال:

«**وإن قضيبًا من أراك**».[٧٩٨]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».[٧٩٩]

ومن المعلوم أن الكذب آفة مرتبطة باللسان، واللسان ناطق بما في القلب ويؤثر في كافة الأعضاء والأعمال. لذلك مَن صان لسانه عن الكذب، نجا من سوء المنقلَب الوارد في الحديث الشريف.

---

٧٩٦ الرصاص المذاب.

٧٩٧ البخاري، التعبير، ٤٥.

٧٩٨ مسلم، الإيمان، ٢١٨/ ١٣٧؛ الموطأ، الأقضية، ١١.

٧٩٩ البخاري، الأدب، ٦٩/ ٦٠٩٤.

والمؤمن لا ينسى أن كل كلمة تخرج من فمه تسجِّلها الملائكة فيحذر أشد الحذر من الكذب، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٨٠٠]

وقال رسول الله ﷺ مبينًا عاقبة الكذب في الآخر:

«**من تحلَّم بحلم**[٨٠١] **لم يره، كُلِّفَ**[٨٠٢] **أن يعقد بين شعيرتين**».[٨٠٣]

الغيبة

وهي أن يذكر المسلم أخاه المسلم بعيب يُحزِنُه إن ذُكِرَ في حضوره. وقد كرَّم اللهُ تعالى الإنسانَ بشرف رفيع وقيمة عظيمة، فجعل مما يضر بهذه القيمة بذكر العيوب في غيبة صاحبها ذنبًا عظيمًا، وهذا يُظهِر لنا أن ربنا تعالى الذي تغلب رحمته غضبه يحمي شرف حتى المذنبين.

وليس سبب منع الغيبة رغبة الله تعالى "حفظ حق العباد حتى المذنبين منهم" فحسب، بل لأن الغيبة تلعب دورًا في إفساد مشاعر السكينة والأمان والأخوة في حياة المجتمع.

والحق أن الغيبة من الذنوب العظيمة التي تفسد أخوة الإسلام، وتقلب النظام الاجتماعي، وتزيل روح الوحدة، وتزرع الحقد والخصومة في القلوب. ومع ذلك نجد كثيرًا من الناس ينطلقون من جهل فيتذرعون أن ما يقولونه صواب، وينسون أن الغيبة الحديث عن عيب موجود أصلًا في صاحبه، أما إنْ كان الحديث عمَّا هو غير موجود أصلًا فذلك البهتان.

---

٨٠٠ ق: ١٨.

٨٠١ تكلف الحلم أو ادعى أنه رأى حلماً.

٨٠٢ يوم القيامة، وذلك التكليف نوع من العذاب.

٨٠٣ البخاري، التعبير، ٤٥/ ٧٠٤٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال:

«أتدرون ما الغيبة؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

«ذكرك أخاك بما يكره»

قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال:

«إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهتَّه».(٨٠٤)

وقد قال الله تعالى محذِّرًا إيانا من الوقوع في الغيبة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾(٨٠٥)

ويتضح كبر ذنب الغيبة من تشبيهه بأكل الإنسان لحم أخيه. فعلى مَن اغتاب أخاه أن يذهب إليه ويستحلَّه. ولا بد له أن يعترف بذلك كأن يقول: «لقد قلتُ فيك كذا وكذا أمام فلان وفلان...». وإذا كانت الغيبة سببًا لفتنة، فعليه أن يكثر من الاستغفار ويتصدَّق، ويلجأ إلى الله تعالى نادمًا تائبًا.

فالغيبة من حقوق العباد التي يصعب تعويضها، والأسلمُ للمرء أن يصون لسانه من هذا الذنب.

وقد حذَّرنا رسول الله ﷺ من الغيبة فقال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».(٨٠٦)

---

٨٠٤ مسلم، البر، ٧٠/ ٢٥٨٩؛ أبو داود، الأدب، ٤٠/ ٤٨٧٤.

٨٠٥ الحجرات: ١٢.

٨٠٦ البخاري، الأدب، ٣١/ ٦١٣٥؛ مسلم، الإيمان، ٧٤/ ٤٧.

«من حمى مؤمنًا من منافق، أراه قال: بعث الله ملكًا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلمًا بشيء يريد شينه به، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال».[٨٠٧]

فالغيبة علامة على الهزيمة أمام النفس، ودلالة على سوء الخلق، وعلة معنوية تدمِّر الدارَين.

ولكم هو مؤسف أن نرى كثيرًا من الناس اليوم يقعون في هذا الذنب بسهولة من غير أن يشعروا بأي رادع في نفوسهم، لا بل يجعلون هذا الذنب دأبًا.

فنسأل الله تعالى أن يجعلنا حذرين أشد الحذر من هذا الذنب وغيره من الذنوب الظاهرة والباطنة.

الناجون من جهنم

ثمة أناس تحلوا بالإيمان، ولكن بقيت عليهم آثار الذنوب، فيدخلون النار مدة كي يتطهروا. وهؤلاء ينجون من جهنم ويدخلون الجنة بعفو وشفاعة أو بعد أن ينالوا عقابهم.

قال رسول الله ﷺ:

«حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في

٨٠٧ أبو داود، الادب، ٣٦/ ٤٨٨٣.

قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا»،

وكان أبو سعيد الخدري ﵁ [راوي الحديث] يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٨٠٨]،

فيقول الله ﷻ: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا[٨٠٩]، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر، أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟» فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا، أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا».[٨١٠]

وينبغي لنا ألا ننسى أن الدين وحدة كاملة، ينظِّم جميع صفحات الحياة، فلا يجوز تطبيقه حينًا وتركه حينًا آخر، والدين لا يُهمَل في أي مرحلة من مراحل

٨٠٨ النساء: ٤٠.

٨٠٩ أي فحماً.

٨١٠ مسلم، الإيمان، ٣٠٢/ ١٨٣.

العمر، وإلا كان جزاء ذلك نار جهنم التي لا يُخرَج منها إلا بإذن الله تعالى، وجهنم كما وصفها القرآن الكريم:

﴿بِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٨١١]

وقد خبَّرنا رسول الله ﷺ عن المؤمن الأخير الذي يخرج من جهنم إذ قال:

«حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج، ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار، فيقول: يا رب، قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك ابن آدم ما أغدرك، فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب أدخلني الجنة، ثم يقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها قيل له: تمن من كذا، فيتمنى، ثم يقال له: تمن من كذا، فيتمنى، حتى تنقطع به الأماني، فيقول له: هذا لك ومثله معه»

قال أبو هريرة ﵁: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولًا.[٨١٢]

---

٨١١ انظر: البقرة، ٢٠٦؛ آل عمران، ١٢.

٨١٢ البخاري، الرقاق، ٥٢/ ٦٥٧٣.

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم- أو قال بخطاياهم- فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر[٨١٣]**، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل».**[٨١٤]



٨١٣ جماعات في تفرقة.

٨١٤ مسلم، الإيمان، ٣٠٦/ ١٨٥.



الجنة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

(التوبة: ١١١)

خُلِقَت الجنة تجليًّا من تجليات رحمة الله وكرمه الذي لا ينقطع، فهي مكرمة إلهية خالدة مليئة بالنعم التي لا تخطر على بال بشر، وسينالها الذين عاشوا حياتهم على التقوى معتصمين بما جاء في الكتاب والسنة بعد خروج أنفاسهم الأخيرة في دار الابتلاء.

وقد بيَّن رسول الله ﷺ حقيقةَ الخلود في الآخرة بقوله:

«يُجَاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح[٨١٥]، فيُوقَف بين الجنة والنار،

فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟

فيشرئِبُّونَ[٨١٦] وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت،

قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟

قال فيشرئِبُّونَ وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح،

قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»

ثم قرأ رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٨١٧]
وأشار بيده إلى الدنيا.[٨١٨]

---

٨١٥ الأبيض الخالص.

٨١٦ يرفعون رؤوسهم إلى المنادي.

٨١٧ مريم: ٣٩.

٨١٨ مسلم، الجنة، ٤٠/ ٢٨٤٩.

وبيَّن عِظم فرح أهل الجنة وشدة ترح أهل النار بقوله:

«فيضجع فيذبح، فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء، لماتوا فرحًا، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها والبقاء، لماتوا ترحًا».[819]

«فلو أن أحدًا مات فرحًا لمات أهل الجنة، ولو أن أحدًا مات حزنًا لمات أهل النار».[820]

والسبب الوحيد لهذا الفرح والترح الشديدَين إنما هو الخلود، فهل تستوي حالة مَن يُعلَن أنه سيبقى في سعادة وطمأنينة إلى الأبد مع حالة مَن يُعلَن أنه سيبقَى في حزن وعذاب إلى الأبد؟ فالأول نجا من الخوف والحزن وصار إلى طمأنينة، والآخر ليس عنده أي أمل من الخروج مما هو فيه من عذاب! ولو كانت لديه ذرة أمل، لما كان في حزن شديد.

إن دخول المؤمنين الجنة لطفٌ وإحسان من الله تعالى.

وقد قال رسول الله ﷺ:

«لن ينجي أحدًا منكم عمله»

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:

«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة».[821]

إذن، لا بد للعبد أن يعبد الله تعالى ويطيعه ويعمل الصالحات ما استطاع، ولا يثق بكل ذلك، بل يلجأ إلى فضل الله تعالى وكرمه وإحسانه.

فمَن كان في أسر أهوائه وعاش حياته في كِبر وجحود، ولم يقلق من الحساب، وسعى وراء اللذات الدنيوية، فسيكون في خوف واضطراب في

---

٨١٩ الترمذي، تفسير، ١٩/ ٣١٥٦.

٨٢٠ الترمذي، الجنة، ٢٠/ ٢٥٥٨.

٨٢١ البخاري، الرقاق، ١٨/ ٦٤٦٣؛ مسلم، المنافقون، ٧١-٧٢/ ٢٨١٦.

الآخرة، وأما مَن خشيَ الله تعالى وخاف من عذابه فحذرَ من الوقوع في الحرام، فسينجو من الخوف في الآخرة، ويفوز فوزًا عظيمًا.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٨٢٢]

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٨٢٣]

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[٨٢٤]

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[٨٢٥]

وقال رسول الله ﷺ:

«**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**».[٨٢٦]

أي إن الجنة مسكن المؤمنين أصحاب القلوب الرقيقة الذين يخشون ألا ينالوا رضا الله تعالى فيتعرَّضون لغضبه، ويحذرون من الذنوب أشد الحذر، ويتجنبون إيذاء الناس، ويتوكلون على الله حق التوكل.

---

٨٢٢ النازعات: ٤٠-٤١.

٨٢٣ الرحمن: ٤٦.

٨٢٤ الطور: ٢٦-٢٨.

٨٢٥ فاطر: ٣٤-٣٥.

٨٢٦ مسلم، الجنة، ٢٧/ ٢٨٤٠.

سعة الجنة وجمالها

قال الله سبحانه وتعالى في سعة الجنة:

﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٨٢٧)

وقال رسول الله ﷺ:

«**في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين مئة عام**».(٨٢٨)

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر، وعمر منهم وأنعمَا**».(٨٢٩)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال:

«**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم**»

قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال:

«**بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**».(٨٣٠)

وقد روي عن وصف الجنة في الأحاديث الشريفة:

«**ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب**»(٨٣١)

---

٨٢٧ آل عمران، ١٣٣. انظر أيضًا: الحديد، ٢١.

٨٢٨ الترمذي، الجنة، ٤/ ٢٥٢٩.

٨٢٩ الترمذي، المناقب، ١٤/ ٣٦٥٨؛ ابن ماجه، المقدمة، ١١، أحمد، مسند، جـ٣، ص٢٦، ٩٨. قارن: البخاري، الرقاق، ٥١؛ مسلم، الجنة، ١٠.

٨٣٠ البخاري، بدء الخلق ٨/ ٣٢٥٦، الرقاق ٥١؛ مسلم، الجنة، ١١/ ٢٨٣١.

٨٣١ انظر: الترمذي، الجنة، ١/ ٢٥٢٥.

«إن في الجنة لشجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».[٨٣٢]

«إن في الجنة جنتين من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتين من ذهب آنيتهما وما فيهما».[٨٣٣]

نِعم الجنة

ثمة في القرآن الكريم آيات كريمة كثيرة تصوِّر نِعَم الجنة منها قوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٨٣٤]

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ. لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٨٣٥]

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[٨٣٦]

---

٨٣٢ البخاري، الرقاق ٥١/ ٦٥٥٢، بدء الخلق ٨/ ٣٢٥٢؛ مسلم، الجنة، ٦-٨؛ الترمذي، الجنة، ١/ ٢٥٢٤.

٨٣٣ الترمذي، الجنة، ٢/ ٢٥٢٨.

٨٣٤ البقرة، ٢٥.

٨٣٥ الحجر، ٤٥-٤٨.

٨٣٦ الكهف، ٣١.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(٨٣٧)

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا. وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا. مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا. وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا. وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا. قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا. وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا. عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا. وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا. وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا. عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾(٨٣٨)

وقال رسول الله ﷺ واصفًا الجنة:

«إن في الجنة لغرفًا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها»

فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال:

«هي لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام».(٨٣٩)

---

٨٣٧ الزخرف: ٦٩-٧٣.

٨٣٨ الإنسان: ١١-٢١.

٨٣٩ الترمذي، الجنة ٣/ ٢٥٢٧، البر ٥٣/ ١٩٨٤.

«الخيمة[٨٤٠] درة، مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلًا، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون».[٨٤١]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون[٨٤٢]»

قالوا: فما بال الطعام؟ قال:

«جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس».[٨٤٣]

ولا ريب أن أهل الجنة يدخلونها ويستمتعون بالنعم الكثيرة فيها، ولن يجدوا همًّا ولا غمًّا، وهم أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة.[٨٤٤]

وقال رسول الله ﷺ:

«إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة الأنجوج، عود الطيب وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء».[٨٤٥]

---

٨٤٠ انظر: الرحمن، ٧٢.

٨٤١ البخاري، بدء الخلق ٨/ ٣٢٤٣، تفسير ٥٥/ ٢؛ مسلم، الجنة، ٢٣-٢٥/ ٢٨٣٨.

٨٤٢ انظر: البقرة، ٢٥؛ آل عمران، ١٥؛ النساء، ٥٧.

٨٤٣ مسلم، الجنة، ١٨/ ٢٨٣٥. انظر أيضًا: البخاري، بدء الخلق ٨، الأنبياء ١.

٨٤٤ انظر: الترمذي، الجنة، ١٢/ ٢٥٤٨.

٨٤٥ البخاري، الأنبياء ١/ ٣٣٢٧، بدء الخلق ٨؛ مسلم، الجنة، ١٤-١٩/ ٢٨٣٤. انظر أيضًا: الترمذي، القيامة ٦٠، الجنة ٥؛ ابن ماجه، الزهد، ٣٩.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن كل مَن يدخل الجنة يكون على صورة آدم، أي مثله في طوله وجماله وكماله وخلوه من العيب، فقد كان طوله ستين ذراعًا. والخَلق لم يزل ينقص حتى الآن.(٨٤٦)

وليست النعم في الجنة من أجل إزالة ألم أو هم أو ضيق، فالأكل والشرب هناك ليسا لجوع وعطش، ورائحة المسك ليست لإزالة الرائحة السيئة، بل كلها نعم ولذات تتوالى. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾(٨٤٧)

وقال رسول الله ﷺ:

«**من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه**».(٨٤٨)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«**ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا**» **فذلك قوله** ﷻ:

﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٨٤٩).(٨٥٠)

---

٨٤٦ انظر: البخاري، الأنبياء ١، الاستئذان ١؛ مسلم، الجنة، ٢٨.

٨٤٧ طه: ١١٨-١١٩.

٨٤٨ مسلم، الجنة، ٢١/ ٢٨٣٦.

٨٤٩ الأعراف: ٤٣.

٨٥٠ مسلم، الجنة، ٢٢/ ٢٨٣٧. انظر أيضًا: الترمذي، تفسير القرآن، ٤١.

أنهار الجنة

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾(٨٥١)

وقال رسول الله ﷺ:

«**إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد**».(٨٥٢)

غير أن خمر الجنة لا يشبه خمر الدنيا، وقد وصفه الله تعالى في قوله:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ. وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ. كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾(٨٥٣)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال:

«**ذاك نهر أعطانيه الله، يعني في الجنة، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها كأعناق الجُزُر**»

قال عمر: إن هذه لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «**أَكَلَتُهَا أنعم منها**».(٨٥٤)

٨٥١ محمد: ١٥.

٨٥٢ الترمذي، الجنة، ٢٧/ ٢٥٧١.

٨٥٣ الصافات: ٤٥-٤٩.

٨٥٤ الترمذي، الجنة، ١٠/ ٢٥٤٢.

روعة لا يحيط الخيال بها

وصف رسول الله ﷺ عظمةَ الجنة وروعتَها فقال:

«**لَقَابُ قوس أحدكم، أو موضع قدم من الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها** - يعني الخمار- **خير من الدنيا وما فيها**».(٨٥٥)

«**لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السموات والأرض، ولو أن رجلًا من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم**».(٨٥٦)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

أهدي للنبي ﷺ جبة سندس وكان يَنهَى عن الحرير فعجب الناس منها فقال:

«**والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**».(٨٥٧)

سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ قال:

«**النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة**».(٨٥٨)

ومن المعلوم أن الإنسان في الدنيا يرى علامات الشيخوخة في صورة وجهه على المرآة يومًا بعد يوم، إلا أن ذلك سينعكس تمامًا في الجنة، أي سيزدادون جمالًا وحسنًا كل يوم.(٨٥٩)

وقد بيَّن رسول الله ﷺ هذه الحقيقة بقوله:

---

٨٥٥ البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٦٨.

٨٥٦ الترمذي، الجنة، ٧/ ٢٥٣٨.

٨٥٧ البخاري، بدء الخلق، ٨/ ٣٢٤٨، الهبة، ١٢/ ٢٦١٥.

٨٥٨ البيهقي، شعب الإيمان، ٦، ٤٠٩/ ٤٤١٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٤١٥/ ١٨٧٤٠.

٨٥٩ انظر: ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ٣٥/ ٣٤٠٠٥. قارن: مسلم، الجنة، ١٣.

«إن في الجنة لسوقًا، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون: وأنتم، والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا».(٨٦٠)

وأخبرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام بالنعم التي سيكرم الله تعالى بها آخر مؤمن يدخل الجنة:

«إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا، رجل يخرج من النار كبوًا، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها- أو: إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا- فيقول: تسخر مني- أو: تضحك مني- وأنت الملك» فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقول: «ذاك أدنى أهل الجنة منزلة».(٨٦١)

قال الله تعالى في هذا الشأن:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾(٨٦٢)

فإذا كان ذلك نصيب أدنى أهل الجنة منزلة، فماذا سيكون نصيب أعلاهم منزلة؟ فللجنة درجات، وقد خبَّرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام عنها بقوله:

---

٨٦٠ مسلم، الجنة، ١٣/ ٢٨٣٣.

٨٦١ البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٧١؛ مسلم، الإيمان، ٣٠٨/ ١٨٦.

٨٦٢ الإنسان: ٢٠.

«إن في الجنة مئة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة- أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة».[٨٦٣]

وإضافة إلى كل ذلك ثمة نعم كثيرة سيراها أهل الجنة هناك لأول مرة. قال رسول الله ﷺ:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٨٦٤]».[٨٦٥]

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، يقول:

شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال عليه الصلاة والسلام في آخر حديثه:

«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»

ثم اقترأ هذه الآية:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٨٦٦]».[٨٦٧]

---

٨٦٣ البخاري، الجهاد ٤/ ٢٧٩٠، التوحيد ٢٢/ ٧٤٢٣. انظر أيضًا: النسائي، الجهاد، ١٨.

٨٦٤ السجدة: ١٧.

٨٦٥ البخاري، بدء الخلق، ٨/ ٣٢٤٤.

٨٦٦ السجدة: ١٦-١٧.

٨٦٧ مسلم، الجنة، ٢-٥/ ٢٨٢٥.

تاج نعم الجنة: رضوان الله

إن الله سبحانه وتعالى سيكرم في الجنة عباده الذين عاشوا حياتهم في الدنيا كما ينبغي إكرامًا يليق بشأنه وعظمته، وعلى رأس هذه المكرمات الربانية يأتي "رضوان الله تعالى".

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٨٦٨]

وقد قال أهل الحكمة في هذه الآية:

«الجنات بما فيها إشارة إلى الجنة الجسمانية، والرضوان فهو إشارة إلى الجنة الروحانية، وأعلى المقامات إنما هو الجنة الروحانية... ثم يصير في أول هذه المقامات راضيًا عن الله تعالى، وفي آخرها مرضيًا عند الله تعالى، وإلى ذلك أشار بقوله: "راضية مرضية"[٨٦٩]».[٨٧٠]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٨٧١]

ورضا الله تعالى خير وأسمى من الجنة وما فيها من نعم، لأن رضاه أصل كل خير وسرور، وأساس كل شرف وسمو. لذلك كان الإخلاصُ في العبودية لله في الدنيا وجعلُ رضاه غاية، طلبًا لأعظم نعمة وسعادة.

---

٨٦٨ آل عمران: ١٥. انظر أيضًا: المائدة، ١١٩.

٨٦٩ الفجر: ٢٨.

٨٧٠ الرازي، مفاتيح الغيب، [آل عمران: ١٥].

٨٧١ التوبة: ٧٢.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**».(٨٧٢)

فنفهم من هذا الحديث الشريف عظمة محبة الله تعالى لعباده ورحمته بهم، ورغبته في أن يعيش عباده الذين أكرمهم بالجنة في طمأنينة وسعادة. فيسأل الله تعالى عن عباده من أهل الجنة وهم يتنعمون بالنعم هناك، وعندما يجيبونه، يكرمهم بأعظم النعم، وهي رضوانه تعالى، أي إنه يبشِّرهم بأنه لن يغضب عليهم أبدًا.

فما أعظم الشرف في أن يُخاطَب العبد الذي لا بضاعة لديه بهذه النعم والمكرمات والثناء من الله تعالى مالِك كل شيء في هذا الكون!

رؤية الله تعالى: التنعم بمشاهدة جمال الله

إن التمتع بالنظر إلى الله تعالى ذروةُ المكرمات الإلهية التي تُمنَح للعبد الذي نال رضاه تعالى. يقول الله تعالى:

﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾(٨٧٣)

وقال رسول الله ﷺ:

«**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**».(٨٧٤)

---

٨٧٢ البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٤٩، التوحيد، ٣٨/ ٧٥١٨؛ مسلم، الجنة، ٩/ ٢٨٢٩.

٨٧٣ القيامة: ٢٢-٢٣.

٨٧٤ مسلم، الإيمان، ٢٩٧/ ١٨١؛ الترمذي، تفسير القرآن، ١١/ ٣١٠٥.

وقد وصف أبو يزيد البسطامي رحمه الله حال أهل الله فقال:

«إن لله خواصًا من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار».(٨٧٥)

وقال المفسِّر إسماعيل حقي البورصوي رحمه الله:

«لنا ثلاثة أعياد عيد الإفطار وهو عيد الطبيعة. والثاني عيد الموت حين القبض بالايمان الكامل وهو عيد كبير. والثالث عيد التجلي في الآخرة وهو أكبر الأعياد».(٨٧٦)

فكل مؤمن يريد أن يتشرَّف بجمال الله تعالى والجنة عليه أن يسعى ليعيش حياة عبودية قائمة على التقوى كما جاء في الكتاب والسنة.

وعلى العبد أن يطلب في كل مراحل حياته الجنةَ التي لن ينالها إلا برضاه تعالى، وأن يستعيذ بالله تعالى من جهنم والعذاب فيها.

عن عمر بن الخطاب ﵁ قال في قوله تعالى:

﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾(٨٧٧): إذا مرَّ بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار.(٨٧٨)

فنسأل الله تعالى أن يُعيذنا من النار ويُدخِلنا في جنته! ويحشرنا في زمرة عباده الأخيار الذين يتشرفون برؤية جماله تعالى! آمين!

---

٨٧٥ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١٠، ٣٤؛ القشيري، الرسالة، ص٤٩٩.

٨٧٦ البورصوي، روح البيان، ١، ٢٩٥.

٨٧٧ البقرة: ١٢١.

٨٧٨ ابن أبي حاتم، تفسير، ١، ٢١٨؛ علي القاري، كنز، ٣٥٧/ ٤٢٣٠.

الباب المفتوح على الجنة: الفروض الظاهرة والباطنة

إن واجب المؤمن أن ينشغل في حياته بالإعداد للآخرة من غير أن يغتر بهذه الدنيا الفانية، من أجل ذلك عليه أن يسعى لزيادة عباداته وطاعاته وتضحياته في سبيل الله تعالى، فكل مظهر من مظاهر العبودية التي تكون وسيلة لنيل رضا الله تعالى هو بطاقة لدخول الجنة في الوقت نفسه.

ومن المعلوم أن الإنسان مخلوق له جانبان روحي وبدني، لذلك تنقسم أعماله إلى مادية ومعنوية، أو شكلية وروحية، أو ظاهرة وباطنة. والجانبان في كل عمل في سبيل الله تعالى يكمِّل أحدهما الآخر، أي إذا لم يكن أحدهما كان الآخر ناقصًا.

فللأعمال التي تحمل المرء إلى رضا ربه تعالى ودخول جنته جانب ظاهري هو الفروض كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد الذي يأتي بمعنى كل عمل في سبيل الله تعالى. لكن ثمة لهذا الجانب آداب معنوية لا بد من مراعاتها.

الفروض الظاهرة

أخبرنا رسول الله ﷺ عن بعض من الأعمال الظاهرة التي تكون وسيلة لدخول الجنة والفوز برضا الله تعالى.

فعن ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: «**سل**» فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «**أو غير ذلك**» قلت: هو ذاك. قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**».[٨٧٩]

وقيلَ لثوبان مولى رسول الله ﷺ:

أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة؟ فسكت. ثم سُئِل فسكت. ثم سُئِل الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال:

٨٧٩ مسلم، الصلاة، ٢٢٦/ ٤٨٩.

«عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة».[٨٨٠]

ولا شك أن المقصود من "السجود" في الحديث إنما هو الصلاة. ومقام رسول الله ﷺ في الجنة مقام عال فوق مقام الأنبياء. فلا بد للعبد إذا شاء مرافقة النبي ﷺ في الجنة من كثرة الصلاة بخشوع والتأسي به في أقواله وأفعاله.

والصلاة عماد الدين ومعراج المؤمن، وهي من أعظم الوسائل لنيل رضا الله تعالى والجنة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«من غدا إلى المسجد وراح، أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح».[٨٨١]

«ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة تطوعًا، غير فريضة، إلا بنى الله له بيتًا في الجنة، أو إلا بُنِيَ له بيت في الجنة».[٨٨٢]

«يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام تدخلون الجنة بسلام».[٨٨٣]

ورُويَ أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ، فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال:

«تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان».[٨٨٤]

---

٨٨٠ مسلم، الصلاة، ٢٢٥/ ٤٨٨. انظر أيضًا: أبو داود، التطوع، ٢٢؛ الترمذي، الصلاة، ١٦٩.

٨٨١ البخاري، الأذان، ٣٧/ ٦٦٢؛ مسلم، المساجد، ٢٨٥/ ٦٦٩.

٨٨٢ مسلم، المسافرين، ١٠٣/ ٧٢٨. انظر أيضًا: أبو داود، التطوع، ١؛ الترمذي، الصلاة، ١٨٩؛ النسائي، قيام الليل، ٦٦، ٦٧.

٨٨٣ الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥. انظر: ابن ماجه، القيامة ١٧٤، الأطعمة ١.

٨٨٤ البخاري، الزكاة ١/ ١٣٩٧، الأدب ١٠/ ٥٩٨٢؛ مسلم، الإيمان، ١٢- ١٥/ ١٤. انظر أيضًا: النسائي، الصلاة، ١٠.

وثمة أحاديث شريفة أخرى تبيِّن وجود أعمال كثيرة غير الصلاة تكون وسيلة لدخول الجنة. فعن أبي هريرة ﵁ قال، قال رسول الله ﷺ:

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». [٨٨٥]

ومن الأعمال الظاهرة العلمُ النافعُ، فقد قال رسول الله ﷺ:

«من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر». [٨٨٦]

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟»

قال أبو بكر: أنا، قال:

«فمن تبع منكم اليوم جنازة؟»

قال أبو بكر: أنا، قال:

«فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟»

قال أبو بكر: أنا، قال:

«فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟»

قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ:

«ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة». [٨٨٧]

---

٨٨٥ البخاري، العمرة، ١/ ١٧٧٣؛ مسلم، الحج، ٤٣٧/ ١٣٤٩.

٨٨٦ أبو داود، العلم، ١/ ٣٦٤١؛ الترمذي، العلم، ١٩.

٨٨٧ مسلم، فضائل الصحابة، ١٢/ ١٠٢٨.

ومن الأعمال الظاهرة التي ينال العبد بها رضا ربه والجنة الجهادُ في سبيل الله، يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٨٨٨]

وتشير الروايات أن هذه الآية نزلت في ليلة بيعة العقبة، فقال عبد الله بن رواحة ﵁ لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال:

«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**».[٨٨٩]

وقد أتمَّ عبد الله بن رواحة ﵁ هذه البيعة الرابحة في غزوة مؤتة، وقاتل الكفار بإيمان ثابت لا يلين، ففاز بجنات العليين.

وكذلك كان حال الصحابة الكرام الآخرين، إذ ظلوا يبلِّغون دين الله تعالى، وظلوا أوفياء لبيعتهم في العقبة، فكانت تجارتهم تجارة لا تبور.

ولا بد هنا أن نذكِّر بأمر مهم، وهو أن الأعمال الصالحة مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والعلم والتبليغ والجهاد تكون وسيلة للجنة حين تؤدَّى مع فروض الدين الأخرى، أي لا يظنن المرء أنه سينجو باقتصاره على إيفاء عمل من الأعمال الصالحة التي تبشِّر بالجنة، وإهمال أدنى حد من واجبات العبودية التي أمر بها الدين المبين.

---

٨٨٨ التوبة: ١١١.

٨٨٩ ابن كثير، تفسير، ٤، ١٩١.

الفروض الباطنة

ثمة فروض باطنة كثيرة إلى جانب الظاهرة، منها الأخلاق الحسنة، والإخلاص، والتقوى، والإحسان، والخشوع، والرحمة، والكرم، والعدل، والتواضع، والأدب، والعفة، والحياء، والصبر.

فالله تعالى مثلًا يأمرنا بالخشوع حين نقيم الصلاة التي هي لقاء معه سبحانه وتعالى، ويشترط علينا ألا نمنَّ حين نعطي الزكاة والصدقة للمحتاج، بل نشكره ونحسن إليه. ويأمرنا أن نجعل رضاه في كل العبادات مقصدنا ومطلوبنا، أي نراعي سر الإخلاص.

فلا يصل المؤمن إلى كمال الإيمان إلا بمراعاة الفروض الظاهرة والباطنة معًا. وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن الغاية من خلقه البشر "ليعبدون".[٨٩٠] وقد فسَّر بعض من أهل الله هذه الكلمة بكلمة "ليعرفون"، أي ليعرفوا الله تعالى حق المعرفة.

فمعرفة الله تعالى تعني معرفته في القلب، ولا يكون ذلك إلا بتطهير ذلك القلب، وتطهير القلب يكون بمراعاة الفروض الظاهرة والباطنة معًا.

يقول الإمام الرباني السرهندي رحمه الله:

«ينبغي أن يكون متوجهًا إلى الباطن بعد جعل الظاهر محلًّى بإتيان الأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطًا بالغفلة. والتحلي بالأحكام الشرعية بدون إمداد الباطن متعذر. وظيفة العلماء الافتاء، وشغل أهل الله العمل، والاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد، وأحواله الباطنية استدراجاته، وعلامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية، وطريق الاستقامة هو هذا».[٨٩١]

---

٨٩٠ انظر: الذاريات، ٥٦.

٨٩١ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ١٣٦، رقم: ٨٧.

فلا ننسى أن أداء العبادات ظاهرًا فقط لا يعني تمام العبودية لله تعالى، وليست العبودية لله تعالى حصرها بالأخلاق فقط، كأن يقول أحدهم: «أنا قلبي طاهر». وإنما العبودية المطلوبة المزج بين العبادات الظاهرة والباطنة كما أمر الله تعالى. ومن الفروض الباطنة التي على المؤمن أن يحرص عليها:

الأخلاق الحسنة

وهي أهم الفروض الباطنة، فمن أعظم علامات الإيمان الحقيقي والعبادات المقبولة تحلي المرء بالأخلاق الحسنة.فعن أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قال: :

«**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**».[٨٩٢]

وقد جعل الله تعالى كمال الأخلاق متمثلة في شخصية رسول الله ﷺ، فهو المبعوث رحمةً للعالمين وأسوة حسنة للناس أجمعين. قال الله تعالى في كتابه الكريم مخاطبًا نبيه:

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٨٩٣]

وقال رسول الله ﷺ:

«**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**».[٨٩٤]

فعلينا أن نقيس أنفسنا بحسن أخلاق نبيِّنا، ونحاسبها دائمًا في هذا الشأن.

وقد كان الصحابة الكرام يقتدون بالنبي ﷺ في كل أقواله وأفعاله، ذلك أن همهم في الحياة كان نيل البشارة في حديث النبي ﷺ: «**المرء مع من أحب**».[٨٩٥]

---

٨٩٢ الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢.

٨٩٣ القلم: ٤.

٨٩٤ موطأ، حسن الخلق، ٨.

٨٩٥ البخاري، الأدب، ٩٦/ ٦١٦٨؛ مسلم، البر، ١٦٥/ ٢٦٤٠.

فعلينا نحن أن نزيد من محبتنا لرسول الله ﷺ كي نكون معه، فهو مرشدنا في هذه الدنيا وشفيعنا إن شاء الله في الآخرة. وشرط المحبة الطاعة والتضحية.

قال الحسن البصري رحمه الله:

«لا يغرنك قول من يقول: "المرء مع من أحب"، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم».[٨٩٦]

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:

«تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بأي عمل عملته؟ بأي شهوة تركتها؟ بأي غيظ كظمته؟ بأي رحم قاطع وصلتها؟ بأي زلة لأخيك غفرتها؟ بأي قريب باعدته في الله؟ بأي بعيد قاربته في الله؟».[٨٩٧]

فعلينا أن نحاسب أنفسنا ونتساءل كم نسعى للاقتداء بنبينا الكريم ﷺ وكم نطيعه ونسير على دربه. ولا ننسى أن طاعتنا لرسول الله علامة واضحة لمحبتنا لله تعالى. فقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٨٩٨]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال:

«**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**».[٨٩٩]

---

٨٩٦ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢، ١٦٠.

٨٩٧ الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢، ١٦٠.

٨٩٨ آل عمران: ٣١.

٨٩٩ البخاري، الاعتصام، ٢.

الأدب والحياء

إن للأدب مكانة عظيمة في دين الإسلام، حتى إنه يمكن القول إن "الدين مجموعة آداب".

وإذا ما نظرنا بعين الحكمة والبصيرة، نجد أن أكثر موضوع طُرِحَ في القرآن الكريم هو الأدب والحياء، فالقصص فيه ذُكِرَت بقصد تعليم الأدب والحياء أي كمال السلوك والحذر من الذنوب خشية من الله تعالى. وقد قال مولانا جلال الدين الرومي:

«مَن لم يكن له حظ من الأدب، فليس بإنسان، لأن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو الأدب».

«سألتُ عقلي: ما الإيمان؟، فانحنى نحو قلبي وهمس: إنما الإيمان الأدب».

إنَّ مَن يكون في حضرة ملك أو ذي مقام عال لا يكون في أقواله وأفعاله كما يكون في أحواله العادية، فيسعى للتحلي بالأدب. والمؤمن يعيش حياته مدركًا أنه في حضرة الله تعالى كل حين، لذلك يحرص على التحلي بالأدب، فتنعكس حالة الأدب عليه طوال حياته، ويعيش مدركًا سِر قوله تعالى:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾(٩٠٠)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«استحيوا من الله حق الحياء».

قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال:

«ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».(٩٠١)

---

٩٠٠ الحديد: ٤.

٩٠١ الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨.

التزكية

يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٩٠٢)

إن بداية التزكية تكون بالتطهر من الكفر والنفاق والشرك الأكبر والأصغر، ذلك أن أعظم الفروض الباطنة التي أمر الله تعالى بها عباده الإيمانُ به وبوحدانيته وتجنبُ الشرك به.

قال رسول الله ﷺ:

«**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**».(٩٠٣)

فعلى الإنسان أن يتطهر من الكفر والنفاق والشرك حتى يقبل الحقائق الإلهية التي تأتيه، ومثل ذلك كمثل تنظيف الجرح من الجراثيم ثم وضع المرهم عليه. وقد ورد في قاعدة من قواعد "مجلة الأحكام العدلية" أن: «دفع المفاسد أولى من جلب المنافع». وكلمة التوحيد تبدأ بـ"لا إله" أي يبعد العبد من قلبه كل ما يبعده عن الله، ثم يثبت على ذلك الأساس الطاهر حقيقةَ "إلا الله" وبذلك يكون التوحيد.

والتزكية تخلية القلب من المفاسد والمساوئ والشرور ثم تحليته بخصال التقوى من إيمان وعلم وحكمة وأخلاق حميدة.

ولا يمكن القضاء على أهواء النفس بالتمام، وليس ذلك من أوامر الدين. والتزكية ضبط تلك الأهواء في الإطار المشروع الذي ارتضاه الله تعالى.

٩٠٢ آل عمران: ١٦٤.

٩٠٣ مسلم، الإيمان، ١٥١/ ٩٣.

والتزكية تعني النجاة من الحرص على الدنيا الذي يعد أم المفاسد المعنوية.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾(٩٠٤)

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(٩٠٥)

الإخلاص

إن الإخلاص شرط أساسي لقبول الأعمال لدى الله تعالى. والإخلاص أداء الأعمال بقصد رضا الله سبحانه وتعالى وحده أي عدم ابتغاء أي منفعة دنيوية من ورائها.

والإخلاص للعمل كالروح للبدن. والعمل بلا إخلاص كالشكل بلا جوهر.

قال رسول الله ﷺ:

«**إنما الأعمال بالنيات...**».(٩٠٦)

وأهم واجب على المسلم في عبوديته لله تعالى أن يُخرِج من قلبه كلَّ غاية غير رضا الله تعالى القائل في كتابه العزيز:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾(٩٠٧)

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾(٩٠٨)

---

٩٠٤ الأعلى: ١٤-١٥.

٩٠٥ الشمس: ٧-١٠.

٩٠٦ البخاري، بدء الوحي، ١.

٩٠٧ الزمر: ٢.

٩٠٨ الزمر: ١١.

قال ذو النون المصري رحمه الله:

«الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم يغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم».[٩٠٩]

التفكر

إن التفكر في الحقائق في صمت من أعظم الأعمال التي تحمل صاحبها إلى قمة اللذة المعنوية. والتفكر على ضوء الكتاب والسنة مفتاح الإيمان. وكلما تعمق الإنسان في تفكره في حياته، زاد تعظيمه لله تعالى وإجلاله له.

وقد دعا الله تعالى عباده إلى التفكر فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٩١٠]

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٩١١]

إن القرآن الكريم الذي يُعدُّ هدى للناس كافة يدعو إلى التفكر من أول آية فيه إلى آخر آية، فيطلب بذلك منهم معرفة الحِكَم في الخَلق، والنظام الدقيق في الكون، والإعجاز البياني في آياته، ويحذرِّهم في آيات كثيرة مثل: "أفلا تعقلون" و"أفلا تتفكرون" فعلى كل مَن أراد العيش بشرف إنسانيته وتذوق اللذة الروحانية أن يتفكر كما ورد في القرآن الكريم.

---

٩٠٩ البيهقي، شعب الإيمان، ٩، ١٨١.

٩١٠ آل عمران،: ١٩٠-١٩١.

٩١١ الغاشية: ١٧-٢٠.

التواضع

التواضع يعني أن يدرك العبد عجزه وفقره أمام عظمة الله تعالى وقدرته، أي يعلم حدوده.

وقد أخبرنا الله تعالى أن السعادة في الآخرة تكون لمَن لا يتكبرون في الدنيا ولا يفسدون فيها ويخشون الله تعالى.[٩١٢] ذلك أنه من ابتعد عن نعمة التواضع وأصابه الغرور والكبر، لم ينجُ من تأليه أهواء نفسه وغوائلها.

قال رسول الله ﷺ:

«**ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار: كل جواظ عتل مستكبر**».[٩١٣]

الأمانة والصدق

عن أبي موسى رضي الله عنه قال:

قالوا يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال:

«**مَن سلم المسلمون من لسانه ويده**».[٩١٤]

وقال رسول الله ﷺ:

«**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدِّيقًا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا**».[٩١٥]

---

٩١٢ انظر: القصص، ٨٣.

٩١٣ البخاري، الأيمان، ٩/ ٦٦٥٧، تفسير ٦٨/ ١، الأدب، ٦١/ ٦٠٧١؛ مسلم، الجنة، ٤٧/ ٢٨٥٣.

٩١٤ البخاري، الإيمان، ٤/ ١٠، ٥/ ١١، الرقاق، ٢٦/ ٦٤٨٤؛ مسلم، الإيمان، ٦٤/ ٤٠، ٦٥/ ٤١.

٩١٥ البخاري، الأدب، ٦٩/ ٦٠٩٤؛ مسلم، البر، ١٠٣-١٠٥/ ٧٠٦٢.



الصبر

الصبر هو الحفاظ على التوازن والاعتدال، والتحمل، ومقاومة المشقات، والثبات على الإيمان مع تقلب الأحوال المادية والمعنوية.

فالصبر من هذا الجانب مركز الأخلاق الحميدة وشطر الإيمان ومفتاح السعادة.

وأول شروط الصبر إظهاره في أول وقوع الحادثة التي تقتضيه، ولا أجر للصبر في غير وقته.(٩١٦)

ومهما اشتد ألم الصبر في الدنيا، زاد الثواب عليه في الآخرة. ومَن احتمل ألم الصبر، نال رضا الله تعالى وجنانه. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٩١٧)

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٩١٨)

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس:

ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشَّف، فادعُ الله لي، قال:

«إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»

فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها.(٩١٩)

فهذا هو الصبر على البلايا ابتغاء رضا الله تعالى!



---

٩١٦ انظر: البخاري، الجنائز، ٣٢.

٩١٧ آل عمران: ٢٠٠.

٩١٨ الزمر: ١٠.

٩١٩ البخاري، المرضى، ٦/ ٥٦٥٢؛ مسلم، البر، ٥٤/ ٢٥٧٦.



تنبيهات لسالكي رحلة الخلود

الحياة بغفلة هي اللعب في الطفولة، والشهوة في الشباب، والغفلة في الرشد، والحسرة والندامة على ما فات في الشيخوخة...

قال رسول الله ﷺ:

جاء جبريل عليه السلام... فقال:

«**يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به**» ثم قال: «**يا محمد شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس**».(٩٢٠)

«**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**».(٩٢١)

«**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**».(٩٢٢)

«**يقول ابن آدم: مالي، مالي، قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟**».(٩٢٣)

---

٩٢٠ الحاكم، المستدرك، ٤، ٣٦٠-٣٦١/ ٧٩٢١.

٩٢١ البخاري، الرقاق، ٣/ ٦٤١٦؛ الترمذي، الزهد، ٢٥.

٩٢٢ الترمذي، صفة القيامة، ٣٠/ ٢٤٦٥.

٩٢٣ مسلم، الزهد، ٣-٤/ ٢٩٥٨؛ الترمذي، الزهد، ٣٤/ ٢٣٤٢.



«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».[٩٢٤]

«إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه، وأجمع اليأس عما في أيدي الناس».[٩٢٥]

«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».[٩٢٦]

«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».[٩٢٧]

«إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها».[٩٢٨]



---

٩٢٤ البخاري، الرقاق، ١٠/ ٦٤٣٦؛ مسلم، الزكاة، ١١٦/ ١٠٤٨، ١١٩/ ١٠٥٠.

٩٢٥ ابن ماجه، الزهد، ١٥/ ٤١٧١.

٩٢٦ مسلم، صفة القيامة، ٥٥/ ٢٨٠٧.

٩٢٧ الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢/ ١٦٣٩.

٩٢٨ البخاري، المغازي، ١٧/ ٤٠٤٢؛ مسلم، فضائل، ٣١/ ٢٢٩٦.



قال سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ:

✓ فُرَّ من الشرف يتبعك الشرف، واحرص على الموت توهبْ لك لاحياة.[٩٢٩]

✓ أين الوضَّاءةُ الحسنةُ وجوهُهم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصَّنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يُعطُون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع أركانهم، حين أضنِيَ بهم الدهر، وأصبحوا في ظلمات القبور، الوَحَا الوَحَا[٩٣٠]، ثم النجا النجا.[٩٣١]



قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ:

✓ ما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة أرنب.[٩٣٢]

✓ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا.[٩٣٣]



قال سيدنا عثمان بن عفان ﷺ:

✓ أربعة ظاهرهن فضيلة وباطنهن فريضة: مخالطة الصالحين فضيلة والاقتداء بهم فريضة، وتلاوة القرآن فضيلة والعمل به فريضة، والزيارة للقبور فضيلة والاستعداد لها فريضة، وعيادة المريض فضيلة واتخاذ الوصية منه فريضة.[٩٣٤]

---

٩٢٩ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣، ٦٧.

٩٣٠ أي السرعة السرعة.

٩٣١ البيهقي، شعب، ٧، ٣٦٤/ ١٠٥٩٥؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٠٢.

٩٣٢ ابن أبي شيبة، مصنف، ٨، ١٥٢؛ الزمخشري، ٦، ٢٢٧.

٩٣٣ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩.

٩٣٤ ابن حجر، المنبهات، ص١٤.



✓ لا ريب أن الله تعالى ذمَّ الدنيا كي لا تميلوا إليها، بل تطلبوا بها الآخرة. ولا جرم أن الدنيا فانية والآخرة باقية. فلا يثيرنَّكم ما كان فانيًا فيمنعكم عمَّا هو باق. اختاروا الباقي على الفاني، فللدنيا نهاية، والأوبة إلى الله، فاخشوه.[٩٣٥]

✓ هم الدنيا ظلمة في القلب، وهم الآخرة نور في القلب.[٩٣٦]



قال سيدنا علي بن أبي طالب ﵁:

✓ تمام النعمة الموت على الإسلام.[٩٣٧]

✓ يا دنيا غِري غيري، ألي تعرضت أم إلي تشوفت! هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.[٩٣٨]

✓ ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.[٩٣٩]

✓ الدنيا لين مسها قاتل سمها.[٩٤٠]

✓ الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا.[٩٤١]



---

٩٣٥ ابن أبي الدنيا، الموسوعة، ١، ٧٧.

٩٣٦ ابن حجر، المنبهات، ص٣.

٩٣٧ البيضاوي، أنوار التنزيل، ١، ٢٠١، [البقرة: ١٥٠].

٩٣٨ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣، ١١٠٨.

٩٣٩ البخاري، الرقاق، ٤.

٩٤٠ الرازي، مفاتيح الغيب، [آل عمران: ١٨٥]

٩٤١ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣١٢/ ٢٧٩٥.



قال معاذ بن جبل ﷺ لابنه:

✓ يا بني، إذا صليت صلاة فصلِّ صلاة مودع، لا تظن أنك تعود إليها أبدًا، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدمها، وحسنة أخرها.[٩٤٢]



قال أبو الدرداء ﷺ:

✓ لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة قوم ينتقون من خيار الكلام، كما ينتقى أطائب التمر.[٩٤٣]



قال الإمام الشافعي رحمه الله:

✓ يا من تعزز بالدنيا وزينتها ... الدهر يأتي على المبني والباني
ومن يكن عزه الدنيا وزينتها ... فعزه عن قليل زائل فاني
واعلم بأن كنوز الأرض من ذهب ... فاجعل كنوزك من برٍ وإيمانِ
✓ من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا ... وحب خالقها في قلبه فقد كذب.
✓ يا من يعانق دنيا لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سافرًا
هلا تركت لذي الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس أبكارًا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النارا



٩٤٢ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ص٢٣٣.

٩٤٣ ابن المبارك، الزهد، ١، ٩٤.



قال مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

✓ إن الحياة الدنيا كلها مثل حلمٌ، وإن كنت ذا مال فيها فأنت كمن يجد كنزًا في أحلامه، فمال الدنيا يبقى في الدنيا متنقلًا من جيل إلى آخر.

✓ إن مَلَك الموت يوقِظ الغني الغافل من نومه حين يأخذ روحه، فيندم حينئذ لمَا عاناه من مشقات ومصائب في الدنيا في سبيل تلك الأموال التي لم يكن يومًا صاحبها الحقيقي، لكن قُضِيَ الأمر، ولات ساعة مندم.

✓ أنفقْ مالَك ومُلكك كله، واشترِ قلبًا ليكون نورًا لك في قبرك، حين تمكث وحيدًا هناك في ظلام حالك.

✓ الدعاء والعبادة أن تكون مع الله تعالى، ومن يكون مع الله، فإن الموت والحياة كليهما سعادة له.



قال الشيخ سعدي الشيرازي رحمه الله:

✓ حين حضرَت أبي المنيةُ قال لي ناصحًا: «يا بني، إياك والشهوة فهي نار تحرقك. ولا توقدنَّ لنفسك نارَ جهنم، فإن لم تكن لديك طاقة لتتحمل تلك النار، فأطفئها بالماء بصبرٍ من يومك هذا».

✓ رأيت أعرابيًّا يقول لابنه: يا ولدي، يُقال لك يوم القيامة: «ماذا ربحت؟» لا «ما نسبك؟» أي إنك تُسأَل عن عملك، ولا يُقال لك: «من أبوك؟».

✓ العاقل مَن يحمل معه أمواله إلى الآخرة، [أي ينفقها في سبيل الله قبل أن يفارق الدنيا]، لكن البخلاء يرحلون من هذه الدنيا تاركين أموالهم وراءهم متحسِّرين عليها.



قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله:

✓ حين سُئِل: إننا ندعو الله منذ دهر فلا يستجيب لنا:

«عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، وادعيتم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به، وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها، وزعمتم محبة الجنة ولم تعملوا لها، وزعمتم الخوف من النار ورهنتم أنفسكم بها، وعلمتم إن الموت حق ولم تستعدوا له، فكيف يُستجَاب دعاؤكم؟» .



قال حاتم الأصم رحمه الله:

✓ حين سُئل: كيف نكون ممن ينظرون إلى الدنيا بعبرة؟

«إذا علمتم أن كل شيء في الدنيا صائر إلى خراب، وأن كل واحد ذاهب إلى التراب! مَن لم يعتبر بخروج جنازة من بيته أو قريب له، فلا ينفعه علمه ولا حكمة ولا وعظ ولا نصيحة».



قال أبو حاتم رحمه الله:

✓ اصرف أربعة أشياء إلى أربعة مواضع وخذ الجنة: النوم إلى القبر، والراحة إلى الصراط، والفخر إلى الميزان، والشهوات إلى الجنة.





خاتمة

لقد وضعَ الله سبحانه وتعالى خمس مراحل لحياة الإنسان، أولها عالم الأرواح، وثانيها رحم الأم، وثالثها الدنيا، ورابعها عالَم البرزخ، وخامسها حياة الخلود في الجنة أو النار.

وجعَل تعالى المرحلة الثالثة من هذه المراحل مرحلة امتحان للإنسان، فربط بين أفعاله في هذا العالَم وبين السعادة أو العذاب في دار الخلود.

يقول الله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(٩٤٤)

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(٩٤٥)

لكن العجيب أن الإنسان الذي يرى كيف تتبدل أحوال كل مخلوق فان في طاحونة الزمان يخدع نفسه في هذه الدنيا التي يُستضاف فيها لأيام، ويظن أن الموت بعيد عنه مع أنه يرى مشهد الجنائز دائمًا، ويحسب أنه صاحب الأمانات الفانية التي قد يفقدها في أي وقت.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي في هذا الشأن:

«أيها السالك، انظر إلى الصورة الأخيرة في المرآة! وفكِّر في قبح الجميل عند هرمه، ومآل البناء إلى الخراب، ولا تغتر بالكذب في المرآة».

---

٩٤٤ الملك: ٢.

٩٤٥ الأنبياء: ٣٥.

فالإنسان حينما يُجعَل لروحه لباس الجسد ويدخل الدنيا من بابها، فهو من ساعتئذ سائر على درب الموت.

فمَن عرفَ الموت، لم ينخدع بلذاذات الدنيا الفانية. ومَن أدركَ أنه سائر في رحلة الخلود، لم يقع قلبه في هوى زينة الدنيا التي يُستضَاف فيها لمدة قصيرة ولا في هوى زخرفها.

وما نفع أن يجمع المرء بين يديه نِعَم الدنيا الفانية كلها ويعيش في الدنيا ألف عام في سرور وحبور، إنْ كان مآله إلى حفرة ضيقة تحت التراب؟

والعجب العجاب أن الإنسان يعيش في هذه الدنيا راغبًا في العيش فيها عمرًا أطول، على أنه لا أحد يوم القيامة سيتحسر ويندم ويقول: «يا ليتني عشتُ في الدنيا أكثر»، بل ستكون حسرتهم على أنهم لم يأتوا الصالحات من الأعمال فيها، لأن الأصل في هذه المسألة: في أي شيء صرفَ الإنسان أنفاسَه في الدنيا.

والقبر في الأساس نموذج عن المحشر وإنْ بدا كومة من تراب ظاهرًا، فهو كما ورد في الحديث الشريف[946] أولى منازل الآخرة، وسيكون وفقًا لاتباع صاحبه أوامر الله تعالى في الدنيا، كما قال رسول الله ﷺ:

«**إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**».[947]

وقد ذكرنا من قبل أن الحياة الدنيا المكان الوحيد الذي نستطيع فيه أن نعمل صالحًا كي نفوز في الآخرة، فالحياة حقيقة سامية لا تسعها المسافة بين المهد واللحد.

وإذا كان الجواب عن سؤال "ما الحياة؟" السؤالُ الذي قد يخطر على بال الإنسان، هو سواد التراب وحجارة القبر، فماذا يمكن أن يكون أشد ألمًا من هذه

٩٤٦ انظر: الترمذي، الزهد، ٥/ ٢٣٠٨؛ أحمد، مسند، ١، ٦٣-٦٤.

٩٤٧ الترمذي، القيامة، ٢٦.

الحياة؟ إن حياة كهذه ليست إلا لعبًا في الطفولة، وشهوة في الشباب، وغفلة في الرشد، وحسرة وندامة في الشيخوخة.

أما المؤمنون العارفون الذين يرون الحياة من منظور الإيمان، فيعيشون أعمالهم بدِقَّة ورِقَّة مدركين الحياة الحقيقية بعد الموت. فلا بد من وجود إيمان حقيقي لدى الإنسان كي يستعد حق الاستعداد لرحلة الخلود، فكل إنسان سيرى جزاء أعماله الصالحة منها والطالحة يوم العرض الأكبر.

ولا شك أن الموت أصعب حقيقة سيلقاها كل إنسان، ولا يمكن لأحرف الكلمات أن تحمل ثقل الموت! وموت الناس حولنا دروس صامتة معبرة تعرض للقلوب الرقيقة عِبرًا وحِكمًا وحقائق أبلغ تأثيرًا وأشد وقعًا من أفصح العبارات. وما أعظم المعاني التي يدفنها الموت بلسان حاله في صمت مُطبِق، للذين يسمعون ويرون ويعون...

رأى الحسن البصري شيخًا في جنازة، فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ! أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يُردَّ إلى الدنيا فيزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة؟، فقال الشيخ: اللهم نعم! فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كلنا كهذا الميت؟! ثم انصرف وهو يقول: أي موعظةٍ؟ ما أبلغها لو كان بالقلوب حياةٌ؟ ولكن لا حياة لمنْ تنادي.[٩٤٨]

ومثَل العمر مثل بكرة لا يُعرَف متى ينقطع حبلها. وليس الأجل موعدًا لا يُعطَى إلا في الهرم. فكل حي يُولَد مُرشَّح للموت، وكل إنسان في سِنِّ الموت. ولو ذهب أحدنا إلى مقبرة، لرأى كثيرًا من الميتين أصغر منه سِنًّا.

لذلك كان تأجيل الصلاة والحج إلى سن التقاعد، وترك التوبة والعمل الصالح إلى الغد المجهول سببًا لخسران كبير. فلسوفَ يأتي على العبد يوم لا غد له! وقد جعله الله تعالى مجهولًا حتى يُعِدَّ له العبد كل لحظة.

---

٩٤٨ ابن الجوزي، آداب الحسن البصري، تحقيق. سليمان الحرش، دار النوادر، ١٤٢٨، ص٢٩.

لذلك عدَّ دين الإسلام ذِكرَ العبدِ الموتَ و"رحلة الخلود" والتفكر فيهما والاستعداد كل حين علامةً مُبينةً على رجاحة عقله.

إذ لمَّا سُئِلَ رسول الله ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟ قال:

«أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس».(٩٤٩)

إن الموت الذي يأتي ببشرى الفوز في الآخرة لا يكون إلا من نصيب المؤمنين الذين وصفهم النبي ﷺ بـ"الأكياس". فهؤلاء المؤمنون قد جمعوا دائمًا لآلئ الحقيقة في بحر أعمارهم، وقطفوا ثمار السعادة من بستان الفضيلة، وزرعوا بذور الحمد والشكر والرضا في حديقة الإيمان.

وكما قال رسول الله ﷺ: **«اللهم إن العيش عيش الآخرة»**.(٩٥٠)

فعلينا ألا ننسى أبدًا أننا جئنا للدنيا من أجل الآخرة، وأن نسأل أنفسنا دائمًا: إلى أين تصير هذه المخلوقات كلها على كثرة عددها؟ لِمَ المجيء إلى هذه الدنيا ثم الرحيل إلى الآخرة؟ ما العِبَر من كل هذه المواليد والوفيات؟ لماذا وُلِدنا؟ وفي مُلكِ مَن نعيش؟ وإلى أين المصير؟ ما عاقبتنا؟هل نحن مستعدون للحساب يوم المحشر؟ ماذا أعددنا اليوم لآخرتنا؟

ويدعونا الله تعالى كثيرًا للتفكر في يوم القيامة، فهو يخبرنا عن القيامة في القرآن الكريم لا سيما في أجزائه الثلاثة الأخيرة. ماذا سيحل بالأرض، وكيف ستمسي السماوات، وإلى أي حال سيصير الناس؟ فعلينا أن نتفكر ونتدبر هذه الحقائق ونسعى لنصل إلى أعلى درجات التقوى.

وعلينا أن نذكر دائمًا أن الموت الذي يعد آخر مشهد في الحياة هو كالمرآة الذي سيشاهد فيها كل إنسان عاقبته. فلنحفظ مرآة أنفاسنا الأخيرة من آثار الذنوب والغفلة والمعصية حتى يغدو الموت جسرًا لفوز عظيم لا لخسران مبين.

---

٩٤٩ ابن ماجه، الزهد، ٣١/ ٤٢٥٩.

٩٥٠ البخاري، الجهاد، ٣٣/ ٢٨٣٤، الرقاق، ١/ ٦٤١٣؛ مسلم، الجهاد، ١٢٦/ ١٨٠٤.

وإذا أردنا أن نجمِّل صورة الموت، فالسبيل الوحيد لذلك إطاعة الأمر الإلهي: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[951]

إذن لنفكِّر بدرجة عبوديتنا لله تعالى:

- ✓ هل تحملنا الحياة التي نعيشها إلى الجنة؟
- ✓ هل تُبيِّض أعمالنا وجوهَنا أمام الميزان؟
- ✓ هل تيسِّر تضحياتنا عبورَنا الصراط؟
- ✓ هل نسعى لنبلِّغ دين الله فيستطيع الواحد منا أن يقول: «يا رب، قد فعلتُ ما استطعت...» إذا سُئِل عن أحوال الكثيرين ممَن سيحرقون دنياهم وآخرتهم بنار الكفر والفسق والفجور والعصيان؟

نسأل الله تعالى أن يجعلنا نعيش نعمة الحياة على رضاه، ونقضي أعمارنا في روحانية الإيمان وفيوضات القرآن، ونموت على الإسلام، ونقف في حضرته وقد تنزلت علينا تجليات رحمته ومغفرته، ونتشرف برؤية جماله في الجنان.

آمين!

طوبى لمَن رجع إلى ربه قبل أن يأتيه الموت! وطوبى للعباد الصالحين الذين ارتحلوا إلى دار الخلود تاركين وراءهم سيرة حسنة وذِكرًا طيبًا!



951 الحجر: 99.

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله، موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا، بيروت، ١٩٩٣م.

______، صفة النار، بيروت، ١٤١٧هـ.

- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن إدريس بن منذر التميمي الحنظلي الرازي (وفاته: ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المملكة العربية السعودية، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٩هـ.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، المصنف، تحقيق: سعيد محمد اللحام، بيروت، ١٩٨٩م.
- ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥م.

______، أسد الغابة، القاهرة، ١٩٧٠م.

- ابن الجوزي، صفة الصفوة، بيروت، ١٩٧٩م.

______، آدب الحسن البصري، تحقيق، سليمان الحرش، دار النوادر، ١٤٢٨هـ؛

______، بستان الواعظين ورياض السامعين، بيروت، ١٤١٩هـ.

- ابن المبارك (وفاته: ١٨١هـ)، الزهد، بيروت، دار الكتب العلمية.
- ابن الملقن، طبقات الأولياء، القاهرة، ١٤١٥هـ.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البُستي (وفاته: ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ.



- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر؛

______، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، ١٣٧٩هـ.

- ابن راهويه، أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي الحنظلي المروزي (وفاته: ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م)، مسند، تحقيق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، المدينة المنورة، مكتبة الإيمان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- ابن رجب، لطائف المعارف، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي (وفاته: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الصادر، ١٩٦٨م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة.
- ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، القاهرة، ١٤١٩هـ.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٩٨٨م؛

______، البداية والنهاية، القاهرة، ١٩٩٣م؛

______، النهاية في الفتن والملاحم، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٨م.

- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن زياد ماجة القزويني (وفاته: ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م)، السنن، الناشر: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- ابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى العبدي (وفاته: ٣٩٥هـ)، الإيمان، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ.

- ابن هشام، أبو محمد عبد المالك بن هشام، سيرة النبي، بيروت، دار الفكر، ١٩٣٧م.
- أبو بكر بن الخلال، القراءة عند القبور، بيروت، ١٤٢٤.
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني الأزدي (وفاته: ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م)، سنن أبي داود، بيروت، المكتبة العصرية.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصفهاني (وفاته: ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر، السعادة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله (وفاته: ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، مسند، القاهرة، مؤسسة قرطبة.
- الألوسي، شهاب الدين سيد محمد بن عبد الله الحسيني (وفاته: ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
- البلاذري، أنساب الأشراف، مصر، ١٩٥٩م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (وفاته: ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
- البورصوي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإسطنبولي الحنفي (وفاته: ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م)، روح البيان، بيروت، دار الفكر.
- البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، دمشق، ١٩٩٧م.
- البيهقي، أحمد بن حسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبو بكر (وفاته: ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العالي عبد الحميد حميد- مختار أحمد الندوي، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

ـــــــــ، الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، جدة، مكتبة السوادي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ـــــــــ ، السنن الكبرى، دار الفكر.

ـــــــــ ، كتاب الزهد الكبير، بيروت، ١٩٩٦م.

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة بن موسى بن الضحاك (وفاته: ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، السنن، تحقيق: أحمد محمد شاكر- محمد فؤاد عبد الباقي- إبراهيم عطوة عوض، مصر، مكتبة مصطفى البابي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (وفاته: ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- الحلبي، أبو الفرج علي بن إبراهيم، إنسان العيون، مصر، ١٩٦٤م.
- الخاني، محمد بن عبد الله، الحدائق الوردية، دمشق، ١٤١٧هـ.
- الدارمي، أبو محمد بعد الله بن عبد الرحمن (وفاته: ٢٢٥هـ/ ٨٦٩م)، سنن الدارمي، دار المغني، ٢٠٠٠م.
- الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، الفردوس بميسور الخطاب، بيروت، ١٩٨٦م.
- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن حسن بن حسين التيمي (وفاته: ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م)، التفسير الكبير (مفتاح الغيب)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (وفاته: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، شرح الصدور، لبنان، ١٤١٧هـ.

ـــــــــ ، الجامع الصغير، مصر، ١٣٠٦هـ؛

ـــــــــ ، بشرى الكئيب بلقاء الحبيب، دمشق، ١٤٢٥هـ؛

ـــــــــ ، لباب النقول، تخريج: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م؛



ـــــــــ، تاريخ الخلفاء، مصر، ١٩٦٩م؛

ـــــــــ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الفكر؛

ـــــــــ، الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، دار ابن عفان، ١٤١٦هـ.

- الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (وفاته: ٣٦٠هـ/ ٩٧١م)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر (وفاته: ٣١٠هـ/ ٩٢٣م)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠.
- الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ.
- العظيم آبادي، أبو الطيب شمس الحق محمد بن أمير علي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (وفاته: ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (وفاته: ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي- محمد علي النجار- عبد الفتاح إسماعيل الشبلي، مصر، دار المصرية.
- القسطلاني، أبو العباس أحمد بن محمد، المواهب اللدنية، مصر، ١٢٨١م.
- القرطبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبو بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (وفاته: ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، الرياض، دار المنهاج، ١٤٢٥هـ؛

ـــــــــ، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، ١٩٨٥م.

- القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر (وفاته: ٤٥٤هـ)، مسند الشهاب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م.

- القشيري، أبو القاسم زين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (وفاته: ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، لطائف الإشارات، تحقيق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م؛

______، الرسالة، القاهرة، دار المعارف.

- الكشميري، محمد أنور شاه (وفاته: ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، التصريح بما تواتر في نزول المسيح، حلب، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف، فيض القدير شرح الجامع الصغير، بيروت، ١٩٩٤م.
- المنذري، الترغيب والترهيب، بيروت، ١٤١٧هـ.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (وفاته: ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، المجتبى من السنن (السنن الصغرى)، حلب، ١٩٨٦م.
- النووي، رياض الصالحين، بيروت.

______، شرح صحيح مسلم، مصر، ١٩٨١م.

- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (وفاته: ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (وفاته: ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م)، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- خطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية.
- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، القاهرة، دار الشروق.
- عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، أبو بكر (وفاته: ٢١١هـ/ ٨٢٦-٨٢٧م)، مصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٣هـ.

- علي المتقي الهندي، علي بن حسام الدين بن عبد الملك بن قاضي خان (وفاته: ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني– صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي اليمني أبو عبد الله (وفاته: ١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، الموطأ، الناشر: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، ١٩٨٥م.
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (وفاته: ٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، الصحيح، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

المراجع التركية

- Abdülganî bin Ebî Saîd el-Ömerîüvelganî Risâlesi, (Abdullah Dehlevî, Makāmât-ı Mazhariyye, İstanbul 2002 içinde).
- Ahmed Naîm Efendi, Tecrîd-i Sarîh Tercemesi, Ankara, 1993.
- Ali bin Hüseyin Safî, Reşahât-ı Aynü'l-Hayât, sad. Mustafa Özsaray, İstanbul, 2010, Semerkant Yayınları.
- Babanzâde Ahmed Naîm, İslâm Ahlâkının Esasları, İstanbul 1963.
- Birgivî Vasiyetnâmesi Kadızâde Şerhi, İstanbul: Bedir, 2009.
- Çıktım Erik Dalına, haz. Suat Ak, İstanbul: Büyüyen Ay, 2012.
- Harakānî, Ebû'l-Hasen, Nûru'l-Ulûm, (Hasan Çiftçi, Şeyh Ebû'l-Hasen-i Harakānî (r.a), Kars 2004.
- İmâm-ı Rabbânî, Mektûbât, I-III, İstanbul 2007- 2010, Yâsin Yayınevi.
- Kandemir, M. Yaşar, Şifâ-i Şerîf Şerhi, İstanbul 2012.



- Kandemir, Yaşar; Çakan, İsmail Lütfi; Küçük, Raşit, Riyâzü's-Sâlihîn Tercüme ve Şerhi, İstanbul, Kampanya Kitapları, 1434 /2013.
- Karaman, Hayrettin, Ebediyet Yolcusunu Uğurlarken, Ankara, 1999.
- Kısakürek, Necip Fâzıl, Îman ve İslâm Atlası, İstanbul 2017, Büyük Doğu Yay.
- Yılmaz, Hasan Kâmil, Altın Silsile, İstanbul 2005, Erkam Yayınları.
- Yurdagür, Metin, "Duhân" mad., Diyânet İslâm Ansiklopedisi, yıl: 1994, cilt: 9, sayfa: 546 - 548.

فهرس



الفصل الثالث

الموت/ ٦٣

الفصل الرابع

حياة القبر/ ٩٧



الفصل السادس

أحوال الآخرة/ ١٨٥



الفصل السابع

جهنم/ ٢٥٥

الفصل الثامن

الجنة/ ٢٨٥

